بسم الله الرحمن الرحيم

عاشق الفكر والثقافة

محمد عدنان سالم

عاشق الفكر والثقافة

محمد عدنان سالم

(ذكرى مرور زهاء ستين عاماً على تأسيس دار الفكر)

كلمات وبحوث مهداة إليه

إعداد

نزار أباظة



عاشق الفكر والثقافة

محمد عدنان سالم

إعداد: نزار أباظة

الرقم الاصطلاحي: ٢٤٥١.٠١١

الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-951-6

الرقم الموضوعي: ٩٢٠ (التراجم والسير)

٢٨٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م



آفاق معرفة متجدّدة

دار الفكر – دمشق ☎ ٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

دار الفكر المعاصر – بيروت ☎ ٨٦٠٧٣٩ ١ ٠٠٩٦١

http:/www.fikr.com – e-mail:fikr@fikr.net





صفحة بيضاء

رقم 6

المحتوى

البحوث المهداة إليه

كلمات مهداة إليه

❁ ❁ ❁

صفحة بيضاء

رقم 10

بين يدي الكتاب

مضى على تأسيس دار الفكر زهاء ستين عاماً، أمضتها في خدمة المعرفة.

ماذا حققت الدار على مدى السنوات المذكورة؟

ماذا كانت حصيلتها؟

ماذا يقال عنها؟.. وهل رضي قراؤها؟

وكيف ينظرون إليها اليوم؟

وهل ترضى هي عن نفسها؟

وكيف كانت تتصرف إزاء المشكلات التي تعترض مسيرتها؟

هذه أسئلة إذا أجيب عنها بالجواب المنصف؛ استطعنا أن نضع دار الفكر في حيزها الصحيح بين دور النشر.

ولكن قبل الإجابة عن تلك الأسئلة؛ يجب أن نسأل السؤال الكبير:

ما مسوؤلية الناشر؟

أهو تاجر كسائر التجار، يطبع الكتاب ليبيعه في السوق بزيادة على التكلفة فيحقق الربح؟

أم هو يضع نفسه في خدمة الكلمة؟

ربما يحدد السوق قيمة الناشر بالكمية التي أنتجها من الكتب..!

وربما يشيرون إلى عمقه في الزمان.. أو امتداده في المكان..

بعضهم يفضل الناشر الذي يهتم بالتراث.

وآخرون يقولون إن المعاصرة والتجدد هما الأسمى!

وناشرون متخصصون بالعلوم البحتة أو التطبيقية..

ودور تقصر همّها على الأطفال..

وآخرون ينوعون نتاجهم لعموم المعرفة..

كل هؤلاء مقبول مرتضى.. وكلهم يحترمه القارئ المنصف.. أما أن يسعى الناشر في تجارة الكتب، ولا وجهة له من إيمان بالكلمة، أو حمل لمسؤولية، أو تحديد لهدف، فذلك الذي يجب أن يبحث عن عمل آخر غير النشر، على أن يكون عملاً هيّناً.. ليس من ورائه تبعة ولا تكليف ولا إرهاق..

ليس معنى هذا أن ننتقص من الأعمال الأخرى أبداً، فكل عمل شريف محترمٌ، ما دام صاحبه يلتزم أمانة العمل وآدابه..

ولكن في بعض الأعمال أخطاء ليست بذات خطر، بخلاف النشر وصنعة الكتاب، فربما يؤذي انحراف كِتاب جيلاً يُدخل في

عقله عفناً يزيّنه له، ورب كلمة يروّج لها كاتب يهوي بها الذي يتبعها إلى الدرك الأسفل من الخسران.

إن الناشر شريك الكاتب، والناشر الذي يهمه ربح الكتاب قبل أن ينتبه إلى مضمونه، لهو رجل غير جدير بالاحترام، ولا يخدم عمله إلا جيبه، ولا يدري أنه مأجور مثل صاحب العمل أو مأزور.. ولن يحوز عنوان الشرف الذي يحوزه حامل الرسالة الذي قال فيه الشاعر:

أرأيت أشرفَ أو أجلَّ من الذي يبني ويُنشئ أنفساً وعقولا؟

فلينظر كل ناشر بما يصنع.. فإنه على خطر عظيم.

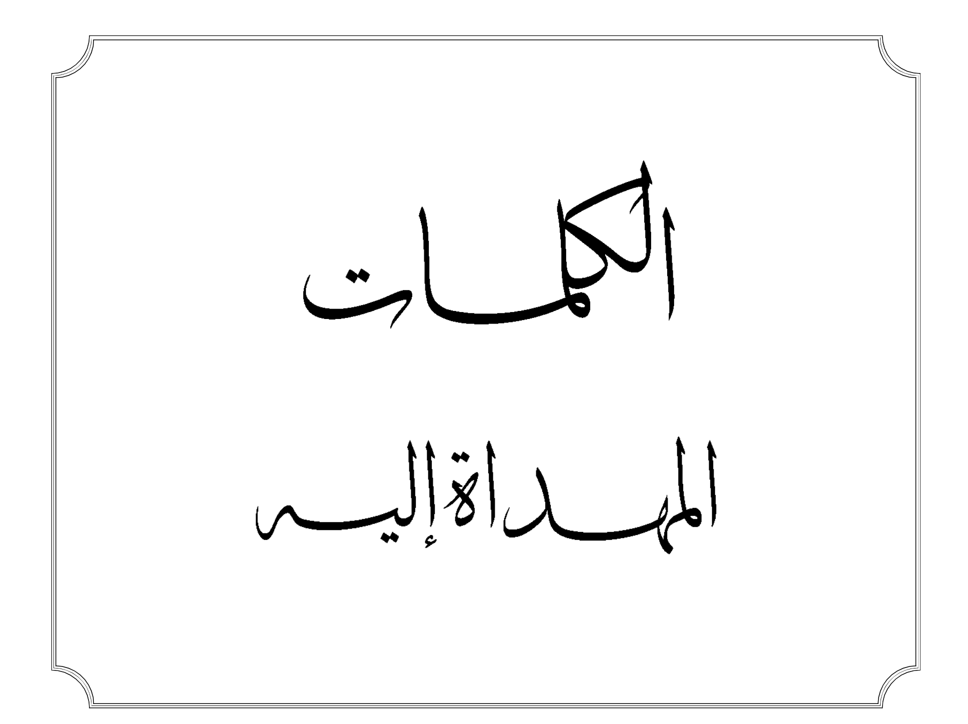
ويكفي دار الفكر فخراً ما يصل إليها كل حين؛ من عبارات الثناء وكلمات الشكر، من قراء يقدرونها قدْرها.. ويعرفون منزلتها ومنزلة القائمين عليها.

بهذه المناسبة أحب أصدقاء الأستاذ محمد عدنان سالم؛ المدير العام لهذه الدار؛ أن يهدوا إليه كلماتهم، يكون هذا الكتاب ذكرى وفاء ومحبة له وللدار، في ذكرى سنواتها الستين. . راجين لها موفور العطاء.

نزار أباظة

صفحة بيضاء

رقم 14


الكلمات
المهداة إليه

صفحة بيضاء

رقم 16

شهادة

أ. حسين العودات

ذات يوم، قبل ربع قرن ونيف،التقيت بأبي حسن في مكتبه بدار الفكر، لم أكن قد (تورطت) بمهنة النشر في ذلك الوقت، وكنت أحمل مخطوطاً أود طباعته على حسابي، وقيل لي إن دار الفكر موصوفة بجودة عملها، ويمكن ائتمانها على مثل هذا العمل، وبعد أن ترددت كثيراً لأنني كنت أسمع أن دار الفكر تهتم بالتراث والفكر السلفي، بل والأكثر أنها ملتزمة بموقف إيديولوجي وسياسي وثقافي متطرف دينياً، وترفض مسبقاً الرأي الآخر أو الاهتمام بالفكر الآخر، لأن قناعتها لا تتزحزح، ومن ثم فلا مكان للحوار أو قبول الفكر المخالف؛ حتى لو كان الأمر يتعلق بطبع كتاب من غير منشوراتها، وهذا ما اكتشفت زيفه فيما بعد، وكان ترددي مفهوماً، وربما مقبولاً؛ لأن مخطوطي ليس بتراثي ولا سلفي، بل كان بعيداً عن هذا التيار الفكري، إلا أنني وجدتها مناسبة للتعرف على فكر دار الفكر ومعرفة آراء أهله، وإن أمكن محاورتهم، خاصة أن دار الفكر أهم دور النشر السورية ومن أهم دور النشر العربية، وربما يفيد الحوار - هكذا تصورت - في زحزحة أهلها وخاصة مديرها عدنان

سالم عن رأيه، والأمر محاولة حوار على أية حال، وفي النهاية أخذت موعداً من أبي حسن وقابلته، ولم أفاجأ بترحيبه ووده فذلك قيل لي مسبقاً، إنما فوجئت بما لديه من ثقافة متنوعة، غنية، عميقة، ليس في إطار الفكر السلفي والتراثي، وإنما بمختلف أصناف الثقافة ومنابعها، إلا أن الذي فاجأني أكثر؛ هو فكره المتحرر وقبوله للرأي الآخر، مهما كان هذا الرأي متطرفاً، وكاد يرد إلي بضاعتي، وذهب بعيداً في توجعه من أحادية الرأي السائدة، وإيمانه بأهمية التعدد، وانطلاقه في ذلك كله من ثوابت إسلامية؛ تستند إلى جوهر الدين والثقافة الإسلامية، وتستند إلى خطاب إسلامي متنور بريء من التلفيق الذي كنا وما زلنا نشهده في هذا المجال، وقد عرض رأيه بعفوية عز نظيرها، ودون ادعاء أو (استعراض)، وبتواضع شديد الوضوح، وقد أسعدني رأيه و (أغواني)، وأذكر أنني لفرط سعادتي شعرت بحاجة إلى تدخين سيجارة رغم اللصائق التي ملأت مكتبه تذكّر الضيف بضرورة عدم التدخين، فاستأذنت منه بعدوانية لم يجد معها ومع تواضعه وتسامحه بداً من قبول خرق هذا التقليد.

لاحقاً، وبعد أن أصبحت ناشراً، عملنا معاً في اللجنة المؤقتة لاتحاد الناشرين التي مهدت لتأسيس الاتحاد؛ بقيت مؤقتة سنوات كثيرة، وعرفته عن قرب أكثر فأكثر، فوجدت فيه الناشر المثقف الذي يشعر بمسؤولية تجاه عملية النشر حتى تماهى معها، ودأبه الذي لا يصدق في سبيل رفع مستوى المهنة ومستوى الإبداع، وأعجبت بصبره وأناته وتحمله نقد الناشرين الآخرين، واستعجالهم تحقيق ما لم تكتمل الظروف لتحقيقه، واحترامه لصغيرهم وكبيرهم،

للمتطرف منهم والمعتدل، لمن يوافقه الرأي أو يخالفه، وولعه بعملية النشر التي كادت تصبح مبرر وجوده واستمراره، ومتابعته كل ما يتعلق بالمهنة، أو صبره على بيروقراطية مؤسسات الدولة التي كانت تعيق ازدهار المهنة، و (اختراعه) المستمر لأفكار وممارسات من شأنها أن تفيدها، فيوم الكتاب العالمي هو يومه الذي يجب أن يجعل منه مهرجاناً وعملاً ثقافياً يعم الناس جميعاً، ودأبه كي يكون لدار الفكر أسبوع سنوي تحتفي فيه بمؤلفين مبدعين، وإصراره المحمود على إنجاح مشروع القارئ النهم، وعلى تفعيل مشاريع عديدة تصب في تحقيق هذا الهدف.



تكريم أ. د. عبد الوهاب المسيري عام ٢٠٠٧

كنا معاً عضوين في المكتب التنفيذي لاتحاد الناشرين العرب، وكان معظمنا أقدم على ترشيح نفسه لمزيد من الهيبة والسمعة، وربما للاستفادة من المنصب، إلا عدنان سالم، فقد كنا جميعاً، ومن مختلف البلدان العربية، ندفعه دفعاً للبقاء في قيادة الاتحاد، مع أنه بدءاً من اليوم الثاني للانتخاب كان يغرقنا باقتراحاته ومشاريعه الكاملة المتكاملة، ولا يمل من ملاحقتنا لتنفيذ قراراتنا التي لم تكن تجد طريقها للتنفيذ؛ شأن معظم القرارات العربية. لم يكن يكلّ أو يتذمر من المتابعة بالرغم من بطء قيادة الاتحاد في تنفيذ برامجها، ومع تواضعه المعهود وتسامحه المشهود، فقد كان حاداً كالسيف عندما يتعلق الأمر بالمهنة والحرية والحق والعدالة.

تحية لعدنان سالم الصابر الدؤوب، المتابع المتسامح، الديمقراطي، الشاعر بالمسؤولية دائماً سواء كانت مهنية أم وطنية.. مع التمنيات له بدوام الصحة وطول العمر ومزيد من النجاح.

الأُستاذ محمد عدنان سالم ودار الفكر وأُخوَّة عقود

د. شوقي أبو خليل

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن اتَّبع هداه، وبعد..

فإذا كتبت عن الأُستاذ محمد عدنان سالم ودار الفكر، أكتب بصفات ثلاث:

أُولاها: صفة المؤلِّف، فقد ربطتني بالأُستاذ عدنان هذه الصِّفة منذ عام ألف وتسع مئة وسبعين، حينما بدأت بنشر كتبي بدار الفكر، أي منذ ثمان وثلاثين سنة.

وثانيتها: صفة الصَّديق الذي متَّنت الأيام رابطته مع الدَّار.

وثالثتها: صفة الموظف الذي يدير إدارة النشر في دار الفكر منذ عام ألف وتسع مئة وتسعين، وهذه الصِّفات الثلاث، كانت وما زالت يكمِّل بعضها بعضاً إلى يومنا هذا، وفي قادمات الأيّام إن شاء الله.

ومن هنا، فإذا تكلَّمت عن الأستاذ محمد عدنان سالم وعن دار الفكر، فإنما أتكلّم من خبرة ومعرفة وتجربة.

تتلخَّص سيرة الأستاذ محمد عدنان سالم بجملة واحدة هي: «رسالة العلم والثَّقافة نحو سعادة البشرية»، ولهذه الرِّسالة عاش أيّامه، وحولها دارت حياته وأعماله ومشاريعه.

في دمشق الفيحاء وُلِدَ محمد عدنان سالم سنة ألف وتسع مئة واثنتين وثلاثين، وبها نشأ، وبها تزوَّد بثقافة واسعة، وبعد الثَّانوية العامَّة تاقت نفسه إلى كليَّة الحقوق، وفضَّلها على كليَّة الآداب.

ومع تفتُّح وعيه، تشكَّلت لديه في مرحلة الشَّباب تساؤلات قلَّما كانت تخلو منها نفس أقرانه، إلا أنَّها كانت في نفسه أعمق، ولعلها هي التي شكَّلت في عقله فكراً خاصّاً، بقي في ذهنه ينهل منه في كلِّ حياته:

- لماذا تعاني مصطلحات الفقه غربة في العصر الحديث؟
- لماذا يتشدَّدون في المذاهب الفقهية؟
- ماذا تعني كرامات الأولياء؟
- لماذا يهتم الناس بالأحلام والمنامات؟
- لماذا لا ننفتح على الآخر، ونفتح معه باب الحوار؟

تأثر الشاب محمد عدنان سالم بالحياة الجامعية الثقافية الحاشدة التي كانت تحياها الجامعة السورية - جامعة دمشق - في الخمسينيات، وما صاحبها من فورة الطلاب السياسية والفكرية



والاجتماعية بكل مظاهرها العنيفة، هذه الحياة ما كانت لتترك طالباً دون أن تمسك به في أحد تياراتها المتصارعة، فكيف بشاب متوثب الفكر، مرهف الأحاسيس مثل محمد عدنان سالم؟

وتركزت في ذهن الشاب الجامعي بكل حماسه واندفاعه أفكار متوثبة، على رأسها الإيمان بضرورة التغيير إلى الأحسن والأمثل، من خلال الحوار والحجة.

ومع المحاماة، بدأ الرجل محمد عدنان سالم حياته العملية، إلا أنه لم يصبر على أجوائها وما آلت إليه أحوالها في المحاكم، فلم تعد تعتمد على العلم، بل على التأجيل والتسويف، وما يسمى عند كثير من الناس شطارة، ولذا، فلم يمضِ أكثر من ستة أشهر إلا وكانت المحاماة محطة من محطات رحلة الرجل، وراح يتساءل عن عمل يجد فيه نفسه، وسرعان ما وجد ضالته في الكتاب الذي أحبه وشغف به.

لماذا لا أخدم الكتاب والثقافة؟

فكرة لمعت في ذهنه ثمَّ نفِّذت مع مطلع عام ألف وتسع مئة وسبعة وخمسين، وجدت صداها عند أخيه الأستاذ محمد الزعبي، وأخيه أحمد الزعبي، فبدأت دار الفكر بمطبعة يدوية، تطورت إلى صالة عرض، فدار للنشر ضربت بجذورها في أرض العلم، وبفروعها وأغصانها في آفاق المعرفة المتجددة.

لم يكن الأستاذ محمد عدنان سالم ليسعى كي يكون بائع كتب لا يهمه المضمون، ولا يعنى بالفكر، وإنما كان يخطط لرسالة يقوم

بأعبائها من مسؤولية تامة، هي مسؤولية الكلمة التي تبني الإنسان، وتنشئ الحضارة، وتواجه العدو، وتدافع عن البلاد والعباد، وخاصة أنه تأثر بفكر مالك بن نبي، وأعجب بطروحاته في مشكلات الحضارة، التي محورها الإنسان.

ووضعت دار الفكر منذ أيامها الأولى خطوطاً عريضة لأهدافها، انحصرت في نقاط هامة، على رأسها تقديم المهم النافع من الكتب، والحوار، والتجديد، والتواصل مع القارئ، واحترام الحقوق الفكرية، والطفولة الميدان الأهم.

وفي مجال التطبيق، اعتمدت الدار على معايير أساسية لم تخرج عنها، هي معايير الإبداع والعلم والحاجة، ومعايير التدقيق اللغوي لكل كتاب، ومعايير التخطيط للمستقبل، وهندسة الأبحاث والأفكار، وغلفت كل ذلك بمضمون الحديث الشريف: «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه».

وما لبثت المطبعة أن تطورت، فاستقدم الأستاذ عدنان مطبعة آلية، وتطورت دار الفكر في مجال الطباعة مع الأجهزة الحديثة، ثم خطت خطوة نوعية في مجال الطباعة، فأدخلت إلى دمشق، بل إلى سورية أول مرة في تاريخ طباعتها أجهزة للصف التصويري الضوئي في السبعينيات، وسارعت بعدئذ قبل كل دور النشر فاعتمدت الطباعة الحاسوبية، وعلى إثر ذلك، توسعت اتصالات الدار وصلاتها، فقامت بأعمال نشر مشتركة مع مؤسسات عديدة، كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي، ودار صادر في بيروت، ومعهد غوته الألماني.

وقد بلغت منشوراتها حتى اليوم أكثر من ألفي عنوان، غطت جميع أنواع المعرفة، واهتمت بالأحداث الجارية المتعلقة بهموم الأمة، هذا غير السلاسل والموسوعات والنشر الإلكتروني.

ولم يكن الأستاذ عدنان تلقاء هذا الخضم من الكتب، وقد أصبحت الدار مَعلماً مشهوراً في دمشق، يستقطب المثقفين ورجال العلم، وهواة القراءة، ليفكر بحمل القلم والكتابة، مع مقدرته الفكرية، لكن الأحداث الأخيرة التي اضطربت لها الأمة، دفعته إلى الكتابة، فبدأ بكتابه الأول (القراءة أولاً)، وتوالت كتبه بعدئذ، فكتب: هموم ناشر عربي، وأضواء على كتاب الجهاد في الإسلام، والكتاب العربي وتحديات الثقافة، والكتاب في الألفية الثالثة: لا ورق ولا حدود، وأمريكة والإرهاب.

واشترك في تأليف كتب وأشرف عليها، منها: المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، وتسريع القراءة وتنمية الاستيعاب، ومعجم تفسير كلمات القرآن، والاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق، والتفسير الوجيز لمعاني القرآن العزيز، ومعجم كلمات القرآن العظيم، والموسوعة القرآنية الميسرة.

ولديه كتب في مسوداتها تحتاج إلى قليل عناية، تنتظر الوقت الذي يضيق على الأستاذ مع امتداد الأيام.

والكتابة التي يكتبها الأستاذ عدنان في مؤلفاته، مع متانة العبارة، ورشاقة الأسلوب، تنطلق من المبادئ التي آمن بها؛ قوة الكلمة، كتاب صغير يولِّد من النور ما لا يولِّده أي مصدر للطاقة، والعاقبة للحق مهما طال صراعه مع الباطل.

لكل ما تقدم، فإن دار الفكر بمديرها العام محمد عدنان سالم، لم تكن يوماً مجرد دار نشر، ولم يرد أصحابها أن تكون كذلك، وإنما كانت مؤسسة ثقافية ذات أهداف ذكرناها. وقد ترجمت هذه الأهداف إلى عمل واقع، صدق المبادئ التي قامت عليها الدار، ونمت مع الأيام وتطورت، لم يثنها عنها أبداً ما مر عليها من أزمات مادية ومعنوية، وما أتى عليها من مغريات في سوق الكتاب، استفادت منها جماعة، فقدمت الغثاء، وارتفعت به في دنيا المال لظروف خاصة.

الحديث عن دار الفكر اليوم يطول بعد أن تجاوزت الخمسين عاماً من عمرها، وصار لها على الإنترنت عدة مواقع، ولها تواصل مع قرائها؛ عبر بنك القارئ النهم، ونادي القراء الذين تجاوزوا عشرة آلاف قارئ على امتداد الوطن العربي والعالم، وجائزة دار الفكر السنوية للرواية، وتكريم المؤلفين في حياتهم كل سنة، والأسابيع الثقافية والندوات الفكرية المتصلة..

وأخيراً

شغل الأستاذ محمد عدنان سالم مهمات جرَّت عليه أعباء إضافية فوق أعباء الدار، فهو رئيس اتحاد الناشرين السوريين منذ عام ألف وتسع مئة وستة وتسعين، وهو نائب رئيس اتحاد الناشرين العرب، ورئيس اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية.

فمن صفتي الأولى مؤلفاً؛ كتبي كلها، وقد جاوزت المئة، نشرت في دار الفكر حصراً.



ومن صفتي الثانية أخاً وصديقاً، أبارك لدار الفكر ومديرها العام الأستاذ محمد عدنان سالم هذا التقدير والاحترام والتكريم، فهو لذلك أهل.

ومن صفتي الثالثة مديراً للنشر في دار الفكر، أشكر كل من قدر دار الفكر وكنَّ لها احتراماً، على تقديره واحترامه.

بارك الله بناشرينا وقرَّائنا وكتب لهم ولنا السَّلامة في الرأي.

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً.

عدنان سالم وثلاثون عاماً من التعامل مع دار الفكر

أ. عمر مسقاوي

ارتبط اسم عدنان سالم بمؤسسة دار الفكر في دمشق؛ حين كانت هذه الدار أول من وزع في سورية إصدارات دار العروبة لكتب مالك بن نبي في القاهرة منذ عام ١٩٥٧.

ففي **٢٠** حزيران/ يونيو **١٩٥٩** رافقت مالك بن نبي في أول زيارة له إلى دمشق، وكان قد صدر له باللغة العربية الكتب التالية: شروط النهضة **١٩٥٧**، الظاهرة القرآنية مع مقدمة الأستاذ شاكر **١٩٥٨**، الفكرة الإفريقية الآسيوية **١٩٥٨**، مشكلة الثقافة **١٩٥٩**.

وهكذا، ومنذ عام **١٩٥٧** كان على غير موعد ولادتان؛ ولادة دار الفكر في دمشق وولادة فكر مالك بن نبي في المشرق العربي.

كان بن نبي قد أسس صلات وثيقة في القاهرة مع مجموعة فكرية إسلامية في إطار الباحث اللغوي الإسلامي الكبير محمود شاكر، وكان صلة الوصل صاحب دار العروبة الأستاذ إسماعيل عبيد، رحمه الله، حين كان مهتماً بطبع كتاب (الظاهرة القرآنية) مترجماً

بإشراف الأستاذ مالك. وهكذا كانت مكتبة دار الفكر في دمشق، في موقعها على كتف شارع بالقرب من محطة الحجاز؛ حفية بإنتاج دار العروبة بالقاهرة، وفي ظني أن إسماعيل عبيد صاحب دار العروبة في القاهرة كانت تربطه بالأستاذ عدنان سالم زمالة مهنة وخلفية فكرية إسلامية، فكانت بينهما زمالة فكر ومهنة.

حينما وصل مالك بن نبي إلى دمشق وجد نفسه في محيط يألف فكره وحضوره لدى الرواد الأوائل في جامعة دمشق، وكان ذلك أول اتصاله برجال الجامعة حين اقترحت عليه الاتصال بالدكتور صبحي الصالح رحمه الله الذي كان يدرِّس في كلية الآداب. وإذ وصلنا إلى كلية الآداب ومكتب الدكتور صبحي الصالح وطلبنا من الآذن إبلاغ الدكتور رغبتنا في لقائه، سألنا عن الأسماء، قلت له: مالك بن نبي وعمر مسقاوي، كان صوتي مسموعاً في جمع من الطلاب يقف في ممشى كلية الآداب، وما إن سمعوا اسم مالك بن نبي حتى تلفت جمع منهم وسألني أحدهم: هل هذا هو مالك بن نبي؟

لقد سرني سماع السؤال وأجبت بشيء من التأكيد، وأحسب أن مالكاً سمع الحوار فتبسم إذ سبقت أفكاره إلى شباب الجامعة.

وهكذا كانت حفاوة الدكتور صبحي الصالح كبيرة، حين كان مجتمعاً في مكتبه مع كل من الدكتور شكري فيصل وصالح الأشتر، ثم تعرف على الدكتور عادل العوا أستاذ الفلسفة.

كان هؤلاء جميعاً مع سواهم من رجال العلم والثقافة؛ يجدون في دار الفكر ساحة يفد إليها المهتمون بالثقافة والتراث، وما يؤسس ويجدد فكراً، ويسدد ويقارب تبليغاً لرسالة الإسلام.

في هذا المحيط كان فكر بن نبي يدخل حلبة دمشق من أبوابها، ويبدو لي أن باب دار الفكر كان سابقاً عام ١٩٥٩، وهكذا توالت المناسبات بالترحيب بمالك بن نبي في مساحة شهر تموز/ يوليو من عام ١٩٥٩، وكان الدكتور مصطفى السباعي أقام على شرفه مائدة في منتزه مدخل دمشق حضرها الدكتور معروف الدواليبي، ووزير العدل نهاد القاسم، والدكتور شكري فيصل، ثم كان أن تعرف الأستاذ مالك على رئيس محكمة التمييز في دمشق القاضي صلاح الدين الشاش، الذي ظل على صلة وثيقة بالأستاذ مالك ورعايته هو وعائلته إلى حين وفاته.

وهكذا كان أول لقائي بدار الفكر يرتبط بذلك الإطار في صحبة الأستاذ مالك في زيارته الأولى إلى دمشق عام ١٩٥٩، وقد دعته الجامعة لإلقاء محاضرة في صيف تموز من ذلك العام؛ حين رأت في الاستماع إلى فكره، ما يحملها على الاستفادة من زيارته رغم عطلة الصيف، وكم كان بن نبي متأثراً بحفاوة الجامعة ومديرها الدكتور حكمت هاشم؛ ثم وزير التربية أمجد طرابلسي، مما لم يكن متاحاً له في القاهرة، من اللقاء مع أساتذة جامعاتها طوال إقامته في القاهرة سوى ما كان في مجالس الأستاذ محمود شاكر. وقد دوَّن في مذكراته شكراً خاصاً لحضور الدكتور مصطفى السباعي المحاضرة رغم مرضه وصعوبة انتقاله، وكان متأثراً كثيراً بحجم الحضور ونوعيته؛ أمثال مدير جامعة دمشق وعميد كلية الآداب، والدكتور معروف الدواليبي.

في عام ١٩٦٣ عاد الأستاذ مالك إلى الجزائر وكانت زياراته إلى

سورية قد تكررت عام ١٩٦٠ ثم ١٩٦١ ثم ١٩٦٢، وألقى محاضرات نشرت في عداد تراثه.

ومع ذلك فقد ظلت الصلة وثيقة بدار الفكر والأستاذ عدنان سالم، ثم كان أن امتدت دار الفكر إلى السودان فافتتحت لها فرعاً في مدينة الخرطوم، وإذ كان مفكرنا يزور الخرطوم عام ١٩٦٩ فقد اتفق مع دار الفكر لتقوم برعاية توزيع كتبه في طبعتها القاهرية، وقد وضع في هذه الزيارة أسس ترتيب كل ما يتعلق بذلك، وتوزيع كتبه الصادرة باللغة العربية، والتي صدر معظمها بترجمته المباشرة إلا ما كان في بداية إصداراته الأولى بترجمة الأستاذ عبد الصبور شاهين في القاهرة وبإشرافه المباشر. وحينما عاد مالك بن نبي إلى القاهرة حرر بقلمه وتوقيعه تفويضاً إلى دار الفكر والأستاذ عدنان سالم وشقيقه محمود لإعادة طبع كتبه في بيروت(١)، ثم زارنا في مدينة طرابلس عام ١٩٧١ وأصدر وصيته الشهيرة وسجلها في المحكمة الشرعية في طرابلس، وأوكل إليّ رعاية تراثه باللغة العربية كاملاً.

بعد وفاة مالك بن نبي رحمه الله كانت رعاية كتب مفكرنا تلقي عليَّ مسؤوليتي متابعة الحفاظ على هذا التراث وانتشاره.

كانت دمشق بما خلف بن نبي من تلاميذ، وأبرزهم الكاتب والمفكر الإسلامي جودت سعيد، هي البيئة التي وجدت منار انتشارها في دار الفكر؛ بإشراف وحماس وتأييد من الأستاذ عدنان سالم شخصياً. وقد سهل ذلك مهمتي في الحفاظ على تراث بن نبي في وجهين، نصت عليهما وصية مالك بن نبي.

(١) وثائق بخط مالك.

١- مسؤوليتي في نشر أفكاره.

٢- وحقوق عائلته بعد وفاته من عائدات كتبه؛ إذ كانت تشكل مصدراً أساسياً لهم.

وهكذا وجدت في دار الفكر والأستاذ عدنان سالم كل ما يؤسس لمرجعية تحقق الأمرين معاً، وهكذا بدأنا العمل معاً؛ اعتباراً من أول كتاب أعدت طبعه، هو كتاب ميلاد مجتمع.

وها نحن أولاء بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من العمل المشترك؛ نتطلع إلى المدى الذي انتشرت به أفكار مالك بن نبي باللغة العربية من منارة دار الفكر.

لقد استطاع الأستاذ عدنان سالم الناشر للكتاب؛ أن يمنح حركة النشر معناها الحضاري والثقافي. هذا المعنى الذي يتجلى في ذلك التعريف بدور النشر المتداول عالمياً، في ثقافة المطبعة وتداول الأفكار في العالم، وهو أن دار النشر هي التي تستكتب الكُتّاب والمؤلفين ما تريد تناوله من قضايا ومشكلات باعتبارها من حراس الفكر في عالم الأفكار.

وإذ كنت من متابعي جهود الأستاذ عدنان سالم فإنني أرى فيه أكثر من ناشر في المفهوم التجاري، فقد أنشأ مع إصداراته صلة بالقارئ، تحثه على القراءة وتعرفه بقيمتها في مسار رسالة ثابتة؛ إنها رسالة تبليغ الثقافة الإسلامية لقارئ أوعى من مؤلف، ومفكر أوسع من مقتبس وناقل.



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	
وزارة ~~الإرشاد القومي~~ التربية الوطنية	MINISTERE DE L'ORIENTATION NATIONALE
مدير التعليم العالي	Le Directeur de l'Enseignement Supérieur

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الجزائر، في ٢٣ جوان ١٩٦٥

من السيد مالك بن نبي
مدير التعليم العالي
جامعة الجزائر

الى السيد محمد عدنان سالم
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
شارع سعد الله الجابرى
دمشق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اما بعد،

اشكركم عن رقيق عواطفكم التي تعبرون عنها الطف تعبير في خطابكم المؤرخ في ١٥ جوان الجارى، ولكن ايها الاخ انه يبد لي من الغريب ان تنتظروا عنواني كي ترسلون لي نسخة من كتاب جمال الدين الافغاني بينما خطابكم الاول والثاني قد وصلا الى عنواني المعروف لديكم، هذا وانني من ناحية اخرى اسلم لكم حق الطبع لكل ما يبدوا لكم مفيدا من كتبي مثل " " افاق جزائرية " " على الشروط التي اتعامل معها مع دار العروبة.

وارجوكم تبليغ السلام الى كافة الاخوان.

والسلام

مدير التعليم العالي،



مالك بن نبي

الرجاء الرد فورا على خطابي

أجيب في ٢٩/٦/٦٥

رسالة مالك بن نبي ٢٣ حزيران ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

٣ ماي ١٩٧٠

الأخ الأستاذ الزعبي
دار الفكر
دمشق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

أن الفرصة لم تسمح لي بلقاء الأخ محمد عدنان ببيروت بعد عودتي من الأردن، فكان السفر إلى الجزائر على الفور، بحيث لم أستطع أن أنجز مع الأخ عدنان بعض ما اتفقنا عليه في المقابلات الأولى ولهذا فإنني أغتنم فرصة سفر الأستاذ علاوة بن الموفق، الأستاذ بجامعة قسنطينة، الذي سيقيم لغرض علمي بضعة أيام بدمشق، لأطلب منك إرسالا خاصا بالأستاذ عدنان ببيروت حتى تأخذ منه التفصيلات الآتية، وتسلمها للأخ الدكتور بن الموفق ليسلمها لي بدوره بالبلد، [redacted] ، وأما التفصيلات فهاهي:

١) الكشف الذي وعدني به الأخ عدنان، بما فيه المبلغ الذي تسلمته منه وما اشترى لي أثناء إقامتي ببيروت

٢) التأكيد على الأخ عدنان بتقديم الجزء الثاني من "مذكرات شاهد القرن" إلى الطبع على الفور كما اتفقت معه بهذا الصدد ببيروت، ولأن جهز الكتاب قبل عودة الدكتور الموفق فليسلم له بعض النسخ، لأن البريد لا يوصلها

٣) يأتيك الأخ الموفق بنسخة من القرآن الكريم مصدفة لتشتري لي، على حجمها، ثلاثة صناديق مصدفة، لأنني اشتريت ثلاثة نسخ من عامين، واشتريت بعد ذلك ثلاثة صناديق من دمشق يوم زيارتي الأخيرة لدار الفكر، فلم تكن على حجمها... ولتبقى تكاليف الشراء على حسابي

هذا وأرجو أن يكون الشيخ الزعبي بخير، وأن تبلغوه سلامي، وإلى الأستاذ سعيد الأفغاني، وإلى الأخ سعيد جودت (وأنا أعرفه إلا ذكرا) وإن عاد الأستاذ المبارك والأستاذ عدنان سالم، كل من مكان نشاطه، فالرجاء إبلاغهما سلامي

ولا أنسى أن القرآن النسخة المصدفة التي تأتيك قد فقدت إحدى قطعاتها الصدفية، فالرجاء تعويضها من أحد أصحاب المهنة

ثم أوصيكم بالشروع عاجلا في الإنجاز، خصوصا مع الأخ محمد عدنان، لأن الأخ الموفق لا تطول إقامته بدمشق، حتى ولو قال لك أنه سيبقى كذا وكذا فاعتبره مسافرا غدا

والسلام

مالك بن نبي

رسالة مالك بن نبي ٣ كانون الثاني ١٩٧٠

الأستاذ محمد عدنان سالم طموح غير محدود

أ.د. مازن المبارك

تعود صلتي به إلى نصف قرن مضى بين اتصال وانقطاع؛ أما الاتصال فللعمل الذي يصل بين صديقين أحدهما مؤلف والآخر صاحب مكتبة ودار نشر وتوزيع، وأما الانقطاع فلا يكون إلّا في أيام غربتي أو أيام أسفاره وكلاهما كثير وطويل.

كان شاباً يمتلئ همة ونشاطاً، ولكنه كان كما هو الآن في هدوئه واتّزانه وحساب خطواته وكلماته.

لقد رأيت في أخي الأستاذ عدنان واحداً ممن سبق عقلُه عملَه، وغلب طموحه إمكانه، واتّسع فكره، واستنار عقله، وتشعّبت ثقافته، فإذا هو كلما تقدّم به الزمن، وحمل كتفاه ما حملا من ثقل السنين؛ أكثرُ عملاً، وأثقل حِملاً، وأخطر مسؤولية!

فصاحب المكتبة أصبح صاحب مشروع (اقرأ)..

والناشر أصبح صاحب رسالة ترصد السرقات الفكرية..

وصاحب الفكر أصبح صاحب دعوة واعية، وصاحب مؤلَّفات تمتع وتثقّف.

وصاحب الدعوة أصبح صاحب موسم ثقافي؛ يشجع على القراءة ويكافئ عليها، ويشجع الإبداع الأدبي ويخصّه بالجوائز، ويقيم المحاضرات والندوات والحوارات ويكرم العلماء.

لقد استطاع بفكره وطموحه وتحرُّره من حبّ المال - وقليل من تحرَّر من حبّ المال وعشق الثروة! - أن يرقى بمهنة الكتاب والنشر، ليصبح ذا نظرة إصلاحية جادّة، فلا ينشر طمعاً في الربح، ولكن ينشر ما يراه مع مستشاريه جديراً بالنشر والتوزيع.

ويحدد من الموضوعات لموسم (دار الفكر) الثقافي ما هو جدير بالبحث والمناقشة، وما هو ذو أهمية في الساحة الفكرية المعاصرة.

لقد حمل.. دار الفكر.. خمسين سنة، ومنحها من الجهد وحسن السيرة؛ حتى أصبح اسمها علماً بين دور النشر في الوطن العربي كله، وشارك في حمل مسؤولية العمل النقابي للناشرين؛ فكان رئيس اتحاد الناشرين في سورية، ونائب رئيس اتحاد الناشرين العرب.

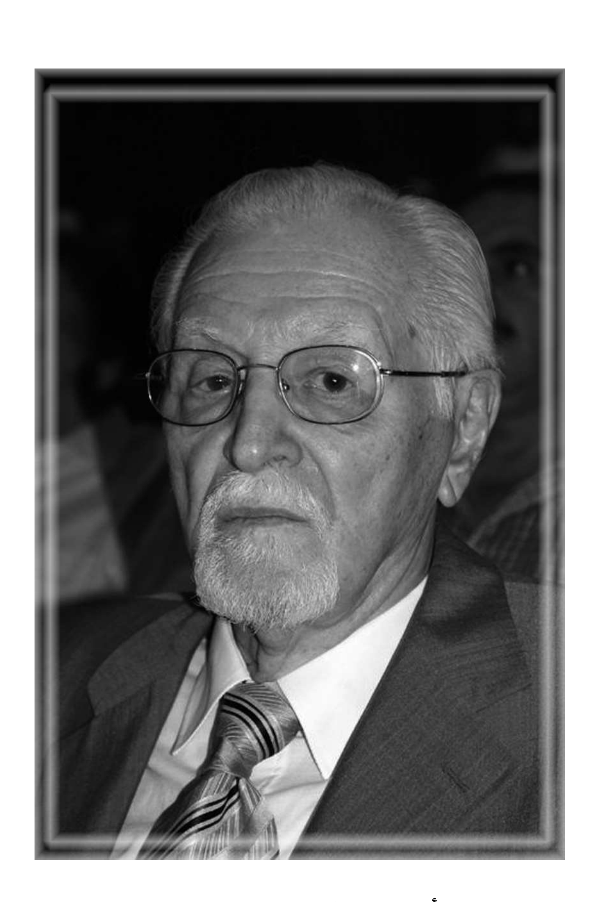
وكان بعد ذلك كله ابن (الفكر) الذي أسس (داره) فشارك في الندوات الفكرية، وحمل القلم كاتباً ومؤلِّفاً، فكان كالشجرة الطيبة؛ كلما تقدم بها العمر - بارك الله في حياته - كانت أكثر عطاءً وأحلى زهراً وأنضج ثمراً.

إنه مثال للرجل الحكيم، والمثقَّف الناصح، والناشر الأمين، وصاحب الفكر المبدع المتجدِّد.



إنه يمثل الإنسان العربي المسلم الحرّ بصفاته واستقامته واتّساع أفقه وبُعد نظره. وهو إلى كل ذلك يتصف بالرقّة والعاطفة الإنسانية الرفيعة التي لا يعرفها فيه إلا من عرفه على طبيعته وحقيقته.

له مني التهنئة بحب أصدقائه له، ولهم مني التهنئة بصداقته..



الأستاذ الدكتور مازن المبارك

الأستاذ محمد عدنان سالم... اختلاف وليس خلافاً

د. محمد سعيد رمضان البوطي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

وبعد: فإن علاقتي بالأستاذ عدنان سالم تعود، فيما أذكر، إلى عام **١٩٦٧** من القرن الماضي. وكنت قبل ذلك أتردد على مكتبته المتواضعة التي كانت جزءاً منفصلاً عن مطبعة صغيرة، يطبع فيها كتباً لأمثال أبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي، ومالك بن نبي.

عندما تطورَتْ معرفتي له إلى علاقة عمل، كان ذلك، كما قلت، عام **١٩٦٧** وكانت المناسبة أنني كنت أدوِّن محاضرات ألقيها في كلية الشريعة من جامعة دمشق، تحت عنوان (فقه السيرة)، فأذكر أنني عهِدتُ بها إليه ليطبعها طبق حاجة الطلاب، وكانت محاضراتٍ موجزةً شاء الله تعالى أن تكون فيما بعد نواة كتابي (فقه السيرة) الذي يتداوله الناس اليوم.

وأذكر أنني عهدتُ إليه في العام ذاته بمجموعة محاضرات ألقيتها على طلاب كلية الشريعة في العقيدة الإسلامية، كانت هي الأخرى نواة كتابي المعروف (كبرى اليقينيات الكونية).

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أنها كانت إذن علاقة مصلحة تجارية، أو استفادة مادية سارية بيني وبينه. غير أن الواقع غير ذلك، فإن الذي شدني إلى الأستاذ عدنان ورسَّخ معرفتي له، توجهه الإسلامي، والتزامه الديني، ووعيُه الدَّعَوي المتميز. ولا أشك في أنها مزية اكتسبها هو وإخوته الثلاثة من والدهم؛ الذي عرفته صريحاً، بل شديداً أيضاً في ذوده عن الحق، واعتزازه بالدين، وتضحيته في سبيل المعتقد.

ما يميزه عن الناشرين الآخرين

توسع عمل الأستاذ عدنان وشركائه آل الزعبي، في أعمال الطباعة والنشر وتسويق الأفكار والثقافات والعلوم، من خلال طباعة المؤلفات ونشرها. غير أن هذا التوسع الناجح لم يشغله عن همومه الإسلامية والدعوية التي تؤرق ذهنه وتزجه في أنشطة فكرية واجتماعية، ومناقشات في أمر الدعوة، والسبيل الأمثل إلى خدمة الإسلام والتعريف به في الأوساط الغريبة أو التائهة عنه.

بل لقد بدا لي في كثير من المناسبات؛ أنه يسخِّر مؤسسته التجارية (دار الفكر) للرسالة العلمية والثقافية، ومن ثم: الدينية، التي يتبناها ويذود عنها. فهو لا يستقبل الموادّ الفكرية التي تَرِدُ بكثرة إليه من المؤلفين، رغبة في نشرها لهم، من خلال رؤية تجارية لها،

وتوقع لمدى رواجها وإقبال الناس إليها؛ وإنما يستقبلها من خلال التعرف على مضامينها، والتأكد من أنها منسجمة مع المبادئ والقيم التي يتبناها ويدعو إليها.

ولقد علمتُ أن أحد أصحاب الفكر اليساري وضع بين يديه إنتاجاً فكرياً له، آملاً أن يطبعه وينشره، فعكف على قراءته بتدبر، ولما لم يجد أفكاره متفقة مع الحق الذي يتبناه ويعيش له، اعتذر لصاحبه عن عدم الاستجابة لرغبته. ودخل معه صاحب الاتجاه اليساري في عراك جدلي، وقال له: فأين ما تتحلى به من الدعوة إلى حرية النظر والفكر؟ أجابه الأستاذ عدنان: ولأني أتبنى حرية الرأي وأدعو إليها، أمارس حريتي في قبول أو عدم قبول أفكارك هذه.

ولقد أخرج الأستاذ عدنان سلسلة كتب يعالج فيها مشكلات حضارية واجتماعية ذات جذور دينية، لا يتأتى لرجل الأعمال ذي النشاط التجاري والاستثماري، أن يشغل نفسه بها، فضلاً عن أن يعالجها وينتهي إلى إخراج مؤلف فيها.

إذن، بوسعي أن أقول: إن الأستاذ عدنان سالم يسخِّر مؤسسته التجارية للمبادئ والمعتقدات والقيم التي يؤمن بها ويسير عليها، وليس يسخر الأفكار والقيم والثقافات، كما هو شأن كثيرين، لربحه التجاري. ومن حسن الحظ، بل من مظاهر توفيق الله أن شركاءه آل الزعبي (وهم الأستاذ محمد الزعبي وشقيقه وأولاده) متفقون، ومنسجمون معه على هذا النهج.

أفكار نتفق عليها وأخرى أخالفه فيها

للأستاذ عدنان، كأي باحث مثقف ذي صلة بالأحداث والناس، اجتهادات ورؤى أفرزتها صلاته الاجتماعية وقراآته الكثيرة، لعل من الخير أن أنبّه إليها، ولا ريب أنها تبرز شخصيته الثقافية والفكرية، وتؤكد تحررها عن الاتباع والتقليد. وهي من حيث الجملة مَحْمَدةٌ في شخصه ومزية في علاقاته، وإن كنت أخالفه عند التفصيل في بعض اجتهاداته ورؤاه.

إنه من المعجبين بمدرسة مالك بن نبي، بل إنه يصر على أنه من تلامذة هذه المدرسة.. ومالك بن نبي في نظري يُعدُّ مهندسَ البُنْية الثقافية والاجتماعية من خلال فكره الإسلامي. وربما كان منفرداً في هذه المزية، لا سيما في هذا العصر، عن سائر الباحثين والمفكرين. ولو كانت ثقافته الإسلامية أشدَّ عمقاً وأكثر اتساعاً، لبذَّ أقرانه في شتى جوانب المعرفة، وفي وضع الحلول الدقيقة للمشكلات الاجتماعية العويصة. غير أن الثغرة السلبية في كينونته الفكرية أن ثقافته الغربية ظلت متغلبة على ثقافته الإسلامية.

والأستاذ عدنان يُصرّ في كل مناسبة على تقديس الحرية الفكرية، ويحذر من العمل على مصادرتها. ويرى أن هذه الحرية، مهما اتسع مداها وترسخت في المجتمع مقوماتها، فلن تكون خطراً على الحق الذي يجب اكتشافه ثم التشبث به. بل إن حرية الأفكار في طريق المساجلة والنقاش، هي التي تعين على اكتشاف الحق، وهي التي تصنع القرار والحُكْم الآمِرَين باتباعه.

ولعل إصراره على فتح المزيد من آفاق هذه الحرية، هو الذي جعله يشق، في أعمال البحث والنشر، طريقاً جديداً لا عهد للناشرين والباحثين وذوي النشاطات الثقافية به. وهو إخراج سلسلة من المساجلات العلمية والثقافية بين ذوي الاجتهادات، بل ربما المذاهب المتعارضة، وربما المتقاطعة.. فقد نجح في جمع كلِّ مُتعارِضَيْن في بعض جوانب الثقافة والفكر، وعَقْد ما بينهما برباط المناقشة والحوار، لا في جلسات علمية كتلك التي كان يعقدها الخلفاء بين أصحاب المذاهب المتقاطعة، بل على الورق ومن خلال كتب تحوي، بل تخلد سجِلَّ تلك المحاورات.

إنني أؤيد هذا الذي يذهب إليه أخي الأستاذ عدنان، من اليقين بأن طريق الوصول إلى الحق - أياً كان - إنما هو الحوار المنبثق من حرية الفكر والنظر، وهيهات العثور على أي طريق آخر يضمن إمكان الوصول إليه، بعيداً عن النقاش والحوار المنبثقين عن حرية النظر والفكر.

ولا تتأتى المصادرة على هذه الحقيقة بدعوى أن مشروعية الجهاد تتعارض معها؛ كيف تتعارض معها ومشرّع الجهاد هو الآمر بالمجادلة والحوار، ألم يقل ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]..

إن الجهاد القتالي إنما شرع حمايةً لحرية الفكر والنظر، وضرباً على يد من يريد أن يصدّ عن الحوار ويمنع التلاقي على مائدة المجادلة والنقاش، ولم يُشْرع لسوق الناس من رقابهم أو من نواصيهم إلى الحق الذي لا علم لهم به.

ويرى الأستاذ عدنان سالم أن منهج الدعوة إلى الإسلام والتبصير بسموه الإنساني وآثاره الحضارية، ينبغي ألا يعتمد على ما يُروى للرسول ﷺ من معجزات وخوارق، بل يجب أن يُسْتَبْدلَ بذلك إبرازُ ما فيه من القيم الإنسانية والأسس العلمية، والمنتجات الحضارية.

فإن كان دافعه إلى اختيار هذا المنهج في التعريف بالإسلام والدعوة إليه، مخاطبة الآخرين بما يعقلون، وصرفَهُم عما لا يقيمون له وزناً، وربما لا يصدقونه، فوجهته في ذلك سليمة، وهي متفقة مع حديث رسول الله ﷺ: «لا تحدثوا الناس بما لا يعقلون، أتريدون أن يُكفَر بالله ورسوله».

غير أن اتباع هذا المنهج في الدعوة إلى الإسلام شيء، والإيمان بكل ما دلّ عليه الخبر الصادق شيء آخر. أي لا يجوز تحكيم هذا المنهج باليقينيات التي يجب أن تستقر في عقولنا، من معجزات وغيرها، ما دامت وصلت إلينا بالمنهج العلمي السليم، أي بالخبر الصادق الذي ارتقى إلى درجة التواتر. إننا لا نحدث الملحد المنكر لوجود الله عن نبوة محمد ﷺ، لأن المنهج العلمي للحوار يعارض ذلك، ولكن ذلك ما ينبغي أن يكون سبباً لإنكارنا نحن لنبوته والعياذ بالله.

أما إن كان الدافع إلى طي الحديث عن الخوارق والمعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، هو تسرب الريب في وقوعها فعلاً، فإن القرار العلمي في ذلك عائد إلى الطريقة التي وصلت إلينا منها هذه الخوارق أو المعجزات، فإن كانت وصلت إلينا عن طريق التواتر، فإن إنكارها مجانفة فاقعة للعلم بقطع

النظر عن القيمة الدينية الموجودة في طيها. وأما إن كانت وصلت إلينا بطريق الآحاد، فثمة سَعَةٌ في تحكيم المزاج والقناعة الذاتية بشأنها، أي إن عدم اليقين بها لا يُلغي بنية الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

وللأستاذ عدنان نظرة إلى حدود ما يدخل في الوحي الإلهي، من مجموع ما أخبرنا به محمد ﷺ وما مارسه سلوكاً، فليس كل تصرفاته السلوكية والقولية منبثقة من مشكاة النبوة في حياته، بل قد داخلها الكثير مما هو صادر عن بشريته واجتهاداته الشخصية، ومن ثم فهو خاضع لتأثيرات البيئة التي كان فيها والأعراف التي كان المجتمع مقيداً بها.

وأقول: إن أصل هذا التصنيف محل إجماع من علماء الشريعة الإسلامية وأصولها، فالكل متفقون على أن التصرفات البشرية التي تشكل جامعاً مشتركاً بين هذه الخليقة الإنسانية، خارجة عن دائرة الوحي، كالنوم واليقظة، والإقبال إلى الطعام والشراب، وتلمس أسباب الراحة بعد التعب، ومن ثم فالمسلمون غير مكلفين بالاقتداء برسول الله فيها، وقد أنهاها العلماء إلى ثلاثة أو أربعة أنواع من التصرفات، لا موجب ولا مناسبة للخوض في بيانها في هذا المقام.

ولكن لا يجوز سحب هذا الاستثناء على كل ما قد لا يروق لنا أو يخالف عرفنا أو يتعارض مع تطور آليات الحضارة ومظاهر المدنية.

إن الطب النبوي مثلاً داخل، فيما اتفق عليه جمهور العلماء، في

آثار نبوته، ولذا نسبت أحاديثه عن الطب ونصائحه العلاجية والدوائية إلى نبوته، فأصبح عنوانها الطب النبوي. ولم أجد في العلماء الثقات من أدخل أحاديث الطب النبوي أو بعضاً منها في الاجتهادات الشخصية الخاضعة لوحي البيئة والأعراف والتجارب الشعبية في الجزيرة العربية.

وعلى سبيل المثال، يرى الأستاذ عدنان أن التسوك بعود الأراك (وهو سنة نبوية ثابتة) انقضى عهده، وطويت الحاجة إلى العمل به، بما آل إليه التطور العلمي، من استعمال الفرشاة ممزوجة بالمعاجين المحافظة على اللثة وعلى الأسنان.

والذي أراه أن الاستفادة من التطور العلمي ضرورة لا موجب لتجاهلها، بل الدين نفسه يدعو إلى استعمال كل ما هو مفيد وتجنب كل ما هو ضار، سواء كان مما اكتشفه الأقدمون أو تطور على أيدي المحدثين. فاستعمال الفرشاة ممزوجة بالمعاجين الطبية قبل النوم من كل مساء أمر تدعو إليه المصلحة التي يتبناها الدين فيما يتبناه من المقاصد الخمسة.

ولكن الإقبال على هذا الاكتشاف العلمي بالاستفادة منه شيء، والاستجابة لأمر رسول الله ﷺ القائل: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» شيء آخر، ولا موجب، بل لا معنى لنسخ واحد منهما بالآخر. بل لا أجد سبيلاً سائغة لأن أشُوصَ فمي بالفرشاة عند كل صلاة بدلاً من استعمال عود الأراك. بل إن الحسّ الحضاري في كياني يشمئز من أن أتخذ الفرشاة التي لا أعلم من أي

نبات أو حيوان أو طبخة كيميائية جمّعت شعراتها، بدلاً من عود الأراك الذي يملأ الأنف والفم برائحته الزكية العجيبة، فأشُوصَ فمي بهذه الفرشاة المجهولة المادة عند كل صلاة. بل لولا ضرورة الفرشاة لإيصال معاجين الأسنان إلى جذورها ومنابتها من الفم، لما حفِلْتُ بها ولما استعملتها قط.

الذي أعنيه هو أن الوصفات العلاجية التي صحت عن رسول الله ﷺ، لا تدخل في عموم قوله: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» إذ لو كانت داخلة في عموم قوله هذا، لسكت عنها، ولما دعا في المناسبات إلى استعمالها، مثل قوله ﷺ: «الحبة السوداء فيها دواء من كل داء، إلا السامّ» أي الموت.

بقي أن العلماء عندما صنفوا تصرفات رسول الله ﷺ، على النحو الذي سبق بيانه، عادوا فقالوا: إن تصرفاته الشخصية ﷺ وإن لم تكن داخلة في نطاق السنة التي هي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية؛ ولكن منطق الحب له عليه الصلاة والسلام يدعو إلى التأسي به حتى في اختياراته وتصرفاته البشرية. وكان هذا هو شأن جل أصحابه رضوان الله عليهم. وأعتقد أن منطق الحب هذا محل اتفاق وإجماع من كل من ذاق الحب وعرف سلطانه.

إذن، بقطع النظر عن جزئيات أخالف الأستاذ عدنان سالم فيها، في مجال اجتهاداته في أمور أوافقه في كثير منها، أعود فأؤكد بأن الأستاذ عدناناً يسخِّر مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر، لبث قناعاته الإسلامية واهتماماته الدينية، ونشرها على أوسع مدى ممكن.

وبعبارة أخرى؛ إنه يحاول جاهداً أن يجعل من هذه المؤسسة منتدى فكرياً علمياً ثقافياً، تتلاقى فيه الآراء والثقافات المختلفة المتنوعة، في مخْضٍ حواري موجَّه، ابتغاء الوصول إلى الحقيقة، ومن ثم ابتغاء التمسك بها والسير على هديها.

والله أسأل أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه، وأن يكون رائدُنا في النهوض بها هو عبوديتنا لله، التي هي معين كل توفيق والضياء المبصِّر بالحق أينما كان، ومهما خفي عن الأنظار.



إحدى المحاضرات في الأسبوع الثقافي لدار الفكر

محمد عدنان سالم
شيخ الناشرين السوريين
صور وخواطر وملحوظات

د. نزار أباظة

حينما انضممت إلى صف الموظفين في دار الفكر عام ١٩٩٧م ظننت أنني أدخلها معلماً أستاذاً، يعطيها من ذات نفسه، ويكون فيها موظفاً مسؤولاً، يقوم بمهمة مهنية ذات شأن؛ فإذا بي بعد أمد غير طويل؛ أجد نفسي أقعد فيها بمقاعد التلاميذ عند شيخ الناشرين، لا لأتعلم مهنة النشر، فلست أهلاً لها، وإنما لأشتغل في مهمة الفكر وأتعلم التفكير الصحيح.. وإذا بي أجد في جعبتي مع كل إشراقة شمس تطلعاً جديداً أحصله، وإذا بي أجد في دار الفكر ما لم أجده على مقاعد الدرس في الجامعة ولا في المدارس قبلها..

لا أقول هذا ملقاً، ولا أثبته زلفى، فأنا في غنية عن كل أولئك والحمد لله، لا يدفعني إلى ما أقول رهبة مرهبة، ولا رغبة مرغّبة، غير ما تدفع إليه الصداقة، ويحث عليه العلم، ويزدلف إليه واجب الاحترام الرفيع..

لا تُذكر دار الفكر إلا ويُذكر معها أصحابها الذين أسسوها معاً، وأولهم الأستاذ محمد عدنان سالم، مديرها العام، وإن كان الحديث عنه هنا، فلا أغمط حق شريكيه من التجلة ولا من الأهمية؛ الأستاذ محمد الزعبي وأخيه الأستاذ أحمد، وهما من هما من المكانة والفضل.

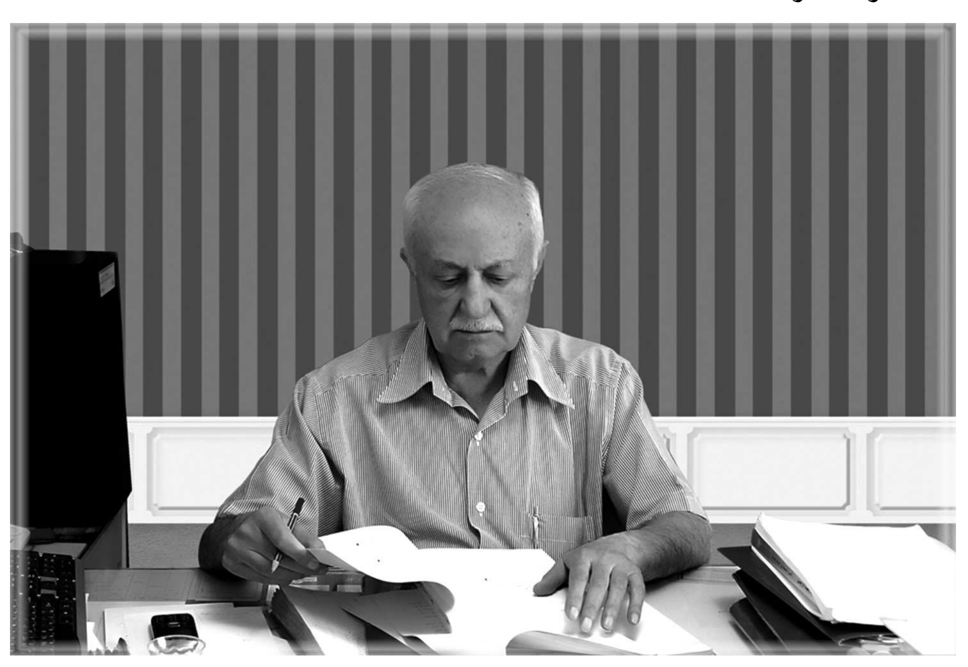
تطالعك حينما تتعرف على الأستاذ - وهذا لقبه إذا أطلق في الدار - هيبة تنسكب عليك، تمنعك من الاجتراء أو التطاول أو التباسط في الحديث؛ ذلك لأن الرجل قد تلبسه الجد كل الجد، في سيمائه، وفي حركاته، وفي كلامه، وفي نظراته، ومع هذا يوحي إليك بالأنس، وبالانفتاح أيضاً..

يستمع إليك إذا استمع باهتمام، يفهم منك وراء ما تريد، ثم يكون رده عليك حاسماً.. وربما يتريث في الرد لئلا يعطي كلاماً جزافاً؛ فالجزاف عنده غير معروف البتة، وقلما كان يمزح، أو يطلع عليك بفكاهة، وليس معنى ذلك أنه أخذ نفسه بالجد الثقيل المقيت، وإنما هو جد طري.

وكان يزعجه أكثر ما يزعجه إذا كان في مجلس عام أو حتى خاص، أن تُطرح فيه الكلفة، وتُطلق خلاله الفكاهات البذيئة، وخصوصاً إن صدرت من أهل العلم الذين يفترض فيهم الحشمة.

يأتي الأستاذ الدار قبل كل الموظفين في أكثر أيامه؛ إذا لم يمنعه سفر أو مرض أو عمل خارجي.. ويبارحها متأخراً بعد كل الموظفين في غالب عاداته؛ فإذا ما جئت الدار يوماً فلم تجده قبل الثامنة في الصباح؛ ارتسمت على وجهك علامة استفهام؟ أين هو يا ترى؟

حتى إذا جاء فدخل مكتبه الصغير المتواضع نسي الزمن تماماً.. غرق في العمل، ونسي نفسه كذلك، يتابع كل صغيرة وكبيرة، يخطط للثقافة من غرفة عملياته هذه، يدون في دفتره اليومي ما يجب أن يلاحق من أعمال مع فلان وفلان.. وكلما جدّ جديد دوّنه، ليستمر في متابعته لمدته التي يرى أنها تنجز فيها.. فإذا أنجز لم يكن ذلك بشيء. أما إذا كانت الأخرى بادر إلى الانزعاج الذي يتلبسه، وشعر بالعجز والفوضى والكلالة والإحباط.. وتساءل عن مكمن الخلل.. وأحبط معه جليسه كذلك، وقارب إلى نفسه اليأس، وطلع على مستمعه بكلام اللوم والتقريع الذي لا يملك المستمع معه إلا أن يسكت.. فإذا أبدى اعتراضاً أو ملاحظة ثار به الأستاذ أكثر فأكثر..



محمد عدنان سالم في مكتبه المتواضع

كان عليه في مكتبه أن يتابع كل مجموعة من الموظفين، بل كل موظف، ماذا فعل قسم النشر؟ وكيف يجري العمل في المطبعة؟ وشباب التسويق هل يقومون بمهمتهم على وجهها؟ والتجليد ماذا به؛ إذا تلكأ العمل عنده؟ وقسم الإعلان؟ ومكتب المعلوماتية؟ والقسم الفني؟!

والأستاذ لا ينظر إلى الموظف نظرة عادية، بل يريده أن يكون مرتبط الولاء بالدار، لا يحضر بجسمه ليقوم بعمله.. بل يُحضر معه فكره وحسّه وحماسته، يؤدي أعماله عن محبته..

إذن فعمل الأستاذ عمل دائب من الصباح حتى المساء، وهو مع كل هذا، وبعد كل هذا، وفوق كل هذا ليس راضياً عن أداء عمله، متسخط أبداً، متبرم من الوضع العام في الدار، لا ينتج الإنتاج اللائق المطلوب والمفترض.

وربما اجترأ أحدنا عليه إذا أكثر من التشكي، مثلما فعل زميلنا صهيب الشريف فقال له يوماً:

- *يا أستاذ، كفانا! حتى متى نجلد ذاتنا؟ حتى متى نشتكي.. والدار تؤدي خيراً من كثير من الدور؟!*

وعند الأستاذ خلة طيبة، تنبع من نفسه، فهو على الغالب يحب الناس ويرفع أقدارهم ابتداء، وربما قدّر واحداً من معارفه فوق ما يستحق، وربما بذل له من الاحترام أكثر مما ينبغي لمثله أن يفعل، واحتفى به أشد مما يطلب لمثله.. يقبل عليه، ويستمع إليه،

وخصوصاً أصحاب الفكر والأدب والقلم، وهذا ما أطمع به كثيراً من الناس. فإذا بالضيف يخيب ظن الأستاذ به، وإذا بالأستاذ قد أناله أضعاف ما نال منه.

وكان إذا دخل الضيف عليه هش له وبش.. وفتح له من ذات نفسه، وأقبل عليه بقلبه، واستمع إليه بعقله، فيطمع الداخل عندئذ فيه، فيمكث ويطيل المكث، ويتحدث الأحاديث التي لا تنفع إلا في القضاء على الوقت.. والمتحدث لا ينتبه إلى اللوحة الكبيرة المعلقة تجاهه وفيها أن «الواجبات أكثر من الأوقات» مكتوبة بالخط الفارسي.. والأستاذ يحار كيف يتخلص من تفاهاته فلا يستطيع، يمنعه خلقه أن يريه من ذات نفسه إعراضاً، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فلا يخرج إلا بعد خروج الروح.

أما إذا كان الضيف ممن يحمل فكراً نيراً، وآراء سديدة، فالأستاذ المأخوذ بالفكر يصول معه ويجول، ويحاوره، ويلقي عليه أسئلة شتى، ويتداول معه ما يجول بخاطره؛ فالفكر عنده مقدس فوق كل الاعتبارات.. وأصحاب الأفكار كذلك..

وبعض الضيوف ثقلاء بطريقة غير معقولة، يفرضون على الأستاذ كتاباً يعرضونه عليه للنشر، يعلم سلفاً أنه كاسد لا سوق له، فيستحي منهم لسالفة لهم عليه أو لدالّة، وقلما تدركه شجاعة، فيرفض لأحدهم طلباً. وكنا نحن الموظفين المقربين إليه نتسخط من قبوله لمثل هذه الكتب، ونعترض عليه إشفاقاً على الدار، ونكشف عن عوارها، فيكون الأستاذ بين نارين.

ولم يكن الأستاذ ليكتفي بالاستماع إلى الكتّاب وأصحاب الفكر فحسب، ولم يكن ليشاركهم الحوار والنقاش وتجاذب المشكلات فقط، وإنما كان يبشر دوماً بنظريات يطلع بها من طول قراءاته واطلاعاته..

كان أكثر ما تمثله في عقله فكر مالك بن نبي في الحضارة، وقد هضمه كله، واستبطنه، وآمن به إيماناً مطلقاً، كما أعجب بما عند عبد الوهاب المسيري، وكَلِف بآراء جودت سعيد الأولى قبل أن يشتط به الزمن فيترهل فكره، وأهمّه طروحات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.. وقد زاد الأستاذ من عند نفسه على كل أولئك.. وقدم أفكاراً معهم.

وتكون لنا جلسات في الصباحات الجميلة نحن الموظفين المقربين، نستمع إليه، قبل اشتداد العمل، يقف عند نقاط يتحدث فيها عن الحضارة، وسقوطها، عن المسلمين الذين يتأخرون كل يوم، عن نهوض الغرب المرتقب بالإسلام بعد خوائه الروحي، عما وصل إليه تردي الأحوال في عالم اليوم الذي استنزف خيرات الأرض وبركاتها استنزافاً غير معقول؛ فأخذ نصيبه ونصيب غيره من الأجيال القادمة، عن أمله في الشباب الذين يرى أنهم سيصححون المسيرة المنحرفة، عن ثورة المعلومات التي ستفعل الأعاجيب، وستجعل الناس كل الناس سواسية في سلم الحضارة والتقدم.. وهو بعدئذ مؤمن بحضارة اقرأ، لأنها من ربّ العالمين الذي أنزلها لهداية البشرية، وبعث بها مع النبي الخاتم الذي أكمل به مسيرتها الإنسانية.

ينسى الرجل أحياناً كثيرة أننا موظفون عنده، علينا أن نتابع أعمال الدار، ويستغرق في حماسة عفوية؛ فيلقي آراءه إلينا، أو يلخص أفكاراً سمعها من فلان، أو تعليقاً استوقفه من فلانة.. ويثني على هذا في فكره وينكر على ذاك في رأيه.. وهكذا، ويَكْثُر في المجلس الأخذ والرد منا ومنه حتى نأتي على الموضوع المثار.

وربما تولّد من تلك الجلسات مشاريع يسندها إلينا؛ نقدمها بأسمائنا الشخصية، أو نشتغلها في الدار لحسابها من خلال دوامنا فيها، وغالباً ما تكون مشاريعَ لكتب ناجحة تروج في السوق، وتفرض نفسها على القراء؛ ذلك لأنها خرجت ناضجة مدروسة على الراجح..

من هنا كانت دار الفكر مدرسة، مذهباً يستحق الدراسة، بما تُقدم من ثقافة رصينة وفكر عميق له مميزاته وشأنه، وليس بدعاً أن يمثلها اسمها الذي يضخ الأفكار.

والأفكار المقبولة عند الأستاذ كثيرة، يفتح من أجلها نوافذ كل الجهات، لا يغلق في وجه أي فكر نافذة، ولا يضع وصاية على القارئ.. لأن القارئ برأيه هو الذي يجب أن يختار.. ثم لا بد للقارئ الواعي أن ينتقي الفكر السليم.

ولذا فإن كتباً عديدة نشرتها الدار أجفل منها ناس، لم تعجبهم لبعض ما طرح فيها، وساءهم أن تخرج الدار مثلها وهي دار إسلامية، رأوا أن مثل هذه الكتب تسيء إليها.. ولكنهم أساؤوا فهمهم لها..

قلت له مرة: يا أستاذ، لماذا لا نكتب على كتبنا - كما يفعل بعض دور النشر - (الدار ليست تتبنى بالضرورة ما يرد في هذا

الكتاب) فما استحسن ذلك، وأنكره عليّ.. وقال: «إذا كنا ننشر كتاباً لا نريده، فالأحسن ألا ننشره» ومع ذلك فالأستاذ يضطر أن ينشر كتباً يصانع أصحابها لمودة بينه وبينهم، وليس فيها خطر ضد أفكار الدار، ولكنه يعرف مسبقاً أنها لن تروج في السوق، ويقول: «إن لكل عمل زكاة، وهذه الكتب من زكاة عملنا..».

الأصل إذن نشر كتب تمثل أهداف الدار، ومن هنا فإن الأستاذ كان يؤكد أنه لا ينبغي انتظارنا لمؤلف يسعى إلينا، يحمل كتابه، وإنما يجب أن نخطط لنشر ما نريد سلفاً. ولذا كانت الدار تطلع بالمشاريع بين الفينة والأخرى؛ وكان من أهم مشاريعها الأخيرة سلسلة (حوارات لقرن جديد) وقد جاوزت اليوم نحو خمسين حلقة في كل حلقة قضية ساخنة من قضايا الساعة، يتحاور حولها باحثان مختلفان في وجهة نظرهما إلى القضية المطروحة، يكتب كل منهما في القضية بحثه بمعزل عن الآخر، ثم يتبادلان؛ كلٌّ بحث الآخر فيعقّب عليه.. وقد لقيت السلسلة بهذا الشكل رواجاً.. ولكنه في النتيجة رواج خاسر في الميزان التجاري؛ لأنه يكلف الدار نفقات إن قامت حصيلة بيعه بكلفة الكتاب رأتها الدار مكسباً مهماً. فانظر كيف تنظر الدار إلى تجارة الكتب، وكيف تتعامل معها.

وخطط الأستاذ من قبل لتحقيق كتاب (مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر) باختصار ابن منظور، جلب مصورة مخطوطته الوحيدة بخط ابن منظور نفسه صاحب لسان العرب من مصادر شتى، وعُيّنت من أجله لجنة مشرفة، وزعت العمل على محققين معروفين أنجزوه وفق الخطة التي ارتأتها اللجنة، ثم أكملوا نواقص أسقطها ابن منظور

في اختصاره، فاستوى كتاباً عظيماً في **٣٧** جزءاً لا ينبغي أن تهمله هذه المدينة العظيمة؛ لئلا يوصف أبناؤها بالعقوق. خصوصاً أن الكتاب الأصل ليس في متناول اليد.

ومن الكتب الناجحة التي خطط لها الأستاذ، كتاب (الموسوعة القرآنية الميسّرة) وقد سدّ ثغرة هامة، وجمع كتباً سبعة في مجلد واحد، فيه نص القرآن الكريم على مصحف الحفاظ، وتفسير وجيز لآياته، ومعجم مفهرس لمعانيه، ومعجم آخر لكلماته، وأسباب النزول، ولمحات عن علوم القرآن..

و(موسوعة الفقه الإسلامي) في أحد عشر جزءاً، و (التفسير المنير) في سبعة عشر مجلداً.. و (الموسوعة التاريخية)، و (سلسلة الأطالس الإسلامية)، و (سلسلة علماء دمشق وأعيانها في القرون الخمسة الأخيرة) في أحد عشر جزءاً، وغير ذلك كثير..

وقد نتج عن هذا النشر الدؤوب حين بلغ عمر الدار خمسين سنة وأكثر؛ أن أصدرت ما يزيد على ألفي عنوان في جميع جوانب المعرفة الإنسانية.

وإذن فقد أراد الأستاذ أن تكون دار الفكر دار بحث علمي ودراسات، لا دار طباعة لتسويق الكتب كيفما اتفق.. ففي الناشرين من يطبع ما تطلبه الأسواق، وما يروج فيها من منشورات الطبخ والتنجيم والروايات.. أو كتب التراث من غير تحقيق ولا تدقيق، أو كتب الصرعات الرائجة.. وما يريده الجمهور.

لذلك فأنت تحس في دار الفكر أنك في مؤسسة تكاد تكون

رسمية، قد خططت لها الدولة أحسن تخطيط.. بل لعلها تفوق المؤسسات الرسمية.

والكتاب الذي تطبعه، كتاب متميّز في الدقة، لا تدفعه إلى المطبعة إلا بعد أن تعمل فيه أقلام التنقيح فتنفي عنه أغلاط الإملاء، وتنظف كلماته من أخطاء النحو، وتغسل ركّته الركيكة، وتنثر عليه علامات الترقيم تزينه، تجعلها في موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه.

حتى إذا استوت عباراته، وسوّيت سطوره، دفعته إلى الرقن فأدخل على الحاسوب، ثم صححت تجربته الأولى، وما يحتاج إليه من تجارب تالية، وحين تطمئن قلوب المنقحين إلى سلامته يُدفع به إلى الإخراج النهائي، وفق أسلوب الدار في تنسيق الكتب..

فإن تم له ذلك كان بين أيدي من يصنع له في آخر صحيفتين مستخلصاً لا يجاوز مئتين وخمسين كلمة، يترجم في ثانيتهما إلى الإنكليزية Abstract. وحينئذ يُحمل إلى مكتبة الأسد فيصنع له المتخصصون بطاقة تصنيف تثبت صورتها في الصفحة الثانية من الكتاب. كما تخصص الصفحة الرابعة للمعلومات الوراقية الببليوغرافية؛ وفيها رقم التصنيف الموضوعي والموضوع العشري، وقياس الكتاب، والرقم الدولي، والرقم الاصطلاحي، وسنة الطبع، ورقم الطبعة..

وقبل أن يدفع إلى المطبعة يكون الفني قد هيّأ غلافه الملون، والأستاذ يشارك فيه ويشاور ويدقق بنفسه، وربما غيّر وبدّل وانتقد ولام وعنّف.. والغلاف يحمل في باطنه الأول تعريفاً مختصراً

بالمؤلف، وفي باطنه الأخير تعريفاً موجزاً بالدار.. وعلى ظهره كلمة تشي بمضمون الكتاب وعنوانه مع اسم المؤلف بالأحرف الأجنبية وبالأحرف المنقحرة[١].

كل ذلك يكلف الدار جهداً ومالاً ووقتاً، ويرفع تكلفة الكتاب التي تقتطع غالباً من عائدات ربحه، لا من جيب الزبون.. وربما لا ينتبه إلى قيمته القارئ العادي.

ومع كل ذلك، فربما تغدر بالمنقحين عيونهم، أو تمكر بعملهم.. فلا ينتبهون لغلطة في اللغة أو سقطة في الإملاء، تفضحهم بعد طبع الكتاب ويراها الأستاذ بعينه اللاقطة، وعندئذ يثور ويغضب ويُحبط، فالغلطة عنده خطيئة كأخطاء ابن آدم الأول.

ومن طريف ما حدث مرة أنه طبع كتاباً في عنوانه كلمة (إقرأ)، ونسي المصحح أن يحذف همزة الوصل فيها، وكان أكره ما يكون إليه همزة الوصل تقطع في غير موضعها، فصححها الأستاذ بقرف، ونبه عليها. فلما جاءت التجربة الأخيرة التي ستذهب إلى المطبعة رأى الهمزة لم تصحح، فثار وغضب ووبخ ولام، ولم يحملها الطابع إلا مصححة. وطبع الكتاب.. وكانت النسخة الأولى للأستاذ حين تخرج من المطبعة؛ فإذا بهمزة تحت ألف الوصل تتصدر العنوان على نحو زريّ. كان ذلك مذهلاً تماماً، فالرجل صحح بيده واطمأن على التجربة الطباعية قبل أن يأمر بها إلى المطبعة..

---

(١) النقحرة: كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية على طريقة ابتكرها المستشرقون.

حقق في المسألة، ودقق، وسأل عن المجرم فأكثر السؤال.. فإذا بعامل (الزنكوغراف) وهو مكبٌّ على عمله ظنّ في الكلمة خطأ فاحتال لها على همزة نقلت الكلمة - في رأيه - من الخطأ إلى الصواب؛ لأنه يعرف أن الأستاذ - كما قال - لا يحب الأخطاء ويكره الأغلاط، فأحبَّ أن يسدي إليه معروفاً..

وللأغلاط عند الأستاذ قصة أكلت من ذات نفسه، وما زالت تؤرقه حتى اليوم، فهو يريد كتاباً خلواً من أي هنة.. وقلما يتحقق ذلك في كتاب مهما كان منقحه يقظاً، إلا ما رحم ربك، ومهما كان مؤلفه دقيقاً صاحياً.. ولذلك فإن أي كتاب يدخل الدار لا بد أن يُقرأ قبل أي عمل، فإذا عرضت للمنقح مشكلة راجع فيها المؤلف فحلّها. وكم يخطئ المؤلفون كباراً وصغاراً، ولا يتصرف من عند نفسه إلا لغلطة بينة لا تحتاج إلى استشارة.

في ذات يوم كان الأستاذ في اليمن خلال زيارة عمل، يحمل معه تجارب طباعية لكتاب ألّفه عالم عراقي معروف، والمطلوب أن يوافق على آخر تجربة، فوافاه الأستاذ في مجلس حافل وهو يترأسه، فدفع إليه التجارب.. فما إن تصفحها حتى تغيّر وجهه، وثار بالأستاذ فأسمعه كلاماً لا يرضي.. وكان مما قال له: «أنا لا أسمح لأحد أن يعبث بنصوصي». قال له الأستاذ وهو يحاوره: ولكنها نصوصك! فنفى المؤلف أن يكون كتب مثل بعض تلك الجمل المهترئة.. وزادت ثورته واحتد، فما كان من الأستاذ إلا أن انحنى بهدوء بالغ على حقيبته، فأخرج له النصوص الأصل، وأراه ما كتبه بخط يده.. فسكت الرجل سكتة مشينة ألجأته إلى الاعتذار المستكين.

وعلى ذكر اليمن فللأستاذ رحلات من أجل الكتاب، وصلات غير قليلة.. شارك في السودان بتأسيس الدار السودانية للكتب مع السيد عبد الرحيم مكاوي، وغدت من الدور الشهيرة هناك. واتصل بالسودانيين، وخبر طباعهم، وألف عاداتهم، وشاركهم حياتهم، وأحبهم وأحبوه، وجمعته بكبارهم صداقة متينة واحترام.

كما كان له في اليمن مساهمات بتأسيس دار للنشر انبثقت عن دار الفكر، وكان لها شأنها، عُرفت باسم (دار الحكمة اليمانية)، ومنذ قامت دار الفكر في الخمسينيات تطلّع مؤسسوها إلى الآفاق، إذ لم تكن دمشق لتسعهم.. سرعان ما افتتحوا مكتباً لهم في القاهرة أيام الوحدة مع مصر يستوردون الكتب، ويتصلون بأساتذة الجامعات ويطبعون متطلباتهم، ويعيشون في سوق الثقافة، أكثر مما يحيون في سوق الكتب.

وطمحت أعينهم إلى بغداد حيث مكتبة المثنى لصاحبها الكتبي المشهور السيد قاسم الرجب، فكانت دار الفكر ترسل إليه من كل كتاب خمس مئة نسخة مهما يكن الكتاب، تشحنه من المطبعة فور تجليده، على شركة نيرْن(١)، فربما عرض الكتاب في بغداد قبل أن يظهر على واجهات دار الفكر بدمشق.

ويتساءل المرء عن هذه الكتب وتلك المشاريع.. لمن هي؟ للقراء طبعاً، وأين هم القراء اليوم؟..

---

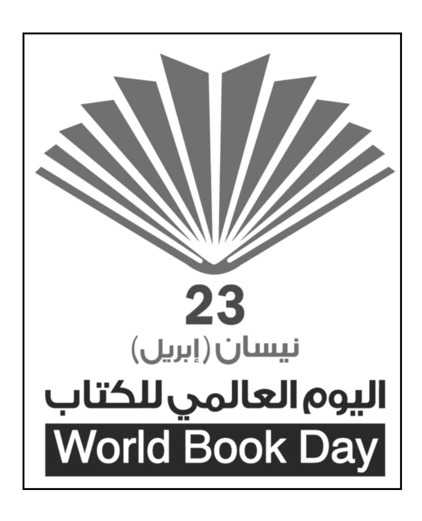
(١) شركة نقل برية مشهورة بين دمشق وبغداد، عرفت بعرباتها الطويلة المهيأة لقطع الصحراء بين هاتين العاصمتين، عملت حتى أواخر ستينيات القرن الماضي.

كان يؤرق الأستاذ مسألة العزوف عن القراءة؟.. أين الذين يقرؤون؟ الناس مشغولون عن الكتاب بالتلفاز والمواقع الإلكترونية.. وكثير لا يهتمون.. وكثير حقت عليهم الجهالة، لا يدرون ما الكتاب، ولا المطالعة! ومن هنا ابتكر الأستاذ لتشجيع القراءة جائزة استحدثها سماها (بنك القارئ النهم) تعطى كل عام لأكثر قراء الدار اقتناء للكتب، وجعل لها نظاماً، وعين من أجلها موظفاً يتابع القراء المشتركين فيها.

وبالمقابل شجع على الكتابة، فاكتشف أقلاماً مبدعة من خلال جائزة الدار السنوية للرواية، فكانت أقلام شباب من المغرب أول الفائزين عام ١٩٩٧، ثم فاز ناس من مصر والعراق فضلاً عن فوز السوريين في أكثر من محافظة. وأصدرت الدار روايات وإن اختلف القراء في مستوياتها؛ إلا أنها قدمت جديداً في سوق الرواية، أثار جدلاً، وأحدث آراء.

وهاجس القراءة إذن يبقى يحث الأستاذ على العناية بها، والكلام حولها والتشجيع عليها، فكتب كتابه (القراءة أولاً) ثم أصدر (الكتاب في الألفية الثالثة: لا ورق، ولا حدود).. وكان له من قبل في هذا الاتجاه كتابه (هموم ناشر عربي).. واستصدر مع زميل لنا كتاباً سماه (تسريع القراءة وتنمية الاستيعاب)، وآخر ما طبعته الدار في هذا الموضوع كتابا (فن القراءة) و (فن الكتابة) كلاهما للدكتور عبد اللطيف الصوفي. وهو مع كل كتاب في هذا الاتجاه.. ولكن كثيراً من المثقفين في الاتجاه الآخر.





ومن أجل القراءة اهتم الأستاذ باليوم العالمي للكتاب الذي اعتمدته اليونسكو في **٢٣** نيسان / أبريل من كل عام، واغتنم المناسبة فرصة للدعاية للكتاب، فيحتفي به في تلك المناسبة على مدى أسبوع، يجمع له المثقفين؛ بعد أن يثير حوله ضجة في الصحف وفي موقع الدار الإلكتروني.

ويخصص لكل أسبوع موضوعاً تدور حوله ندوة؛ في حلقات، تحمل شعار ذلك الموضوع الذي هو شعار السنة كلها.. وفي تلك المناسبة السنوية تكرم الدار أحد كبار مؤلفيها، كما تعلن عن جائزة الرواية، وجائزة القارئ النهم.

كان من أجمل الأسابيع أسبوع (المرأة وتحولات عصر جديد)، عام **٢٠٠٢**، حشدت له الدار باحثين مشهورين؛ جاؤوا دمشق من مصر والسعودية وإيران والأردن وفرنسة واليمن وأمريكة وغيرها.. جلسوا على منصة الحوار أطيافاً متعددة في الاتجاهات بين اليمين واليسار والوسط.. تجاذبوا الحوار بينهم، كل يدافع عن رأيه بأسلوبه، حتى عجب الناس لتلك المنصة التي لم تشهد مثلها دار ناشرة.. وباركتها وزارة الإعلام ووزارة الثقافة.. وانشغلت دمشق بالأسبوع مدة.. وكان حديث الناس..



ندوة البعد الثقافي للمسألة النسوية
فهمية شرف الدين، حنان لحام، أميمة أبو بكر، فريال مهنا

وبعد

فهذا الصرح الثقافي الذي أسس على التقوى من أول يوم، لم يكن ليقوم لولا المؤسسون الذين هيأتهم الإمكانات الأولى؛ تربية وعلماً، وغرست فيهم الإيمان المستحكم في نفوسهم.

فالشريكان الآخران ابنا عالم جليل هو الشيخ عبد الرحمن الزعبي، صاحب إحدى نهضات الميدان العلمية، تخرج به طلاب كثيرون لمعوا، وعرفوا بين الناس بالصلاح والتقوى.. وقد ربّي ابناه بين يديه، وصنعهما على عينه، وتتلمذا له في العلم والخلق. وكان الأستاذ محمد الزعبي، أكبر أبناء أبيه، حقوقياً قرأ علوم الشريعة، وخطب في المساجد وأمّ الناس، وعقد حلقات العلم.

والأستاذ محمد عدنان سالم نشأ كذلك في أسرة صلاح تعود أصولها إلى القلمون، استقر أبوه في دمشق بعد أن طوحت به أسفاره

إلى ما وراء البحار.. وكان همه أن يبث في أبنائه العلم مع التقوى وحب العمل.

نشأ ابنه هذا، وهو الأكبر من بين إخوته، في مدارس الشيخ علي الدقر، فتعلم في (سعادة الأبناء)، أشهر المدارس الخاصة آنذاك، وكانت ربما تفضّل على المدارس الرسمية، لأنها تعتمد برامجها، وترجح عليها بمقررات العلوم الإسلامية، ثم تابع تحصيله فيها، فلما أنهى المرحلة الابتدائية خيّره أبوه بين التجهيز الرسمية الأولى وبين الثانوية الشرعية فاختار الأخيرة، فاستكمل علومه فيها.. وحصل على شهادتها وشهادة الدولة الثانوية بآن واحد.

وفي كلية الحقوق تخرج بعدئذ ليشتغل في المحاماة التي جافتها نفسه، فعزف عنها سريعاً، ورأى طموحاته في نشر التعليم أجدى وأنفع، فأسس مع صديقه الأستاذ محمد الزعبي ثانوية دار الفكر، بذلا فيها الجهد، ووضعا لها الأهداف المرجوة.. لكن أمر الله لم يقدر لها الاستمرار، فجنحا نحو الكتاب خدمة ونشراً.. فكانت مؤسسة دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ارتفعت لوحتها مقابل مركز البريد العام في منطقة الحجاز عام **١٣٧٧** هجري الموافق لعام **١٩٥٧** ميلادي..

رفعت دار الفكر منذ البداية شعارها الأول «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه».. وعرفت منذ البداية ماذا تريد وماذا تصنع.. فاختطت لنفسها طريقاً خاصاً بها؛ يحترم المؤلفين ويحرص على حقوقهم.. وكان أوائل مؤلفيها أساتذة الجامعة؛ طبعت لهم مراجع جامعية وكتباً لطلابهم.

ثم اتصلت بكبار الكتّاب والمفكرين؛ فطبعت مؤلفات مالك بن نبي، وعرّفت به، واحتفت بزياراته لدمشق، وتبنت فكره، وبشرت بما عنده، وأصدرت كتباً عدّة لأبي الأعلى المودودي من الهند، وأذاعتها ونشرت دعايتها.. واحتفت بفكر الشيخ جودت سعيد، وطبعت كتبه كلها.. وكان لمؤلفات الشيخ علي الطنطاوي منذ البدايات حيّز في مطبعتها وواجهتها.. واقترحت عليه كتباً كذلك للصغار فألف سلسلة مفيدة لهم.. فسبقت إلى ثقافة الشبان والأطفال.. يوم كانت دمشق عالة في كتب الصغار على بضاعة مصر بعجرها وبجرها، وفيها قصص خيالية تفسد نفوسهم ولا تنفعهم. إلا أن دمشق كانت آنئذ مقصرة كل التقصير.. ولم تخطط للطفولة ما يناسبها، شغلت عنها لأمر ما.. وشغلت دار الفكر بظروفها.. حتى استأنفت منذ مدة، فاستدركت، وأنشأت قسماً في دارتها للأطفال، عليه رئيسته الأستاذة منى سالم التي تتابع العمل. وخرجت عنه كتب تعرف ما تريد.. آخرها مئة وعشرون أقصوصة من التراث الدمشقي.. وسلسلة قصصية لتعليم النحو شائقة.. ومن أبدع ما سوقه الأستاذ تبسيط بعض من فكر مالك بن نبي للأطفال، على صعوبة ما عند مالك، صدرت سلسلته الأولى بعنوان (حكايات العم عزوز).

ولست هنا بصدد كل ما صنع القسم للأطفال، وإن كان فيه أشياء كثيرة يعرفها من يعرفها.

ثم كان الإنتاج في جميع الاتجاهات الثقافية.. فدار الفكر تمثل آفاق المعرفة المتجددة.. وكبرت يوماً بعد يوم.. وقد جاوزت اليوم من عمرها خمسين سنة، وعندها كل يوم جديد.

هذا هو شيخ الناشرين السوريين الذين أجمعوا عليه، أستاذ الفكر ومدير دار الفكر..

وهذه السطور من كلام التلميذ الذي لا يدري متى يتخرج، يحمل الشهادة، وما أظنه إلا سيبقى معيداً في هذه المدرسة، وعند شيخ حلقتها، يقرأ الكتب بين يدي الشيخ في دروسه، ويتابع الطلاب.. ويحتفي بالضيوف.. من جميع الأطياف ولدى التلميذ مزيد من كلام، لعله يخطّه فيما بعد، لا يتسع له الكلام هنا.

محمد عدنان سالم
حكاية نذر!

أ.ة. هدايت سالم

بعض النذور باهظة الثمن؛ إنها تأخذ عمراً كاملاً لكي تُستوفى.. تأخذ كل شيء، بلا مساومة، بلا مفاصلة... دون أن تترك حيزاً ولو صغيراً لأي شيء غير الإيفاء بها و لها....

ليس هناك من دليل أصدق على هذا، من أخي عدنان سالم. فلقد كانت - وما زالت - حياته كلها، إيفاء لنذر قديم من هذا النوع من النذور؛ التي لا شيء سوى العمر كله يمكن أن يفيها...

لا أقول هذا على صعيد المجاز اللفظي؛ فذلك النذر كان حقيقة وله قصة لا يعرفها كثيرون، وربما نسيها أيضاً أغلب من يعرفها، وهي قصة تعود إلى ما قبل ولادة أخي عدنان، حيث إن والدي - رحمه الله- الذي تزوج متأخراً في السن، نذر إن رزقه الله بذكر، فإنه سينذره للعلم..

وجاء ولده البكر ذكراً هو عدنان، جاء منذوراً للعلم.. كأنما لخص في ذلك النذر قصة حياته. كأنما ذلك النذر هو كلمة السر - المفتاح في كل خطوة سيخطوها لاحقاً..

وللحقيقة، ما كان والدي يقصد بالعلم أكثر من العلم الشرعي المباشر، لكن عدناناً، أوفى بالنذر بأوسع وأعمق المعاني، دون أن يخرج عن معنى العلم الشرعي؛ الذي كان في ذهن والدي يوم نذر ابنه البكر الذي لم يكن قد ولد بعد..

هل كان يمكن لمن جاء إلى هذه الحياة، منذوراً للعلم، أن يفعل أكثر مما فعل أخي عدنان؟.. أليست «دار الفكر» التي أسسها -مع رفيق دربه محمد الزعبي- شكلاً من أجمل أشكال الوفاء بالنذر؟..

الرحلة من جامع «تنكز»؛ حيث تلقى أخي عدنان علمه الشرعي، إلى معرض فرانكفورت، حيث أسهمت دار الفكر في نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى العالم الغربي.. لم تكن رحلة هيّنة، وكان لها محطات متعددة، وكان لعدنان أيضاً مراحل ومحطات مختلفة ومتعددة، تغيرت خلالها بعض أفكاره، ولكنه تمكن دوماً أن يكون تغييره نحو ما هو أكثر صواباً ورشاداً. مع الأيام، طرأت على أفكاره بعض التطورات، لكن ذلك لم يزد ثوابته إلا صلابة، وظلت بوصلته تشير نحو تحقيق ذلك النذر: نحو العلم، بل إلى ما هو أهم من ذلك؛ جعل العلم خميرة لنهضة لم ييأس أخي عدنان أبداً من حتمية قدومها..

قد يبدو الأمر - للوهلة الأولى - جزءاً من بره بوالده، وبالنذر الذي قطعه، هو الذي - رغم كل حديثه عن «الآبائية» باعتبارها واحدة من أهم أسباب تخلفنا- كان الأكثر براً بأبيه إلى درجة أنه لم يكن يتقدم خطوة واحدة (حرفياً، أبداً وحتماً) عن أبيه..

لكن الأمر أكثر وأعمق من ذلك. لقد دخلت فكرة النهضة في تلافيف دماغه، في عمق نخاعه وفي كريات دمه.. حتى لا أكاد أتخيل له (فئة دم) غير (فئة النهضة)..

- وليس ذلك يسيراً قط، فهمُّ النهضة الذي يحمله أخي عدنان أثقل من كل حمل شخصي يقضي معظم الناس حياتهم في حمله. لقد شاركته فكرة النهضة في حياته، فكانت زوجته الثانية لزوجته التي تقطر «حكمةً» ووفاءً، وأختًا شقيقةً لأولاده..

في كل جلسة عائلية، في كل عارض أو طارئ، في كل مناسبة سراء أو ضراء، حزن أو فرح، مهما بدا شخصياً وعابراً وعادياً، كان لا بد لأخي عدنان أن يحمل فكرة النهضة معه، باعتبارها الحل والمنقذ والدواء لكل أمراضنا ومشاكلنا، مهما بدت فردية وشخصية.

بل إنني لا أعتقد أن فكر النهضة قد سكن شخصاً أكثر مما سكن أخي عدناناً، حتى مفكرو النهضة أنفسهم- مع كل الاحترام لهم- لا أعتقد أن فكرهم قد تجسد وتمثل في كل حياتهم، كما حصل مع عدنان الذي صارت النهضة حديث الصباح والمساء بالنسبة له...

قد يحسب من لا يعرف عدنان سالم أني أحابيه وأجامله لأني شقيقته، ولكن كل من اقترب منه، ولو قليلاً، يعرف صدق ما أقول.. يعرف كيف تجسدت النهضة وفكرها سلوكاً إنسانياً في منتهى الرقي والتحضر عند أخي عدنان.. وكيف توحدت الفكرة والسلوك عنده دون شبهة سقوط في أن يقول ما لا يفعل كما عند الكثيرين..



لقاء الأخوين محمد عدنان ونذير سالم خلال خدمتهما العسكرية

وأنا هنا لا أخفي اعتزازي الشخصي ومودتي غير المحدودة لأخي عدنان، الذي كان موجوداً في كل مرة لجأت إليه فيها، في كل لحظة ضعف مررت بها؛ وجدته أخاً - أباً - كتفاً مضمون الوجود.. بابتسامة «إيجابية» مصرة على التفاؤل؛ موقفاً محسوماً ولا رجعة فيه.

أعرف أن كلمات التكريم لا تعني عدنان سالم، وأن مناسبات الاحتفاء والثناء لا تهمه.. بل إنه يضيق بها ذرعاً؛ خاصة عندما يكون هو المحتفى به، لكن ربما نستطيع أن نقنعه أننا إنما نود تكريم فكر النهضة.. وأننا لم نجد شخصاً تمثل فيه هذا الفكر، أكثر منه..

الأستاذ محمد عدنان سالم كما عرفته

أ.د. وهبة مصطفى الزحيلي

من حق مَنْ يكرِّم العلماء والمفكرين والناشطين في مجال القراءة والكتابة والتصنيف والإبداع - وهم عشرات - أن يكرَّم ويبجَّل ويسجل تاريخه ليكون أسوة حسنة لغيره، ونبراساً يقتدي به أهل الخبرة والتخطيط والتطبيق، واستطلاع اتجاهات المستقبل، ورصد الماضي ومعرفة إيجابياته وسلبياته، وتناسي ما لم يعد للعناية به أثر يذكر، أو حديث يتداول، أو نقاش أو حوار فيما يفيد الوطن والمجتمع والأمة، وإبقاء النافع المفيد، ورصد كل الإمكانات والطاقات الحيوية للانتقال إلى ما هو أفضل، وإبقاء ما هو أنفع، في ضوء دستور المعرفة، ورصيد الأمة الذي يدفعها إلى الحركة وإثبات الذات، وصون القيم والمقدسات، والتفاعل مع واقع العصر دفعاً إلى الأمام في ضوء الرصيد العقدي؛ الإيماني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والمعرفي.

إن تكريم الآخرين لإنسان ما تشجيع له، وبخاصة إذا لمسنا في

عين البصيرة أن الإشادة به لا تزيده عجباً بالنفس، ولا حباً في الظهور، ولا استكباراً في الأرض، وإنما رائده ومنهجه التواضع لله تعالى، والتعاطف مع القاصرين، والأخذ بأيديهم إلى النهوض، وتجاوز الانتكاسات.

والتكريم في المصطلح الإسلامي هو التزكية، وهو قاعدة أساسية قررها الفقهاء لصحة الاعتماد على شهادة الشهود من أجل التوصل إلى حكم قضائي صائب بأقصى قدر ممكن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢].

وإذا كان المديح في وجه الإنسان مذموماً شرعاً، ونحن مطالبون في الهدي النبوي بالعمل بقوله صلى الله عليه وسلم: «احثوا التراب في وجوه المداحين» فإن الثناء على الإنسان في غيبته باعتدال وأناة دون تفريط ولا إفراط مرغوب به شرعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

فمن هذه المنطلقات عرفت في حياتي المديدة أشخاصاً كثيرين، منهم من لا يبقى في ذهني أثر عنهم، ومنهم من أكبرهم وأحبهم وأقدرهم تقديراً بالغاً، مثل أساتذتي ومشايخي، ومنهم من أتعامل معهم فأجد فيهم الصدق والغيرة والحب والعطاء والإحسان مثل كثير من الزملاء والأصدقاء والإخوة الكرام، ومنهم الأستاذ محمد عدنان سالم مدير دار الفكر بدمشق ورئيس اتحاد الناشرين السوريين منذ عام ١٩٩٤، وغير ذلك من المناصب.

كان أول لقائي مع السيد أبي حسن سالم في عهد الشباب، ومثلي مثله في السن والهمة، ومحبة العمل، والغيرة على أمتنا التي تعاني كثيراً من ألوان التمزق والتخلف والضياع، بل والغربة عن الإسلام، وذلك في أواسط عام **١٩٦٢** م حيث طبعت في مطبعة دار الفكر في شارع خالد بن الوليد - حي الإطفائية أول كتاب لي وهو رسالة الدكتوراه (آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة) أي قضايا السلم والحرب في الإسلام والقانون الدولي.

أدركت في الدار ومديرها صدق العمل، وإخلاص القول، والوفاء بالوعد، والإسهام في التمويل، والإتقان، وحسن اللقاء، وتقدير الأخ لأخيه، وكنت لا أجد الأستاذ عدنان سالم إلا وهو منفعل أو متفاعل أو منهمك في عمله هو وشركاؤه آل الزعبي، فأحببت دار الفكر وأهلها والعمل معها. ثم عرفت الأستاذ عدناناً في مناسبات عديدة في الإقامة والحضر، وفي السفر والغربة في معارض الكتاب الدولية، فلمست منه الصدق، والنشاط، وحب الإنجاز، والإسهام في نهضة الأمة والمجتمع المسلم العربي عن طريق توفير الكتاب المفيد، والمبتكر الجديد، والمتميز بالشمول والأصالة والمعاصرة، وكان لا يغيب عن مركز العمل إلا في ساعات الاعتكاف في جامع المولوية بجوار دار الفكر في محطة الحجاز، في أيام رمضان المبارك، ذاكراً الله، ناسكاً متعبداً تالياً للقرآن.

ثم تتابعت وسائل الاتصال والنشر في دار الفكر بيني وبينها، وواجهتها على الدوام الأستاذ عدنان الذي يبادر إلى عمله في مكتبه

في ساعات الصباح المبكر الساعة السادسة، فيفتح أبواب الدار قبل مجيء الموظفين بساعتين.

أكسبه الانكباب على عمله طوال اليوم تأملاً وترقباً وتخطيطاً سليماً، وتنفيذاً سريعاً، وتبادلاً للرأي مع المترددين على الدار، أسفر عن إيجاد صداقة وأخوة مع عدد من كبار الشخصيات، الذين يُكبرونه ويحبون لقاءه، فهو حسن اللقاء والوداع، وحسن الاستماع إلى آراء الآخرين، وحسن التأمل فيما يقال ويدور فيه الحوار، وحسن توجيه الحوار وإفراغ الآراء في مجال التطبيق والعمل والنشر والتأليف، والتشجيع على ترجمة الرأي الحميد إلى واقع ملموس وتليد؛ تحيا به الأمة، ويرثه الجيل من عطاء الفكر، وعصارة الذهن، واتقاد نور المعرفة، وعشق التجديد، وإبراز كل جديد في حقل العلم والثقافة، وتحريك الهمم لرفع درجات النهوض وتقدم المجتمع، والتخطيط لمستقبل أرفع وأفضل للأمة.

ينطلق الحوار من ماضي الأمة، وتوصيف حاضرها، وإشعاع رصيدها، والانطلاق من معاني كتابها المجيد وسنة وسيرة النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، ومن معين ما خلَّده علماؤنا الأبرار في مجالات العلوم المختلفة في التفسير والعقيدة والحديث والفقه وأصول الفقه ومصطلح الحديث، وغير ذلك من آفاق المعرفة المستجدة، سواء في قضايا الأمة والوطن، أم في قضايا الصراع مع الآخرين، والبحث عن كيفية دحر العدوان، وتضميد الجراح، واسترداد الحقوق المغتصبة، وفي قمتها فلسطين الجريحة ومعاناة أهلها الصامدين الصابرين المقاومين الشرفاء، ثم ما أفرزت

التحديات العدوانية الاستعمارية - الصهيونية من مآس ونكبات في أفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوفو، والصومال والعراق والسودان، وغير ذلك من محاولات التدخل السافر في قضايا لبنان وسورية، والعمل على تركيع الشرفاء والمخلصين، بل العمل على تجزئة كل البلاد العربية دون استثناء أحد.

وكان من أهم معالم التجديد في دار الفكر على يد مجددها وباني نهضتها الأستاذ محمد عدنان سالم هو نشر آفاق الحوارات في موضوعات شتى بين فريقي الولاء والمعارضة، وتلقُّف كل جديد في التأليف بحماس وغيرة وحب في النشر وإشاعة المعرفة. ومنها أغلبية كتبي وكتب أ. د. محمد سعيد رمضان وغيره من الأعلام.

وسَّع الأستاذ عدنان في مخططاته لدار الفكر، فشمل المعلوماتية المتطورة، والإعلام، والفنون، وقضايا الأمة، ومعالم الفكر، وأغدق على العاملين في الدار كل أنواع العطاء والسخاء، دون تهيب ولا تقدير لحساب الأرباح والخسائر، حتى تجاوز عدد العاملين السبعين فأكثر.

وأما مصداقية دار الفكر ومديرها فتتمثل في نواح كثيرة؛ منها إتقان الطباعة، واعتدال التسعير للكتب، وإنصاف المؤلفين، وحسن إعداد المطبوعات، وصون الحقوق، وأداء المستحقات بأمانة وإخلاص وسماحة وعفة دون تقصير ولا إهمال، ولا مواربة، أو تحايل، وكل ذلك منضبط على أيدي أجهزة المحاسبة وشاشات الحاسوب في الدار، وجرد الكتب القائمة والنافدة والموزعة في

سورية وغيرها من بلاد العرب، وأصقاع العالم الإسلامي والغربي، حيث تنتشر كتب دار الفكر في كل مكان من أنحاء العالم، وتستعد الدار لإرسال أي كتاب لطالبه في أي مكان، بعد أداء الثمن ونفقات الإرسال.

ومن فضائل الأستاذ عدنان عليَّ تشجيعه المستمر لطباعة موسوعاتي الثلاث في أصول الفقه والتفسير، والفقه.

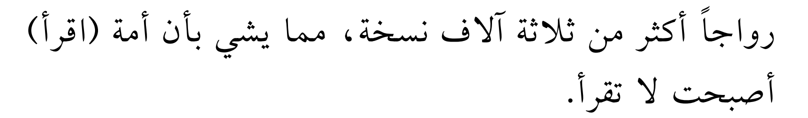
ومن أبرز إسهامات الأستاذ عدنان سالم

دفاعه عن الكتب والناشرين، وتخطيطه لمستقبل أفضل في دنيا العرب والعالم، ولقد شاهدت في مصر أكثر من مرة تكريم اتحاد الناشرين العرب له، ولعل من أجلى آثار الأستاذ عدنان التي لم يسبق إليها بيان أوضاع (الكتاب في الألفية الثالثة - لا ورق، ولا حدود) وتوصيفه هموم الناشرين، وأزمة الكتاب وأثرها في صناعة النشر، وأراه متشائماً في بيان ظاهرة الانتكاس في صناعة الكتاب في ثلاثة مستويات وهي: القراءة، والإبداع، والنشر.

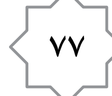
فهو يقول:

١- على صعيد النشر: تراجع عدد النسخ التي يطبعها الناشرون من كل عنوان، إذ على الرغم من تزايد عدد السكان إلى ٢٥٠ مليون عربي[١]، وتناقص عدد الأُميين بسبب قوانين التعليم الإلزامي، فإن الناشر بات لا يطبع من أكثر عناوينه

(١) والآن أكثر من ٣٠٠ مليون.



رواجاً أكثر من ثلاثة آلاف نسخة، مما يشي بأن أمة (اقرأ) أصبحت لا تقرأ.



٢- وفي مجال الإبداع هدأت المعارك الأدبية، والمناظرات الفكرية، والمقالات النقدية التي كانت تحفل بها الأوساط الثقافية في أواسط القرن، ونضبت بهدوئها القرائح، فانكفأت إلى التكرار والاجترار والاقتباس والمحاكاة، ولاذت بالتراث تستنطقه الأفكار، بدلاً من أن ترتكز عليه في بناء الأفكار.

٣- وصناعة النشر كان لا بدَّ لها أن تتأثر بدورها بعاملي العزوف القرائي، والعوز في الإبداع، إضافة إلى عوامل أخرى قلَّصت من ساحة نشاطها، فالكتاب المدرسي تولت إنتاجه وزارات التربية، ومناهج التعليم الجامعي لم تعد تعير اهتماماً للمراجع الجامعية. وتعامل الدول العربية مع الكتاب بوصفه سلعة اقتصادية دون النظر إلى خصوصيته الثقافية، وافتقار صناعة النشر إلى تنظيمات مهنية تعنى بتطويرها وإرساء التقاليد، ووضع المعايير اللازمة لتحسين أدائها.

ومن أهم ملامح فكر الأستاذ عدنان وغيرته

إحساسه بغربة اللغة العربية في مواطن انتشارها، والإقبال على العناوين والمصطلحات الأجنبية، والرطانة بالفرنسية أو الإنجليزية لدى النخبة، ومنهم بعض أساتذة الجامعات في البلاد العربية.

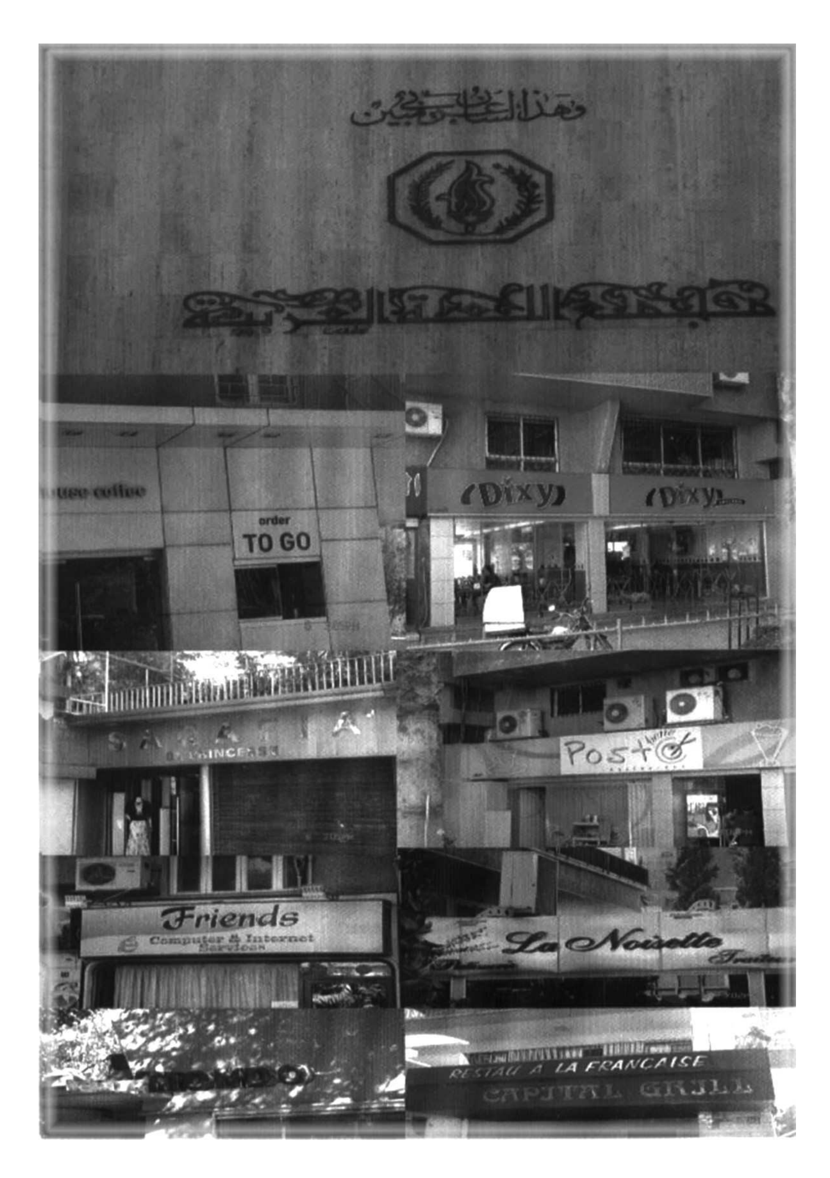
نشر الأستاذ عدنان في جريدة تشرين العدد (٩٩٨٩) الأحد ١٨ رمضان ١٤٢٨هـ / ٣٠ أيلول ٢٠٠٧ مقالاً بعنوان (دمشق قلب العروبة النابض تنسى لغتها) أبان فيه أسفه الشديد على ظاهرة كتابة اللافتات في دمشق للمطاعم والمحلات التجارية المتلألئة بالأنوار ذات الألوان المتباينة الزاهية بحروف لاتينية، مع أنه كان القانون السوري في النصف الثاني من القرن العشرين وما قبله يمنع صراحة كتابة اللافتات بحروف أجنبية، قائلاً:

«أهذه دمشق التي تفردت بتدريس الطب في جامعتها بالعربية الفصحى منذ تأسيسها عام ١٩١٧[(١)]، وعلَّمت جنديها البسيط وسم كل شيء باسمه العربي الفصيح: البارودة، والأخمص، والزناد، والجعبة..؟!».

«أهذه دمشق التي حُطِّمت لافتاتها المكتوبة بالفرنسية، على المخازن والدكاكين والمصارف والمؤسسات الأجنبية، حتى اضطرت الحكومة السورية في ظل الانتداب (الاحتلال الفرنسي) أن تصدر تشريعاً يوجب أن تكون كل لافتة مكتوبة بالعربية، فإن كتب شيء منها بالفرنسية، فينبغي ألا يزيد حجمه عما كتب بالعربية في اللوحة نفسها بحيث تبقى العربية الأبرز..؟!».

واتجاه التجار وانحرافهم ومخالفتهم هذا النظام جزء من المخطط الأمريكي المعاصر منذ قرابة سنتين بإضعاف اللغة العربية -

(١) وقلدتها بفخر واعتزاز جامعات الجزائر والسودان بتعريب لغة التعليم في عهد القائد بومدين رحمه الله، وكذا في جميع المدارس.



لافتات لمحلات تجارية تحيط بمجمع اللغة العربية

لغة القرآن، وقصرها على المتخصصين، والدعوة إلى اللهجة العامية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين على يد المستغربين العرب في لبنان مثل أدونيس وفي مصر مثل طه حسين، لذا أكد قرار من قرارات مؤتمر القمة العربية الأخير في دمشق ضرورة العناية باللغة العربية الفصحى.

ثم قال الأستاذ عدنان سلَّمه الله: «لا بد من ثورة قوية على هذه اللافتات المخزية، ومن توجيه لوم شديد وغرامات قاسية موجعة لمن استهزأ بلغة أمته، وخالف دستورها وقوانينها.. منبهراً بلغة عدوه، عسى أن يعود إلى رشده».

هذه غيرة كل مسلم عربي مخلص غير موال للاستعمار، جزاه الله خير الجزاء .

يتبين من سيرة الأستاذ عدنان أن أسلوبه رصين عربي واضح، وعاطفته قوية متأججة، ولغته لغة العرب الفصحاء، وفكره فكر أمراء البيان، ومجدد في عالم نشر الكتب، لذا فإني أقدره وأحبه وأدعو له بطول العمر والبقاء. والله يجزي المحسنين.

مع الصديق الزميل
محمد عدنان سالم

أ. علي ديب مستو

تقاس الحياة برجالها وما يتصفون به من خصال حميدة، وأخلاق عالية يشار إليها بالبنان، فهم ذاكرة الأمة، والبصمة المميزة في المجتمع بأعمالهم الجليلة، وآثارهم الرائعة.

وإذ يتخصص هذا المقال عن الرجال في خدمة الكتاب؛ فإنني أقول: كان في دمشق ناشرون ومؤلفون قدّموا للثقافة والمعرفة والعلم خدمات جلّى؛ منهم الشيخ طاهر الجزائري الذي حفظ كثيراً من المخطوطات، وسعى لتأسيس دار الكتب الوطنية الظاهرية، والأستاذ أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية ومبتكر التقويم العربي الهاشمي، ويذكر الكتاب سوق الكتبيين في المدخل الغربي للجامع الأموي (المسكية)؛ حيث كانت أمثال مكتبة الشيخ ياسين عرفة، تعدّ شبه مكتبة وطنية تضم المثقفين الذين يعقدون اجتماعاتهم العفوية لتتبع الكتب الجديدة والمجلات، ومكتبة القصيباتي التي يسعى صاحبها لتلبية حاجة القراء من الكتب النادرة وغير النادرة، وعرفنا المكتبة

الأموية، ومكتبة الجامعة، ومكتبة الشرقطلي، وهؤلاء كانوا موئل طلاب المعرفة، وعرف القراء في النصف الأخير من القرن العشرين جهود المكتب الإسلامي؛ الذي اهتم بنشر ذخائر التراث، وكذلك مساهمات بشير عيون صاحب دار البيان، وعبد العزيز رباح وأحمد الدقاق - رحمهما الله - اللذين أسسا دار المأمون، ولا ننسى جهود دار الرسالة للزميل رضوان دعبول، وما صنع الأستاذ محمد علي دولة مؤسس دار القلم، أطال الله في عمره، وألبسه ثوب العافية.

هؤلاء كلهم وأمثالهم ممن لا ينساهم التاريخ إذا نسيهم الناس، ولا يفوتهم الأجر إن فاتهم الذكر، وستبقى أعمالهم خير شاهد على ما صنعوا للثقافة والمعرفة والعلم، ويبقون قدوة تحتذى.

ولما كان الحديث هنا مخصصاً عن الأستاذ محمد عدنان سالم - أسأل الله أن يمدّه بالعون والقوة - فإنني أقف لأشير إلى ما قدم في مجال المهنة؛ مهنة النشر خلال أكثر من خمسين عاماً هي عمر دار الفكر التي أسسها مع الأخوين الأستاذين محمد وأحمد الزعبي.

عرفت الأستاذ محمد عدنان سالم معرفة أوليّة عادية في مجال المهنة، إلى أن التقيته في معرض طرابلس العالمي للكتاب عام ١٩٨٥، وكان معرضاً أزعج الناشرين لتعقيدات إدارته، وصعوبة التعامل معها، ومع ذلك رأيت في الأستاذ سالم قلباً طيباً، ولطافة بالغة، وعريكة لينة، يعامل الآخرين بتواضع فُطر عليه مع مكانته وعلمه وفضله؛ ذلك لأنه كان يحمل فكراً هادفاً، ورسالة ثقافية سامية لا حدود لها، بعيداً عن الجمود والتحجر، فكان الأستاذ بعدئذ صديقاً توطدت العلاقة بيني وبينه أكثر فأكثر.

ثم ضمنا اتحاد الناشرين السوريين، ولا يخفى على أحد جهود الأستاذ في تأسيسه ورعايته، منذ كان لجنة تحضيرية إلى أن غدا اتحاداً رسمياً له قواعده وأسسه. ونعتز نحن الناشرين بأن الأستاذ ترأس الدورة الأولى للاتحاد الفتي بعد صدور قانونه الأساسي.. ولقد تعلمت منه كثيراً آنذاك، وأجزم بأنَّ أي قرار، أو رأي صائب، كان يصدر عن الاتحاد إنما يرجع إليه، ومعظم الأعضاء في المكتب التنفيذي يستمعون له، ويأخذون برأيه. تبوأ الأستاذ رئاسة الاتحاد منذ أن كان لجنة تحضيرية، حتى أصبح اتحاداً رسمياً منذ صدور مرسومه، حيث ترأس الدورة الأولى من عام **٢٠٠٦** حتى **٢٠١١** م.

وقرر أن لا يترشح للدورة الجديدة بعد أن استوى الاتحادُ على سوقه؛ ليفسح المجال للدماء الجديدة، بعد أن قدم كل ما عنده من خبرة ووفاء وإيمان بما يصنع، وبعدما تحمل الكثير من حسّاده ومناوئيه؛ الذين كانوا يعادونه من غير سبب.. وما كان يحصل من منافع من الاتحاد صغيرة أو كبيرة؛ ولذا فقد قرر الناشرون في المؤتمر الانتخابي الثاني انتخابه رئيساً فخرياً لقاء ما قدم.

ولقد نقل الأستاذ خبرات طويلة من عمله في مهنة النشر، منذ بداية عام **١٩٥٧**، ومن ثقافته وفكره إلى الاتحاد.. وكذلك من خبرته التي اكتسبها من منصبه حين كان نائباً لرئيس اتحاد الناشرين العرب، في دوراته الأربع، بين عامي (**١٩٩٥**) و (**٢٠٠٦**)، ورئيساً للجنة الملكية الفكرية فيه، وفي هذه السنوات توطدت العلاقات أكثر بيني وبين الأستاذ؛ إذ كنت آنذاك عضواً في الاتحاد منتخباً عن سورية.

وكان اهتمام الأستاذ بالثقافة والكتاب طوال وجوده في رئاسة اتحاد الناشرين السوريين؛ منذ كان لجنة تحضيرية إلى نهاية الدورة الانتخابية الأولى منه؛ فعمل على تجسيد الاحتفال باليوم العالمي للكتاب (**٢٣** نيسان من كل عام) الذي اعتمدته اليونسكو؛ بما في ذلك طبع النشرات واللصاقات، وتوزيع المهام على المهتمين بالثقافة...

وكان طموحه أن يحظى هذا اليوم بالاهتمام كباقي المناسبات؛ مثل عيد الأم، وعيد المعلم، وعيد الشجرة؛ ذلك لأن الكتاب أداة نشر المعرفة، ورقي الأمم، وتنوير المجتمعات، وإغناء مخزونها الثقافي الإنساني في سبيل النهضة والازدهار.

ولحرص الأستاذ على أن يكون لهذا اليوم العالمي أبعاده الصحيحة؛ كان يعمل على أن يكون هذا اليوم مهرجاناً ثقافياً عاماً، وتظاهرة إعلامية شاملة تشترك فيها جميع الشرائح العمرية في مختلف الأصعدة الاجتماعية والتنظيمات المهنية، والمؤسسات الفردية والعامة... في البيوت والشوارع والمدارس والمعابد... في أماكن العمل والراحة، في الحدائق والمتنزهات... في وسائط النقل وأماكن الانتظار. المهم أن الأستاذ كان يقترح خطة فعالة لتستأنف أمة اقرأ قراءتها؛ التي رفعتها في سلّم الحضارة. وكان من مقترحات الأستاذ في يوم الكتاب ما يأتي:

- يلقي كل وزير أو مدير كلمة بهذه المناسبة في موقع عمله.
- دعوة المراكز الثقافية الوطنية والأجنبية إلى تزيين مراكزها، وإعداد برامج خاصة بما فيها الندوات، والمسابقات، والمهرجانات.

- دعوة الكتّاب العرب للإسهام بأقلامهم وندواتهم من أجل إحياء المناسبة.
- دعوة الكتّاب لزيارة المكتبات العامة والخاصة، والتعريف بأنفسهم، والتحدث إلى الزوار، والتوقيع على كتبهم.
- دعوة اتحادات الطلبة للاحتفال بالمناسبة على طريقتهم.
- التنويه بالمناسبة في كلمة الصباح بالمدارس.
- تخصيص حصة دراسية عن أهمية القراءة.
- تخصيص حصة لمكتبة المدرسة، وإتاحة الفرصة للإفادة منها.
- تنظيم زيارات الطلاب الدورية للمكتبة الوطنية.
- دعوة وسائل الإعلام للاهتمام اللائق بالمناسبة.
- دعوة خطباء المساجد للحديث عن المناسبة في خطبة الجمعة.
- إعداد مطويات عن المناسبة، وتوزيعها في وسائل النقل البرية والبحرية والجوية على المسافرين.
- قيام الناشرين وأصحاب المكتبات بنشاطات متميزة طوال الأسبوع؛ الذي يتضمن اليوم العالمي للكتاب **٢٣** نيسان/ أبريل.
- إقامة معرض مميز للكتاب بهذه المناسبة، ينظمه اتحاد الناشرين.

ويمكن أن أجمل فكر الأستاذ وتوجهاته خلال مسيرته بما يأتي:

- الاهتمام بثقافة المجتمع، والحث على القراءة.
- احترام الرأي الآخر، مع الإيمان بالحرية الفكرية المطلقة.
- الاهتمام بالطفولة والشباب، والإيمان بأن المستقبل لهم.
- التحذير من الجمود على حالة واحدة بعيداً عن التطور.
- رفع الوصاية عن القارئ.
- الانتقاء من ثقافة العصور السابقة (المخطوطات) ما يفيد الحاضر من أجل التطلع إلى مستقبل مشرق.
- تبني فكر مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري في تجاوز التخلف الذي يعاني منه المسلمون، للوصول إلى دورة حضارية جديدة.
- محاربة الثقافة التي تعتمد الآبائية، والأحادية، والنخبوية.
- الوقوف مع الحق والعدل ضد الظلم (مثال دعوة الأستاذ إلى الخروج استنكاراً ضد التواطؤ الدولي تجاه مجازر غزة عام ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩ وإصدار بيان في ذلك).
- العمل الجماعي المؤسساتي هو ما ينبغي أن تقدم عليه الأمة المتحضرة، وهذا نصه (وقد سماه دستور العمل الجماعي):

١- الفرد والجماعة معاً؛ لا غنى لأحدهما عن الآخر: «فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».



محمد عدنان سالم يلقي كلمة الناشرين استنكاراً لمجازر غزة

٢- الجماعة البشرية ليست قطيعاً؛ فلكل فرد فيها شخصيته المميزة: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٣٤/٤٦].

٣- الفرد في الجماعة عضو فاعل له رأيه، وليس إمَّعة لا رأي له: «لا يكن أحدكم إمعة؛ يقول: إن أحسن الناس أحسنتُ وإن أساؤوا أسأتُ».

وما أنا إلا من غُزَيَّة إن غوت غويْتُ وإن ترشد غُزية أرشُدِ

٤- الاختلاف والتنوع قاعدة الخلق البشري، والتماثل شذوذ عنها: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١/١١٨]،

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢].

٥- الاختلاف والتعدد في المجتمع؛ تكاثر ونماء، والتفرد فيه أحادية تؤول به إلى الفناء.

٦- الاختلاف قيمة إيجابية تنقلب إلى ضدها إذا أفضت إلى التنازع: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٦].

٧- لا أحتكر الحقيقة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري المختلِف خطأ يحتمل الصواب» [الإمام الشافعي].

٨- الآخر المختلف مرآتي التي أرى بها عيوب وجهي، فإن رُمتُ الكشف عن عيوب ظهري احتجت إلى مرآتين.

٩- الحوار أداة الباحثين عن الحقيقة والتكامل مع الآخر، والجدل أداة الباحثين عن التفرد ونفي الآخر.

١٠- الاحترام المتبادل؛ أحد الشروط الكبرى التي توفر المناخ الملائم للحوار المثمر.

١١- الحقيقة ضائعة شَرود، نقضي أعمارنا باحثين عنها، لاهثين وراءها؛ ما إن نمسك بطرف منها، حتى تتراءى لنا حقيقة أخرى أنصع بياناً، وأقوى حجة، فنتوجه إليها.

١٢- المعارضة وتعدد وجهات النظر؛ سبيلنا للكشف عن الحقيقة، والأخذ بها، وليست هدفاً بذاتها نتذرع به للتشبث بالرأي، ورفض الآخر.

١٣- كل المجتمعات الناهضة ترتب أولوياتها لتبدأ بالمتفق عليه لتنميته، وتؤجل المختلف عليه لإنضاج رؤاها حوله، وتعمل المجتمعات المتخلفة على العكس من ذلك، فتبدأ بالمختلف فيه لتتشاكس، وتتناحر، وتهدر طاقاتها بالمهاترة حوله.. تلك سنة التاريخ.

١٤- «نتفق فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».. هذه هي القاعدة الذهبية التي تتقدم بها الجماعات، وبضدها تتخلف وتنهار.

١٥- ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

١٦- التوتر العالي يصعقك؛ فإذا أنت خفَّضته إلى المستوى الملائم، أدار لك العجلة، وأنار لك الطريق!!

وأخيراً

فهذا ما عرفته خلال العمل المهني، والصداقة التي جمعتني بالأستاذ محمد عدنان سالم.

أقدم له كبير الاعتبار والأمنيات الطيبة.

محمد عدنان سالم
صداقة وذكريات

أ. فاروق الطباع

نشأ الأستاذ محمد عدنان سالم في بيئة متميزة؛ فوالده الحاج حسن عبد القادر سالم أحد المغتربين العائدين إلى وطنهم بدافع الحفاظ على دينه وبيئته التي كان قد نشأ فيها؛ فهو أحد أبناء القلمون المكافحين، الذين انتشروا في أنحاء الأرض يبتغون من فضل الله، وفور عودته إلى دمشق، وجد في نشاط حركة الداعية المرشد الشيخ علي الدقر الأمل المنشود؛ فالتحق بها وتحمس لها، فكان من المقربين للشيخ ونشاطه الدعوي والداعمين لهذه الحركة مادياً ومعنوياً؛ من النوادر اللطيفة أنه سمع أن صديقه أحد تجار العصرونية شكى مرة من «حزازة» في وجهه - مرض جلدي - فنُصح باستشارة الشيخ عبد الحميد الطباع أحد تلاميذ الشيخ علي الدقر والذي كرس وقته وجهده لدعم حركته بجمع التبرعات، وله أساليب طريفة في هذا السبيل فقال له إن هذا سيكلفه التبرع بليرتين يدفع واحدة فوراً والثانية بعد الشفاء؛ اعتقاداً بحديث شريف عن النبي ﷺ «داووا مرضاكم بالصدقة»، وبالفعل فقد نفذ ذلك وتم شفاؤه؛ وكان الحاج حسن

يشكو مثله من حزازة في وجهه أثرت على لحيته؛ ولما سأل صديقه عن طريقة معالجة ما أصابه أخبره بما جرى معه، فسأل الشيخ عبد الحميد ماذا يفعل ؟ فقال له إنه سيكلفه ثلاث ليرات، فقال له: لقد دفع فلان ليرتين، فأجابه: أنت مغترب وإمكانياتك أفضل، فقبل بذلك وتم شفاؤه.

تزوج الحاج حسن من أسرة دمشقية متدينة ومتأثرة بحركة الشيخ علي الدقر، وأكرمه الله سبحانه بمولوده البكر وسماه محمد عدنان، فرعاه أحسن رعاية حتى إذا بلغ سن المدرسة أدخله مدرسة سعادة الأبناء الابتدائية، إحدى مدارس الجمعية الغراء لتعليم أبناء الفقراء، التي يرعاها ويرأسها المرحوم الشيخ علي الدقر، والتي كانت تعد من أشهر مدارس دمشق وتحظى بسمعة تسابق المدارس التبشيرية كالفرير والفرنسيسكان من حيث الاهتمام بتلاميذها علماً وتربية، وكان تلميذاً متفوقاً يتمتع بذكاء متميز، وأنهى دراسته الابتدائية فيها وهو أصغر تلاميذها سناً، وبعد اجتيازه امتحانات الشهادة الابتدائية بنجاح وتفوق؛ قام والده بإجراءات تسجيله في (التجهيز الأولى) كما كانت تسمى آنذاك، ثم أطلقوا عليها ثانوية جودة الهاشمي فيما بعد؛ وكان يشار إليها بالبنان؛ إذ خرَّجت معظم النخب التي كانت تقارع الاستعمار الفرنسي وتتأهب لإدارة الدولة والمجتمع بعد رحيله. وينقل الأستاذ عدنان سالم عن والده فيقول: «بعد أن أتم والدي إجراءات تسجيلي خلا بي ليضع في يدي وثيقة تسجيلي في تلك الثانوية، وليسرَّ إليّ بسرٍّ ظل دفيناً في صدره كل هذه الأعوام؛ فقال: كنت - عندما رزقني الله تعالى بك - قد دعوت

الشيخ علي الدقر وتلاميذه لعقيقتك، وكان يوماً مشهوداً؛ علت فيه أصوات المنشدين بالمدائح النبوية، والكلمات الإرشادية، والأدعية الربانية؛ ولفرط تأثري بمشهد طلبة العلم المعممين قلت للشيخ عند وداعه: أشهدك أني قد نذرت ولدي هذا للعلم الشرعي؛ فكان هذا نذري الذي يلزمني ولا يلزمك؛ فإن شئت أن تمضيه لي فأنت بالخيار وهذه وثيقة تسجيلك في التعليم العام بيدك. قلت لوالدي على الفور: بل أنفذه وأعدُّ نذرك نذري؛ فلم أر بعد ذلك في حياتي أكثر بركة ونجاحاً من هذا الخيار؛ وفقني الله تعالى فيه للجمع بين الحسنيين وزيادة».

لقد تصرف تصرف الابن البار، وهذا حصيلة التربية المنزلية والمدرسة التي نهل منها ومن أساتذتها تلامذة الشيخ الدقر تلك الروح الوثابة والمطيعة والمحبة.

انتسب إلى معهد العلوم الشرعية العائد للجمعية الغراء، وتلقى العلوم الشرعية على يد تلامذة الشيخ علي الدقر الذين تربوا على يديه خلقاً وعلماً ومنهجاً؛ حيث سلك طريقاً يحجبه عن رفاق السوء واتبع منهجاً متميزاً وكان من المتفوقين؛ واستطاع بذكائه وحبه الاطلاع وتوسيع دائرة معرفته؛ أن يجمع إلى جانب دراسته منهج العلوم الشرعية الإسلامية التوسع في الاطلاع على منهج العلوم الكونية. تقدم إلى فحوص الشهادة الثانوية العامة ونجح فيها قبل أن ينهي دراسته في المعهد الشرعي، وانتسب إلى كلية الحقوق في جامعة دمشق جامعاً بينها وبين دراسته في المعهد الشرعي. وكان ذلك نقلة مهمة أسهمت في تحريك طريقة تفكيره، حيث جمع بين طريقة

المعهد الشرعي الذي كان يسلك فيه الشيوخ الطريقة التقليدية في تقرير الدرس، والتقيد بكتب المنهج وشرحها والتفصيل فيها؛ إلى أفق جديد في البحث الذي ينهجه أساتذة الجامعة.

في هذه المرحلة تعرفت بالأستاذ محمد عدنان سالم عن قرب؛ فقد نشأت نشأة مشابهة، ودرست في المدارس نفسها التي درس فيها، وعند نفس الشيوخ تلقيت العلم؛ وبحكم الجوار فقد كان له تأثير كبير علي كأخ يكبرني سناً وعلماً وفضلاً، وفي نشاطه الدعوي حيث جمع مجموعة من شباب الحي، فكان له تأثير مهم في سلوكهم؛ فهو الأخ الأكبر الذي يتميز بالتواضع والإيثار، يغرس فينا بناء شخصية متفتحة اجتماعية تحب الخير والتعاون على البر والتقوى؛ ننطلق إلى صلاة الفجر ونخرج بعد الصلاة لنقوم بنشاط رياضي نتسلق فيه الجبال، لبناء جسم سليم قوي يتخلله الحوار الذي يعرفنا بمنهج الدعوة إلى الله بعقول متفتحة متحررة، نبحث عن الحق دون التعلق بالأشخاص، نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال، نناقش كل ما نتلقاه ونحكم فيه عقولنا في ضوء شرع الله. فغرس فينا حب المطالعة والإكثار من القراءة ومناقشة ما نقرأ.

لقد صحبته في الحل والترحال؛ كثيراً ما كنا نقوم برحلات كشفية نعيش فيها معه حياة التقشف والعبادة والرياضة والثقافة بجميع أنواعها دينية واجتماعية وفكرية؛ حياة جميلة تملأ فراغنا بما ينفع وتعصمنا عن رفاق السوء. كان ذلك مطلع الخمسينيات من القرن الماضي وأذكر في صيف عام **١٩٥٣**، خلال رحلة كشفية تعرضت فيها لكسر في ساقي ألزمني البقاء في داري، لمست في هذه الفترة

أهمية وقيمة الأخوة التي جمعت بيننا، وكان لزياراته لي في منزلي، يتفقد أحوالي ويقدم لي فيها مجموعة من الكتب التي اختارها لي أملأ فيها فراغي بما ينفع، فقد كان هذا ديدنه في غرس حب المطالعة.

كان يدربنا على العمل التعاوني؛ فأنشأنا صندوقاً توفيرياً نجمع فيه من مصروفنا، ثم ننفق منه لدعم المحتاج منا عن طريق القرض الحسن.

كان لوالده محل تجاري في سوق العصرونية لتجارة الجلديات، وكان يساعد والده، إلا أن آفاق تفكيره وحبه الاطلاع وعلاقاته الثقافية والاجتماعية والدعوية، جعلت من هذا المحل مركزاً للقاء الأحبة والمدارسة؛ فلم يكن يجد في عمل والده مبتغاه؛ فاتجه إلى التفكير بعمل يسعى فيه إلى نشر الثقافة والتربية الحسنة، فأسهم مع مجموعة من الشباب بتأسيس مدرسة إعدادية وثانوية باسم ثانوية دار الفكر وإلى تأسيس دار للطباعة والنشر باسم دار الفكر، وكان بعد ذلك أن أسهموا في نشر كتاب بعنوان (الاستعمار الفرنسي في إفريقيا السوداء) عام ١٩٥٦، وهو الكتاب الذي يصور فكرة عن حاضر العالم الإسلامي، وطريقة الاستعمار لغرس الفرقة بين أبنائه واستغلال بعض الطرق الصوفية التي كان لها فضل في نشر الإسلام بين الوثنيين في إفريقية، ليُبعدهم عن طريق الدعوة والانغلاق في الصوامع دعماً لمشروعات الاستعمار التبشيرية، وأذكر أن الصندوق التعاوني الذي اشترك فيه مجموعة من الإخوة كان أحد المشاركين في تمويل هذه الدار. وفي عام ١٩٥٩ اختص الأستاذ عدنان سالم وشريكه الأستاذ محمد الزعبي بمؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر.

لم يكن هدف هذه الدار مادياً بقدر ما هو مشروع يسهم في نشر الثقافة وغرس حب القراءة والمطالعة؛ تفرغ الأستاذ عدنان لهذا العمل وأعطاه جهده وطاقته، فهو العمل الذي ينسجم مع أفكاره وتطلعاته من الدعوة إلى الله عن طريق نشر الثقافة وآفاق المعرفة إلى أوسع الدوائر في هذا العالم الواسع؛ فاهتم بنشر التراث من تفسير كتاب الله والفقه والحديث؛ فأعطى لذلك جهده في إعداد مجموعة من العلماء والمثقفين للتحقيق والتدقيق، ووسع دائرة نشاطه لتشمل جميع جوانب المعرفة.

مهنة أحبها ووافقت هواه وحققت أمنيته في أن يكون داعياً إلى الله سبحانه، يدعو جميع الناس إلى خيري الدنيا والآخرة، بأسلوب حضاري متطور منسجم مع كتاب الله بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١]، رأى في هذه المهنة الطريق الأسلم لتحقيق أهدافه؛ فأعطاها جهده واستمر في اجتهاده لتطوير عمله؛ بدءاً من مطبعة بسيطة يدوية وحروف تجمع حرفاً حرفاً، إلى إنشاء مؤسسة متطورة تستخدم أحدث التقنيات في الطباعة، ومنهج إداري جعل من مؤسسته مهوى المفكرين والمثقفين، وشجع الحوار الفكري والثقافي في أعلى مستوياته، واستطاع أن يستخرج من عقولهم أجمل الأفكار؛ واستطاع في فترة من الزمن أن يتفوق على معظم دور النشر في العالم العربي والإسلامي. أحدث فروعاً عديدة في عدد من البلاد العربية، وشارك في معظم معارض الكتاب في العالم العربي والإسلامي، وكثيراً ما كان يدعو على هامش هذه المعارض إلى

الندوات الفكرية المثمرة والمنتجة، حتى أصبح يُنظر إليه وإلى مؤسسته بالبنان.

حصل على عدد كبير من الجوائز، وإن لم يكن هذا هدفه الأساس، كما لم يكن هدفه جمع الثروة وتكنيزها، بل كان يطورها وينميها لتحقيق غايته الأساسية؛ نشر المعرفة والثقافة إلى أوسع شريحة من الناس بأيسر السبل وأقل التكاليف، كما لا يغفل عن أناقة ما ينتج، واستخدم طرقاً حديثة ومثمرة لتنمية حب المطالعة ونشر الثقافة إلى جميع الناس، ويستطيع القارئ أن يطلع على قوائم إنتاج هذه الدار وتنوعها وطرق حصوله عليها.

لاحظ الأستاذ عدنان ما يعانيه إخوانه أصحاب دور النشر من صعوبات روتينية تارة، وتأمين مستلزمات الإنتاج تارة أخرى، وتأمين الشحن وغيره من المتاعب، فوضع يده مع أيديهم لإنشاء اتحاد للناشرين السوريين، واستطاع بسعة أفقه وهدوئه، وعلاقاته الاجتماعية والثقافية في لقاء المسؤولين والمتابعة والاهتمام إنشاء هذا الاتحاد، وأذكر في ذلك محاولته مع غرفة تجارة دمشق، والجهد الذي بذله لإيجاد لجنة تابعة للغرفة عندما كنت عضواً في مجلس إدارة الغرفة؛ لتحقيق مطالب دور النشر، وما زال يتابع نشاطه إلى أن استطاع بالتعاون مع عدد من أصحاب دور النشر أن يحققوا آمالهم ويتحقق الاتحاد، وينتخبوه أول رئيس لاتحاد الناشرين السوريين، وأراد بعد ذلك أن يفسح المجال لغيره، هذا ما أعرفه عن هذا الأخ الكبير المتواضع والمضحي، همه تعميم الخير والنفع وبناء القدرات ودعمها بعيداً عن حب الذات

والأنانية، هذا هو الشخصية التي عرفتها فيه منذ ما يقرب من ستين سنة لم يتغير ولم يتبدل إلا نحو الأكمل والأفضل، دون أي انحراف أو تبدل ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣]، منهج واضح استمر عليه طيلة حياته بارك الله له فيه وأدام نفعه. وكافأه الاتحاد تخليداً لجهوده المثمرة باعتباره رئيساً فخرياً له بتوصية المؤتمر الانتخابي الثاني المنعقد في تاريخ ٢٣/ ٥/ ٢٠١١.

الأستاذ المفكر
محمد عدنان سالم
جهود مميزة وجادة
في عالم الفكر

د. أيمن عبد الرزاق الشوا

«معرفة إنسان في دقة وتعمق - وبخاصة إذا كان هذا الإنسان شهيراً مؤثراً - أمر جليل في ذاته جدير بكلٍّ اهتمام»

(سانت بيف)

إن دراسة الشخصية الكبيرة ومحاولة فهمها كسبٌ في ذاته يستحق أن تحرص عليه.

لا يخفى على أهل العلم، حتى المبتدئين منهم، ما قامت به دار الفكر - وتقوم - من جهود ضخمة مباركة بالبحث عن كنوز حضارتنا وإغناء المكتبة العربية الإسلامية والمعاصرة بما تشكو من نقص في ميدان الدراسة الحديثة المتعلقة بالفكر والحياة.

ووراء هذه المؤسسة العلمية الهادفة، جهود مخلصة متكافئة سرُّ

نجاحها التفوق والإخلاص والدقة والغيرة. ومن أبرز أصحاب هذه الجهود التي عرفناها الأستاذ محمد عدنان سالم.

إن قيمة المفكر الأستاذ محمد عدنان سالم في أنه يحاول جاهداً أن يقدم نتاج المثقفين العرب، بصرف النظر عن مواقعهم على خريطة الوطن العربي، وقد تجلى فكره النير في مجالات عديدة، رأيت من الوفاء أن أعيش مع القارئ الكريم في بعض محطات هذه المجالات؛ ففيها إن شاء الله أكثر من معنى وأكثر من رمز. وهذا العمل جزء من واجب الأمة تجاه أعلامها ومثلها العليا:

١- سر النجاح والتفوق.

٢- الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي.

٣- الغيرة على ثقافة المجتمع.

٤- التجديد الثقافي.

٥- الأمل والعمل.

٦- جهود في عمل دور النشر وسعي في خدمة الكتاب.

٧- وثمة محطات تستحق وقفات طويلة أمام الكتب المهمة التي ألفها الأستاذ محمد عدنان سالم، وهي من أنفع الكتب لتأسيس قاعدة علمية عند القارئ المبتدئ، وترسيخ الدراسة لدى القارئ المتوسط.

أذكر من هذه الكتب:

* القراءة أولاً.

* هموم ناشر عربي.

* الكتاب وتحديات الثقافة على مشارف القرن الحادي والعشرين.

* الكتاب في الألفية الثالثة، لا ورق ولا حدود.

وهذه الكتب تحتاج إلى عرض وتفصيل بصورة مرضية لا يتسع له هذا المجال.

١- سرُّ النجاح والتفوق:

لما بلغ الخليفة المعتصم النجاح والتفوق في حياته بيّن له الشاعر أبو تمام ذلك فقال:

ظفرت بالراحة الكبرى فلم ترَها تُنال إلا على جسر من التعب

والنجاح والتوفيق الذي حققه - ويحققه إن شاء الله - أستاذنا محمد عدنان سالم وراءه مبادئ وأسس مهمة، لو طبقناها جميعاً لعشنا حياة السرور والنجاح. ومن جملة هذه الأمور التي أعرفها:

١- قيم ومثل عالية، سلوكاً وتعليماً.

٢- رعاية الحقوق وأداؤها إلى أصحابها.

٣- احترام الزمالة والحرص على مصالحها.

٤- الدفاع باستمرار كي لا يصبح الحق باطلاً والباطل حقاً.

٥- رسالته رسالة الأديب العربي في فكره ومنهجه وعلمه وغيرته على اللغة العربية، لما فيها من الأسس النافعة لتكوين ثقافة طالب الأدب العربي.

٦- رسالته رسالة المفكر العربي المعاصر الذي تمثل أصول الحضارة العربية الإسلامية، فاستوعبها وأراد تقديمها بثوب جديد.

٧- رسالته رسالة ابن خلدون الذي أراد بناء مجتمع علمي راسخ ينشد فيه الثقافة العالية. مردداً شعار «أكثر الناس كرامة أكثرهم قراءة».

٨- المحافظة على الوقت والدأب على العمل المتقن. مردداً شعار «أتقن عملك تنل أملك».

٩- الغيرة والمثابرة على العمل النافع الدائم، وهو في هذا مثال للإداري الناجح الكفء، النشيط، الذي لا يفتر عن العمل والتوجيه لتقديم النصح سواء في مكتبته أم في المكتبات التي يتصل بها، مرشداً وناصحاً.

١٠- وكم كان يغضب على من عَلِم أنه أساء أو يسيء في عمله، ويؤثر عليه الخمول والدعة واللامبالاة، وخاصة في مجال التأليف والتصنيف، الذي هو في نظره من أعلى الرسالات وأهمها للناس ولسان حاله ينشد:

وكم تجرعت من غيظ ومن حزن   إذا تجدد حزن هون الماضي

وكم غضبت فما باليتم غضبي   حتى رجعت بقلب ساخط راضي

٢- الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي:

عهد معظم الدارسين الباحثين والمثقفين أن دار الفكر كانت تحرص في شخص الأستاذ عدنان حرصاً واعياً على ألا يصل الأمر بالأجيال القادمة، تحت وطأة المتغيرات المستمرة في أساليب حياة الناس وطرائق معيشتهم، إلى نسيان تراثهم وفكرهم وحضارتهم الإنسانية، بل لابدَّ من ترسيخ أصالة أمتنا العربية والإسلامية.

لذلك كانت بوادر الأستاذ عدنان - حفظه الله - الاهتمام بإحياء الكتب التراثية التي هي ثمرات من الحضارة العربية الإسلامية، وفي يقينه أنها أمانة مقدسة، لا بدّ من حملها إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وهذه الكتب متنوعة في الفقه والحديث والتفسير والأدب واللغة والنحو والفن والعلوم المختلفة. ونلمس ذلك في معارض الكتاب المتعددة سواء في سورية أم الدول العربية الأخرى، حتى في المحافظات والقرى.

كما أراد الأستاذ أن تكون الكتب المعاصرة ثمرة للتزاوج بين الحضارة الأوربية وإنجازاتها العلمية والفكرية الحديثة، وبين العقل العربي المسلح بالتراث الإسلامي الأصيل.

وفي قناعته التي يدافع عنها ويبث جزئياتها أنه: ما عرف أهل الكتاب الحضارة العلمية إلا من خلال حضارة الإسلام إذ كانوا قبله في تخلف وجاهلية.

٣- الغيرة على ثقافة المجتمع:

وجه الأستاذ المفكر عدنان سالم جهوده للنهوض بالمجتمع نحو الحضارة والسمو، منطلقاً من دراسة واقع المجتمع العربي من جهة دوافع الغرب الحضاري، منطلقاً من مبادئ أهمها، أنه إذا أردنا أن نقف على التحديات الحضارية المعاصرة أو المستقبلية؛ فلا بدّ من وقفة نراجع من خلالها ونقوِّم مؤسساتنا الثقافية، لنصحب فيها مراكز الثقافة ودور النشر وأدواتها ومناهجها وقدراتها وطاقاتها لمواجهة التغييرات، فنبين عناصر الإيجاب التي اكتسبتها، وننبِّه على أوجه السَّلب والقصور وبيان أسبابها في محاولة للخروج منها، وتصحيحها وتقويمها لتعتدل وتستقيم في وجه التحديات المتتالية.

وأطلع الناس جميعاً على سلبيات يجب معرفتها وتجنُّبها، وقد اكتشفها وعرفها من اطِّلاعه الواسع على ما يكتب عن ثقافتنا وأدبنا وتاريخنا وحضارتنا، منها:

١- الانسلاخ عن الهوية العربية، بمعنى التنكر للأصول والمقومات الحضارية التي تبنى عليها الأمة.

٢- التبعية العمياء للغرب وتعني استيراد ثقافة جاهزة من الغرب، ومحاولة استنباتها في بيئة تختلف عن بيئة الغرب.

٣- الانسلاخ من الأخلاق، ويعني نبذ القيم ونشر ثقافة المجون والفجور.

٤- القدوة السيئة.

٥- محاربة الإسلام وأهله من قبل المستشرقين وغيرهم.

٦- الاستبداد والتسلط، ويعني التشدّق بالحرية واحترام حقوق الإنسان وإهمال ممارستها وهي في نظر الأستاذ من أخطر الأمور على حضارتنا. وقد تصدى لهذه الأمور غير باحث من الباحثين العرب وغيرهم. وأبرزوا أصالة حضارتنا وسموّها وخلودها.

٤- التجديد الثقافي:

المطالعة الدائمة لأهم آثار الحضارة والفكر وجّهت الأستاذ نحو السعي إلى التجديد الثقافي لأنه سنة الحياة وقانون الطبيعة، ولا يمكن دوام البقاء على التقليد، فمن الواجب القيام بالتجديد والإبداع في هذا الجديد، لتطوير الواقع الأدبي والفكري وتغييره، بمعايير وشرائط متوافرة، وطرائق مختلفة.

ورأى أن الثقافة الفكرية دعوةٌ مستمرة إلى المعرفة والفهم والاطلاع بما يعود على جميع مجالات الحياة الإنسانية بالتنوير والتطوير والإبداع...

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها اهتمامه بطبع كتب كبار المفكرين في العالم الذين حرصوا على حفز الهمم نحو الرقي والسمو والتجدد في ميادين الفكر كافة، والتواصل مع الحضارات السامية. قال المفكر الكبير مالك بن نبي - رحمه الله -:

«إن المشكلة عند كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة؛ ما لم يرتفع بفكره إلى

الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن»[١].

٥- الأمل والعمل:

أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرقبها ما أضيقَ العيشَ لولا فسحَة الأملِ

ما أروع الأمل وما أجمله من فلسفةٍ، فإذا ساد بين أفراد المجتمع خيمت عليه السكينة وانتشرت الألفة والمحبة بين جنباته، وبه يصبح المجتمع كالبستان المثمر، وينعم في ظله بالأمن والسكينة ويظهر فيه الاهتمام بالعمل الجاد.

هذا جزء من منهج الأستاذ المفكر عدنان، كان يبثه بين أصدقائه ويكرره في أحاديثه، يستاء من أصحاب الخمول والدعة ومن امتلك قدرة فكرية فكتمها عن أهل النفع. لذلك كانت مبادراته الدائمة على تشجيع الإنسان العربي على الثقة بنفسه، والثقة بأمته وحضارته، وحثه على الإبداع والعطاء، والكشف والابتكار من خلال إحياء التراث العربي الإسلامي الذي يحمل أصولنا الثقافية، وملامحنا الحضارية المميزة. والإحياء الذي يريده هو: إحياء يجعل الماضي دافعاً وحاضراً إلى مواجهة الحاضر وصناعة المستقبل.

(١) شروط النهضة: مالك بن نبي، ط دار الفكر عام ١٩٨٧ م، ص ٢٠.

٦- جهوده في عمل دور النشر وسعيه في خدمة الكتاب:

للأستاذ محمد عدنان سالم - حفظه الله - جهود واسعة في مجال عمله (رئيس اتحاد الناشرين السوريين، نائب رئيس اتحاد الناشرين العرب، رئيس اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية).

والقارئ المتتبع لمعرض الكتاب العربي بدمشق منذ دورته الأولى يدرك نشاط دار الفكر. وهذا النشاط لم يقتصر على دمشق، وإنما كان له الأثر البارز في معارض الكتاب العربي في كل الأقطار العربية.

هذا وإن كان الموضوع يتعلق بأمر فيه بيع وشراء، فالمهم أن أعرض للقارئ الكريم الأفكار المهمة التي يوجهها الأستاذ عدنان سالم في كل مجتمع فيه حديث عن الكتاب وأهميته، وأرى أنها نابعة من قلب محب غيور، من ذلك:

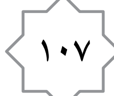
١- حرية انتقال الكتب بلا حدود وإزالة العقبات أمام انتقال الكتاب.

٢- حماية حقوق الملكية الفكرية والدفاع عن حقوق الناشرين.

٣- مشروعات النشر الإلكتروني.

٤- إقامة هيئة تنسيقية بين إدارات معارض الكتب العربية.

٥- الاهتمام بكتب الأطفال، لأنها الأسس والاستثمار الحقيقي للمستقبل.



٦- مواكبة المتغيرات العالمية مثل: الكتاب الرقمي، تطوير اقتصاديات المهنة، تنوع الإنتاج المعرفي، العناية بالموسوعات.

٧- الجوائز ومسيرة تشجيع الإبداع، استطاعت هذه الفكرة أن تسهم في دعم مسيرة الفكر، وخلق بواعث حقيقية لمزيد من العطاء في جميع المجالات المختلفة.

٨- مطالبة الناشرين العرب بالعمل الجاد والمستمر للارتقاء بمستويات القراءة في العالم العربي.

٩- أهمية مواكبة الناشرين العرب حركة النشر العالمية المتصاعدة باستمرار.

١٠- حرية النشر في العالم العربي.

هذا ولا يمكننا أن نعتبر ظهور هذا الكتاب إلا مظهراً من مظاهر الوفاء للأستاذ محمد عدنان سالم، أحد أعلام هذه الأمة، اعترافاً بريادته وتفوقه.

كلٌّ يجود بما لديه فما النَّدى   وقفا على من يجزلونَ عطاء

لا تنهض الأوطان من كبواتها   إلا على أيد تفيض سخاءً

ولعل هذا خير ما يكرم به الأديب وتكرم به آثاره. بارك الله لنا بحياة الأستاذ محمد عدنان سالم ذخراً ثميناً للعلم والعلماء.

كما يأتي هذا الكتاب ضمن حلقة ممتعة نافعة من السلسلة التي بدأ بها أهل الإخلاص والوفاء عن العلماء المكرمين، وفيها إن

شاء الله الفوائد الجليلة، والأبحاث القيمة، التي يستحق عليها الشكر والثناء الجزيل.

أسأل العلي القدير أن يلهمنا جميعاً الصواب ويؤتينا الحكمة وفصل الخطاب.

فإلى القراء الكرام هذه النماذج من سيرة أحد أعلام أمتنا في العلم والفكر، تبعث روح العمل والأمل فينا.

فإن الشعر يعشق من تساموا ونالوا ذروة الدنيا طماحاً

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب.

٦ رمضان ١٤٣٢
٦ آب ٢٠١١

قراءة في فكر محمد عدنان سالم

د. محمد وهبي سليمان

الحمد لله الأكرم الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

إنه من الصعوبة بمكان أن يحاول المرء في صفحات محدودة أن يجول في زاوية من فكر الأستاذ محمد عدنان سالم، فلا يمكن لكلمات محدودة أن تحيط بكل هذا المجهود الكبير الذي بذله، ولا يمكن لجمل ولا لكلمات ولا للحظات أن تختصر مساراً حافلاً في حياة فكرية ومهنية تركت بصماتها على جدار زمن الفكر الإنساني الإسلامي.

إننا أمام رجل بذل الكثير ليرفع اسم مؤسسة دار الفكر التي آمن برسالتها، وعمل لأجلها، وخطط وكتب وقدم من خلالها فكر رجالات كبار، حتى أضحت دار الفكر اسماً لا تستطيع أن تتجاهله، وصنع منها مؤسسة آلت على نفسها أن تأتي دائماً بكل جديد؛ مما أبدعه وخططه كتَّابها ومفكروها على مستوى رقعة العالم

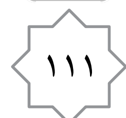
الإسلامي، لتعرضه للقارئ في ساحة الفكر وميادين العلم، حتى أضحى عدد كبير من القراء يقصدها بعينها، فما إن يروا كتاباً مذيلاً باسمها وشعارها إلا وبادروا إلى اقتنائه، وكلهم ثقة أنهم سيقرؤون فكراً جديداً لم يقرؤوه من قبل.

هذا بعض من مهنية هذا الرجل.

أما إذا انتقلت لأجول في بعض ساحات فكره الفسيحة الواسعة، لأقدم قراءتي في فكر طالما حمله، ونادى به، وعمل لأجله، فإنك ستجد نفسك أمام رجل تمنى لو تكون الأمة كما كانت في غابر زمانها يوماً، ويعاد تشكيلها من جديد؛ لتكون قادرة على تجاوز حالة اليأس والاستسلام لمصير مجهول؛ يراد لها وتدفع إليه .

التجديد والنخبوية

كانت له كتابات ومحاضرات وأفكار حاول من خلالها أن يساهم في تحقيق ثقافة الأمة، وإحياء وعيها الحضاري، وتحريك إمكانات التجديد ومقوماته، وتحرير مفهومه، وتحديد مصطلحه، وتنمية المسؤولية بهذا التجديد عند كل مسلم، وعند كل إنسان، وليس عند فئة خاصة دون أخرى، ليمارس كلٌّ دوره بالقدر الذي يستطيع، ومن خلال الموقع الذي هو فيه، ليصبح التجديد ثقافة عامة؛ لكل فرد منها نصيب، إلى جانب كونه تكليفاً شرعياً ومطلباً حضارياً؛ يعيد الأمة إلى التلقي عن منابعها الأصلية ليتم تقويم المجتمع به، ونفي نوابت السوء التي لحقت بها، وتحديد ما هو من العادات والتقاليد



التي جنحت عن مفاهيم القرآن والسنة وتطبيقاتها، وكان من سيرة رسول الله ﷺ وممارسة خير القرون.

إن تجديد الدين أو أمر الدين، والعودة بمفاهيمه إلى ينابيعه الصائبة الأولى، ونفي البدع، ورفض التأويلات المتحرفة؛ لا يخص فرداً أو جماعة أو عصراً أو لوناً أو لساناً، وإنما هو مسؤولية جماعية تضامنية تشمل الأمة بكافة مكوناتها وشرائحها.

إن تجديد الفكر الإسلامي عموماً؛ من لوازم الخلود لهذه الرسالة وخاتميتها، والتجديد إنما هو للتدين وليس للدين، ولفهمه وليس لأصله.

ويقوم ذلك عبر تقويم الواقع، من خلال الشرع، واتباع سنة التدرج في طريق النهوض شيئاً فشيئاً. وإن النخب التي أنيط بها من حيث الشكل على الأقل هذا التجديد، وتقديم الحلول للأمة وإشكالاتها لا تستطيع ذلك من خلال كلام حماسي، ونيات حسنة، دون وضع خطط استراتيجية؛ تأخذ بعين الاعتبار الإمكانات، والمعوقات، والركود الحضاري، وانطفاء الفاعلية، بل ربما يؤدي ذلك أو يساهم في تكريس التخلف والتراجع، بل ربما أصبحت النخب هي المشكلة في هذه الأمة، بحيث تحولت- هذه النخب- من وسائل تجديد ونهوض إحياء، إلى أدوات تخلف وجمود وعجز يؤدي إلى استدعاء الآخر ليقود الأمة، ويمارس فيها تضليله الحضاري والثقافي.

وإن واقعنا الإسلامي الذي لا نحسد عليه هو في الأغلب دليل

إدانة للنخبة، ومؤشر واضح على عجزها عن التغيير والتجديد، خاصة وأن العصر وآلياته، وإمكاناته، وشيوع المعرفة فيه، وكسر احتكار المعلومات، واختزال المسافات والزمان؛ قد أتاح لهذه النخب الفرصة الذهبية لتتقدم بما هو مطلوب منها، أو ما تدعي أنها تتصدى له.

وليس مقبولاً أبداً التلطي وراء ادعاءات تتمثل بالهجمة الشرسة، والتعليل بالعوامل الخارجية والظروف والأحوال، لأن ذلك لم يعد يقنع، بل يحمل في جنباته دليل إدانة لهذه النخب، حيث لم تكن على مستوى الأحداث ومستوى العصر، إن لم نقل: إنها ليست في مستوى فهم الإسلام والعصر معاً فهماً دقيقاً.

ليس مقبولاً أبداً إشاعة مناخ التخاذل الفكري، ومحاولة ترسيخ فلسفة الهزيمة، وشيوع عقلية تسوغ ما هو كائن، وعقلية (ليس بالإمكان أبدع مما كان)، لأن ذلك لا يعني الجمود فحسب بل الموت.

وليس مقبولاً أن يصير الماضي هو المستقبل، وأن يصبح التغني بالتاريخ والافتتان بمنجزاته هو البديل عن التعامل مع الحاضر واستشراف المستقبل.

العقل وبلوغ الرشد

وفي ذلك آمن بإمكانات العقل الجمعي الإسلامي، ودعاه أن يمد الأمة بشعب المعرفة بدلاً من العجز عن الإنتاج المعرفي

والثقافي، ولعل في محاصرة معرفة الوحي في القرآن والسنة، ما أخرج التدين من مجالات الحياة بسبب عجز العقل المسلم وتخلفه عن استيعابها وفهمها، حتى وصل بنا الأمر إلى احتضان نماذج لثقافات الآخر، وطريقة تفكيره لتحتل المنابر الفكرية الإسلامية.

ولعل من المؤشرات الخطيرة في إشكالية العقل المسلم؛ غياب العقل الاستراتيجي عن ساحة الفكر الإسلامي المعاصر، ذلك العقل القادر على فهم الماضي وتدبره، وصناعة الحاضر والتخطيط له، وإبصار المستقبل واستشرافه، في ضوء الفهم العميق لمقاصد الإسلام وشرعه وهداياته. وتشكيل عقل جماعي للأمة بدل شيوع عقل التسويغ والتسويق للواقع، وغياب فقه المقاصد،وبروز فقه المخارج والحيل الشرعية، وغياب جلب المنافع والمصالح، وبروز فقه درء المفاسد وسد الذرائع، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعلان استقالة العقل المسلم أو إقالته، ونتج عنه المحافظة على الواقع، والإبقاء عليه، والركون إلى ما فيه، وتجميده أحياناً، وبالتالي فقر الفكر الإسلامي المعاصر والمكتبة الإسلامية من تحليلات جادة، ودراسات معمقة، ومؤلفات ذات بُعد استراتيجي، تقدم دراسات وبحوثاً في أسباب النهوض والسقوط، والانقراض الحضاري، وغياب هذه الأمة عن ساحة العالم، دراسات عن سبب إخفاقنا وتقدم غيرنا، مع أننا نملك من مقومات النهوض والتغيير والحضارة مالا يملكه غيرنا من الأمم.

الإعلام والفن

في زمن الإعلام الذي ألغى الحدود، وأزال السدود، واختزل المسافات والأزمان، واختصر التاريخ، ويكاد يلغي الجغرافية، أو أنه قد فعل، حتى بات الإنسان يرى العالم ويسمعه من مقعده، ولم يقتصر على اختراق الحدود السياسية والسدود الأمنية، وإنما تجاوز ذلك إلى إلغاء الحدود الثقافية، وساهم في تشكيل القناعات العقدية، حيث أعاد بناءها وفقاً للخطط التي يرسمها صاحب الخطاب الأكثر تأثيراً، والبيان الأكثر سحراً،والتحكم الأكثر تقانة، حتى بات من الممكن القول: إن المعركة الحقيقية المستمرة والفاصلة اليوم هي معركة المعرفة والإعلام، بعد أن سكتت أصوات المدافع، وتوارى أصحابها، وأصبحوا لا يدعون إلى الظهور إلا في أوقات يغيب فيها الرشد، وتهزم الفكرة، وتنتصر الشهوة، ويرتكس الإنسان فيها، وينحدر إلى حياة الغابة، ومع ذلك يبقى الإعلام من أخطر أسلحة هذا العصر.

ومع كل ما تقدم من دور للإعلام؛ فإن الفن من أخص ما يؤثر من خلاله وما له من دور في صناعة المجتمع، وصياغة أفكاره، وتغيير مفاهيمه، وتشكيل قناعاته ومبادئه.

أدرك الأستاذ محمد عدنان سالم ما للفن من دور مهم وخطير في عملية تشكيل الأمة، أمام فن بدأ يتسلل إلى داخلها، ويخترقها، ويعمل على التحكم في أفكارها وتصوراتها، ويحاول احتواء طريقة تفكيرها ليلقي القبض على عقلها وعواطفها واهتماماتها ليعاد تشكيلها وفقاً لخطط مرسومة ومدبرة.

إن أخطر ما في هذا الاختراق الإعلامي ودور الفن من خلال هذه الوسائل الإعلامية المتعددة أن تتوهم الأمة المخترقة أنها تملك إرادتها، وأنها هي التي تصنع رأيها وتتخذ قراراتها بنفسها، دون أن تشعر أنها إنما تدور في الفلك المرسوم لها، وتحرك بأجهزة التحكم من بعيد.

إن الطاقات المبدعة على مستوى الفن لا يمكن أن تنمو وتستنبت في أجواء القمع والإرهاب، وانتشار لغة التحريم وسد الأبواب مطلقاً، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، وغياب الحرية وحقوق الإنسان التي تمثل الشروط الطبيعية والضرورية للنمو والإبداع.

لقد استطاع المسلمون الأوائل في جيل القدوة؛ أن يوظفوا كل الإمكانات المتاحة لنشر الدعوة الإسلامية، وتحروا لها كل الوسائل المتاحة في البيئة المحيطة بهم من الوسائل الممكنة.

والحال اليوم تجاه الفن كما هو الحال تجاه المنتجات الحضارية الكثيرة الأخرى، أننا نعيش أزمة الرفض الكامل، من خلال عدم محاولة تطويعها لما يخدم الرسالة التي يحملها؛ ليس بالمقاطعة أو الانسحاب، وإنما في كيفية تحويل هذه الوسيلة، وتسخيرها لتكون في خدمة الحق والخير، وإيصال الرسالة الأخلاقية والقيمية للإسلام؛ بعيداً عن الإسفاف والانحدار، أو العودة إلى التاريخ كما أردنا أن نعرض الإسلام وقيمه، وكأن هذا الإسلام أضحى تاريخاً ماضياً نفخر به، ولكن ليس له مكان في الحاضر.

لقد بدأ الموقف من الفن بالرفض، وهو الموقف الأسهل دائماً، وذلك بتحريمه وتحريم ما يعرض فيه عموماً ومطلقاً، وذلك ككل جديد لم تدرك خطورته وطريقة التعامل معه، وبعد أن خطا خطوات عريضة، وفرض وجوده بسبب غيابنا وتخاذلنا وتقاعسنا، وبدأت نتائج تأثيره تتضح شيئاً فشيئاً، حاولنا الدخول إليه بأساليب أشبه ما تكون بالبدائية والساذجة والمحزنة أحياناً، التي يمكن في مجملها أن تشكل عبئاً على الإسلام، أكثر من أن تشكل عرضاً للصورة الحقيقية له.

والمطلوب في نظرتنا إلى الفن؛ أن نخرج من حالة الشكوى والتلاوم؛ التي تستنزف الطاقة دون أن تقدم حلًّا، إلى أن نخطو خطوات في الاتجاه الصحيح، عبر تبني فنٍّ أخلاقي راقٍ يعرض الواقع، ويطرح الحلول من خلال رؤية قيمية حضارية، إذا إننا بحاجة إلى توبة في الفن لا توبة عن الفن.

والخطوات مهما جاءت متأخرة بطيئة وربما رديئة أحياناً، لكنها يجب أن تسهم في النهاية في الدفع إلى التحول من رد الفعل إلى الفعل، ومن حالة الأماني إلى الآمال، ومن الأمل إلى العمل.

إننا إن لم نستطع الدخول إلى قلب المعركة، وتحسس هموم الناس،وتقديم الرؤية الإسلامية من خلال الفن الأخلاقي الراقي الذي يساهم في حل المشكلات،ويرسم خارطة طريق للوصول إلى النتائج المرجوة، فإننا سنبقى في الهامش، في الوقت الذي أصبح الفن عند الآخرين؛ يخضع لاستشارة متخصصين في علم النفس

والجغرافيا والاجتماع والتاريخ والفلسفة؛ والأدوات لتقدير تأثير الفن على الناس .

إن المعادلة الصعبة للأمة اليوم؛ تكمن في عدم قدرتها على الارتقاء بخطابها ودعوتها إلى مستوى إسلامها وعصرها وعالميتها.

وبدل أن نكون قادرين على قراءة الأزمات التي تمر بهذا العالم؛ قراءة إسلامية صحيحة عقلانية من خلال إعلام راشد، وفنٍّ راقٍ، وخطاب واعٍ.. بدلاً من أن تكون الأمة قادرة على توظيف الأحداث لمصلحتها ومصلحة الإنسان؛ نرى الأحداث توظفها، فيخوض خصومها المعركة بإعلامها وفنها وخطابها، وتصفى الحسابات بدماء أبنائها؛ تقاتل بالنيابة عن الآخرين.

ونعجز عن الوقوف على ثوابت صلبة تؤصل لرؤية إسلامية عالمية بديلة، بعد أن سقطت كثير من الرؤى والنزعات والطروحات التي اختبأ وراءها من لا يريد بنا خيراً، ولم تجن منها الأمة إلا الحزن والعلقم.

وأخيراً أعود فأقول للأستاذ محمد عدنان سالم:

سلمت يداك، ويسلم قلبك، ويسلم قلمك.. وجهودك بإذن الله لن تذهب سدى، ولا معنى لمكان لا يكون فيه خطك الوردي.

وطالما تحدثت عن القمة وجهدت لتصل إليها، وآمنت أن القمة قد تكون صعبة المنال، لكن الأصعب الثبات فيها.

الأستاذ عدنان سالم ورسالة النهضة

أ. د. ماجدة حمود

قلما نجد في مجتمعنا العربي أناساً مثل الأستاذ عدنان سالم، فهو من أولئك الذين وهبوا حياتهم لهمِّ الثقافة في أمتهم ! فباتت النهضة هاجساً لهم !

لقد آمن أن بداية طريق التقدم لا تكون إلا ببناء وعي الإنسان وثقافته، لذلك ما إن يذكر اسمه حتى يتوارد إلى الذهن مؤسسة دار الفكر، التي جعلها مشروع حياته، فقد أدرك أن الجهد الفردي قد يضيع هباء، أو قد يكون ضعيف التأثير، لذلك عمد إلى تأسيس هذه المؤسسة، واختار لها رجالاً على شاكلته، ممن يرون الحياة رسالة وعطاء ومعرفة.

أعترف أنني لم ألتق الأستاذ عدنان سالم إلا لقاء عابراً، لكنني أعرفه من خلال مؤسسته، التي لمست فيها إخلاص المثقف لرسالة يعيش من أجلها، لا يرى معنى لحياته دونها ! لهذا من يدخل مركز بيع الكتب في الدار يستطيع أن يشتري الكتاب دون أي تردد أو

تصفح، فهو في غنى عن السؤال عن مدى صلاحيته ومستواه الفكري والعلمي !

إذن ثمة توحد في رأيي بين الدار وصاحبها، فأي حديث عن الدار هو حديث عن الأستاذ عدنان سالم، وأي حديث عن الكتاب الجيد والثقافة النظيفة تعني الحديث عن صاحب الدار والمؤسسة التي يديرها !

عايشت آلية عمل هذه الدار عن كثب حين طبعت كتابي فيها (الخطاب القصصي النسوي، نماذج من سورية)، أذهلني الإخلاص للكتاب، يتحول جميع العاملين كبيرهم وصغيرهم إلى خدمته، كي يتمّ إخراجه شكلاً ومضموناً في أتمّ صورة !

لعل أكثر ما أسعدني هو الحرص على النقاء اللغوي، وهذا ما أهملته، وما زالت، كثير من دور النشر في سورية وغيرها من البلاد العربية للأسف !

أحسست أن ثمة روحاً واحدة تجمع العاملين في الدار، هي روح الإخلاص لرسالة الثقافة الأصيلة، لهذا كان إخراج الكتاب للقارئ بأبهى حلة جزءاً من رسالة جميع العاملين فيها، فقد توحّد معهم الأستاذ عدنان سالم، فانبعثت فيهم روحه الأصيلة، حتى بات كل عامل في الدار يرى نفسه مسؤولاً عن سوية الدار كصاحبها تماماً!

يسجل لدار الفكر، أي لصاحبها، أنها من أوائل المؤسسات الفكرية في الوطن العربي، التي اهتمت بالحوار بين المثقفين العرب

ذوي المشارب المختلفة، وحرصت على تأكيد أهمية هذا الحوار، ودوره في نهضة فكرنا ووعينا، فكانت معنية بتأسيس أرضية معرفية لحوار علمي، يخرج الفكر من الصراع إلى التمازج، ويسهم في تسليط الضوء على الخلاف ليصبح اختلافاً، يرفد التنوع والرؤى المتكاملة، كل ذلك وفق منهج علمي، يعترف بحق الاختلاف والانفتاح من أجل تواصل ثقافي أكبر فائدة.

كما حرصت على توثيق هذا الحوار في سلسلة كتب تحت شعار (حوارات لقرن جديد)، كانت قد بدأتها منذ حوالي عشر سنوات، بعد أحداث أيلول ٢٠٠١م، لهذا لا نستطيع أن نقول: إنها ركبت الموجة اليوم، حين بدأنا نسمع بعض المؤسسات الرسمية وغير الرسمية تركز على أهمية الحوار ودوره في إنقاذ البلد من الدخول في المجهول.

تعدّ من أكثر الدور اهتماماً بإصدار كتب ذات صلة بالتنوع الثقافي (تراثية، مترجمة، تاريخية، فلسفية، أدبية، علمية...)، صحيح أن كتب التراث قد تشكل ركيزة أساسية من إصداراتها، لكن اللافت فيها هو حرص الدار على تقديم الإسلام على حقيقته (الذي يقوم على التسامح وينبذ التواكل والإرهاب، فيتجلى في الأخلاق القويمة، التي تنهض بالإنسان، وتجعله فاعلاً في حياته وحياة أمته، ويلفت النظر إلى قيمه العظيمة المعطلة لصالح اللهاث وراء قيم دنيوية تدمر إنسانية الإنسان، وتعود بالمجتمع إلى الوراء! وانطلاقاً من هذا الاهتمام بدت مؤسسة دار الفكر معنية برعاية ندوة كل عام تقريباً، تبحث فيها إشكالية من إشكاليات الفكر العربي، والتحديات

التي تواجه نهضته، وتستضيف فيها أهم المفكرين العرب، وهي لا تكتفي بالمناقشة وطرح أفكار جديدة تغني ثقافة إعمال العقل والإسلام المتنوّر، بل تكرم فيها أحد الأدباء أو المفكرين العرب الذين خدموا الثقافة، وعرفوا بالإبداع والأصالة.

ابتكرت الدار وسائل لتشجيع القراءة بين الشباب وغيرهم (استبانة القارئ وبطاقة القارئ النهم) تستطلع فيها رأي قارئها وتخلق علاقة تواصلية بينه وبين الدار، تكاد تجعله شريكاً في تطوير آلية عمل الدار، ودفعها لإنتاج كتاب أفضل، فيخاطبونه بالاستبانة «اقتراحاتك تساعدنا على تطوير العمل»، ولهذا يطلبون ترتيب الموضوعات حسب أهميتها لديه، ثم يسألونه كيف علم بالكتاب؟ وما رأيه فيه من حيث (الموضوع، المستوى، الغلاف، الإبداع الفكري، الأخطاء المطبعية)؟

وكي تضمن فاعلية القارئ وتحمسه لهذه الاستبانة قدّمت له عدة حوافز (الحصول على عروض بالكتب الصادرة حديثاً، حسم خاص للمشتركين عند الشراء، كما يسجل للمشترك رصيد مقابل إرساله لهذه القسائم يمكن أن يأخذ مقابله كتباً مجانية، ويتم إعلامه بالندوات والمحاضرات والمعارض التي تقيمها الدار)، كما تقدم الدار جائزة سنوية لأكثر القراء نقاطاً وأكثرهم قسائم مرسلة.

لم تكتفِ الدار بالتشجيع على القراءة، بل شجعت إبداع الشباب فقامت بمنح جوائز لأفضل رواية أو قصة أو...

ومما يحسب لدار الفكر أنها التفتت إلى رعاية الإنسان منذ

طفولته، فهي من أوائل دور النشر العربية التي رعت أدب الأطفال، وواكبت العصر فاستفادت من منجزات العولمة، فأرفقت القصص بالصور المعبرة وبـ (CD)، كما كانت قد أسرعت في إنتاج الكتاب الإلكتروني !

مما يسجل للأستاذ عدنان سالم رعايته لحقوق المؤلف، ولفت النظر إلى ضرورة وقوف الدولة والمؤسسات الخاصة لدعم هذه الحقوق.

إذن تتوحد إنجازات دار الفكر بإنجازات الإنسان الذي وهبها حياته، فلا نستطيع فصل أحدهما عن الآخر، لهذا نستطيع أن نقول: إن ما أنجزه الأستاذ عدنان سالم بكثير من العمل وبقليل من الكلام تعجز عنه كثير من الوزارات الثقافية العربية واتحادات الكتاب العرب!

دمشق وأهل دمشق

أ. د. أحمد بسام ساعي
عضو المجلس البريطاني للاعتراف بالجامعات BAC

حين زرت دمشق لأول مرّة وأنا فتىً، في أواسط الخمسينيات، قادماً إليها من اللاذقية؛ المدينة التي ولدت فيها ونشأت وترعرعت، صدمتني الهوّة التي كانت تفصل بين المدينتين، هوّةً أحسست أنها كادت تبتلعني بعمقها واتساعها.

كنت قادماً إليها من مدينةٍ لم يكن للزمن فيها قيمة، ولا للقرش حساب، ولا للإتيكيت بمعناه الحضاري الواسع مكان؛ فمصطلح (دقيقة) في مدينتي قد يعني ساعةً أو ساعتين أو أكثر، وكلمة (غداً) قد تعني فيها شهراً أو شهرين أو ثلاثة، أو قد لا تعني شيئاً على الإطلاق، والأرقام مفتوحةٌ فيها لكل الاحتمالات، والحياة تتمدّد فيها باسترخاء لا يشبهه إلا استرخاء لهجتها، وامتداد الحركات في كلماتها امتداداً تتحوّل معه إلى حروف مدٍّ، وامتداد حروف المدّ بحيث تغدو أطول من الكلمة نفسها. وحكاية البائع الدمشقيّ الذي جاءه زبونٌ لاذقيّ يسأله عن (حلاوة مطّيطة) - ومدّ، أو مطّ، حرف

الطاء الأخير بشكلٍ كبير، - فأجابه البائع: «نعم، إنها مطيطة، ولكن ليس إلى هذه الدرجة»، تجسّد حقّاً ما كانت عليه لهجة أهل اللاذقية في ذلك الوقت، بل مظاهر حياتها كلّها، إنها ظاهرةٌ لغويةٌ تجسّد تثاؤب الحياة في هذه المدينة في الخمسينيات وتمدّدها واسترخاءها، حتى لتظنّها شبه نائمة.

من مثل هذه الطريقة المتراخية من العيش خرجت؛ لأرمي بنفسي فجأةً في هوة البركان الدمشقيّ؛ الذي تتأجّج أعماقه بالحركة، وتتدافع حممه الملتهبة بالحياة والعمل والإنتاج، لتسقط على رؤوس كل من يحاول أن يقف في طريقها أو يعيقها عن حركتها، فلم أشعر إلّا وشظايا هذه الحمم تتساقط على رأسي وتلذعني هنا وهناك؛ فهذا يدفعني بكتفه في الطريق لأنني أعيقه بمشيتي البطيئة عن إدراك الباص أو (الترومواي) قبل أن يتحرّك، وآخر أزوره في بيته أو في محلّه فما يفتأ ينظر في ساعته مرةً بعد أخرى ليشعرني أنّ لديه أعمالاً أخرى غيري تنتظره، وآخر يستعجلني في الحديث؛ إذ لا صبر له على حديثي المسترخي وكلماتي التي تحتلّ من الوقت أكثر من حجمها. كانت قوّة الصدمة عليّ أكثر ممّا أحتمل، فلم أجد نفسي إلا وأنا أصيح في النهاية: والاذقيّتاه.. فأسرع إلى أوّل حافلةٍ تقلّني إلى مدينتي قبل أن يخنقني بحرارته بركان دمشق المشتعل.

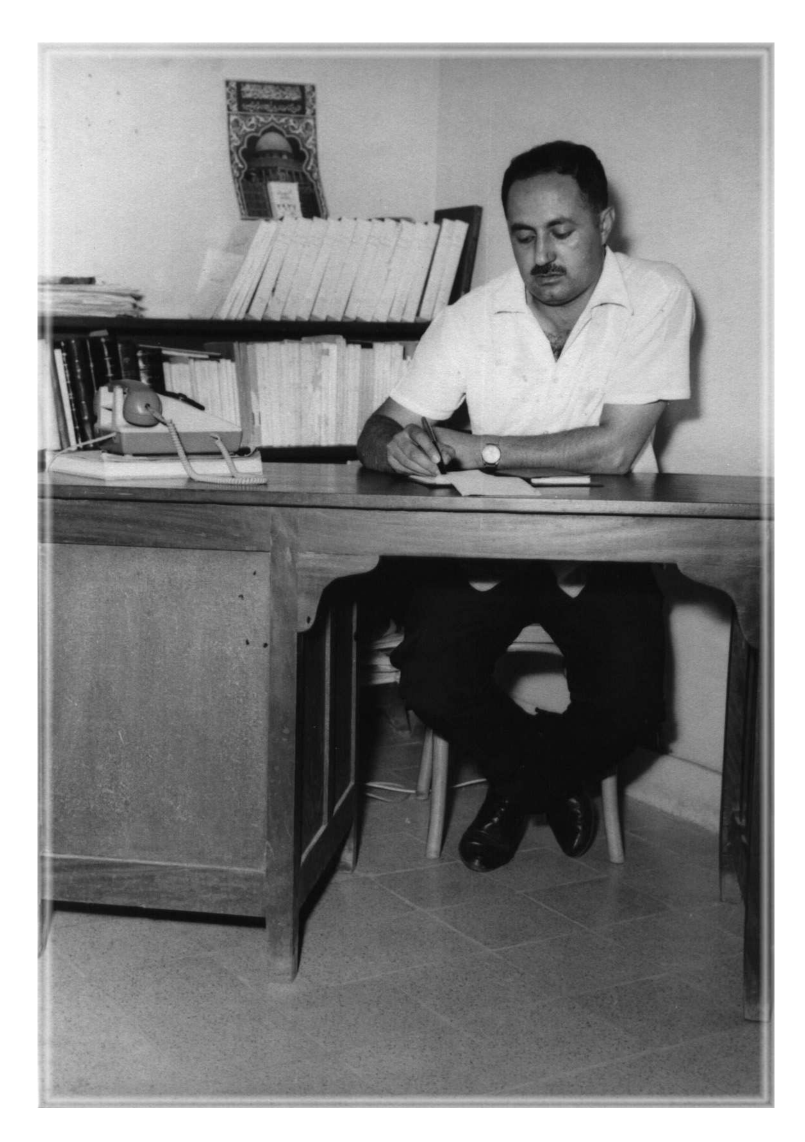
ظلّت صورة دمشق هكذا في خيالي حتّى بعد أن قدّر لي الانتساب إلى جامعتها عام ١٩٥٩، فلم تتغيّر الصورة كثيراً أمامي على مدى السنوات الأولى من دراستي. وكان طريقي اليومي من الجامعة إلى حيث أقيم يأخذني عبر أوسع شارعٍ عرفته دمشق في

ذلك الوقت، ومع ذلك فلم أكن أهتم بأن أعرف اسمه في تلك الأيام، ثم لا أعرف إلى أين انتهى اسمه في هذه الأيام، وهو الشارع الذي يهبط بك من محطة الحجاز إلى مجرى بردى ثم يرتفع بك من جديد ليأخذك إلى الصالحيّة. وكنت كلّما مررت من ذلك الشارع تنشدّ عيناي إلى لافتةٍ كبيرةٍ ارتفعت فوق مدخل مكتبةٍ كانت، فيما أعلم، الأكبر في دمشق وهي (دار الفكر). ولأنني كنت مأخوذاً منذ تلك الحقبة بكل ما هو (فكر إسلامي)، كنت أعرّج عليها من وقتٍ لآخر، وأحاول أن ألتهم بعيني ما وسعني من عناوين كتبها المعروضة بأناقةٍ وترتيبٍ تنبئان عن شخصية صاحبها.

كان لقائي بصاحب تلك المكتبة بمثابة منعطفٍ هامٍّ في حياتي، وفي تاريخ علاقتي بدمشق وأهل دمشق. ها هنا أمامي الآن رجلٌ اسمه عدنان سالم يجلس على مكتبه بهدوءٍ يبعث في نفسك الهدوء، وطمأنينة تُشعرك بالطمأنينة، وبتواضعٍ يعيد إلى نفسك بعض ما فقدتْه من ثقة، وبنظرة احترامٍ ومحبّة تشعركَ أنّك بين أناسٍ مثلك، لم يأتوا من المريخ، يحبّونكَ وتحبّهم، ويسعون إليك كما تسعى إليهم، ويتمنّون لك ما تتمنّاه لنفسك، بل ربما يتمنّون لك أكثر من ذلك مما لم تكن قد وعيته أو أدركته بعد. ولأوّل مرّة بدأت الصورة التي كوّنتها في نفسي لدمشق ولأهل دمشق تهتزّ وتعيد تشكيل نفسها.

كانت تلك بداية صلتي بالأستاذ الكبير عدنان سالم، وكانت تلك بداية صلتي ومعرفتي بدمشق الحقيقية.

من بوّابة عدنان سالم دخلت إلى أعماق دمشق، فأخلاقه جرّتني إلى معرفة المزيد عن أخلاق الدمشقيين، وأغرتني بالإبحار



محمد عدنان سالم يجلس على مكتبه بهدوء ببعض الطمأنينة

في مرافئها واكتشاف محيطاتها. إنها عالم كامل يجمع بين طيّاته التاريخ والدين والعلم والأدب والأصالة والأخلاق والحضارة والتجارة والصناعة، ويجتمع فيها الماضي القديم جنباً إلى جنب مع الحاضر الحديث، اجتماعاً يندر أن تجد مثيله في بقية مدن العالم هذه الأيام.

إن صورة (التاجر) التي سبق أن كوّنتها عن معظم أبناء دمشق، بدأت تكشف لي وراءها صورةً أخرى ما أبعدها عن صورة الوجه الأوّل. إنّها أقرب ما تكون في نفسي الآن إلى صورة الصحابي الأوّل، ولست مبالغاً في هذا. لو سألوني الآن: في أية بقعةٍ من الأرض يمكن أن نعثر اليوم، لو عثرنا، على نماذج لأخلاق الصحابة الأوائل في هذا العالم الماديّ؟ إذن لأجبتهم: ابحثوا عنهم أولاً في دمشق فسوف تجدونهم هناك.

إنّ التاجر الذي يحاسبك على (نصف الفرنك) ويلاحقك حتى تدفع له، هو نفسه الذي إذا اطّلعت على وجهه الآخر، وهو وجهٌ يحرص صاحبه على ألّا يعرفه أحد، رأيت فيه المحسن الكبير الذي لا يترك فرصةً للخير والصدقة والإحسان إلا ويكون في مقدّمة الذين يأتونها، ولا يجد مناسبةً للعون الإنسانيّ، بالمال واليد واللسان والقلب، إلا وتقدّم إليها. إن الرجل الذي يجلس خلف مكتبه في النهار، يحاسب ويتقاضى ويلاحق قضاياه قرشاً فقرشاً، وشعرةً فشعرة، تكاد لا تعرفه إذا انفرد إلى نفسه وإلى ربّه في الليل، فهو القارئ الذاكر الخاشع، المتحسّب من عقوبة الله لذنبٍ اجترحه، والراجي لرحمته ومغفرته وجنّته، بعطاءٍ إذا منعه الآخرون، وتسبيحٍ

إذا نام عنه المصلّون، ورقّة قلبٍ إذا أقفرت منها القلوب، وسخاء دموعٍ إذا بخلت بها مآقي العيون.

ومع كل هذا؛ لم تكتمل صورة أهل دمشق عندي حتى قذفت بي رياح الأقدار، في أوائل الثمانينيات إلى أوربة. هناك في الغرب وجدت شعباً لا تملك، وأنت تقف بإزاء دقّته وإتقانه وصدقه وصراحته، وإزاء تقديسه للوقت والعمل، ولقيمة الإنسان ولإكرام الحيوان، إلا أن تقول: يا الله، لولا الخمور والنساء لأوشكت أخلاق هؤلاء أن تكون أخلاق الصحابة الكرام. ثم لم أملك، وأنا مأخوذٌ بصورة هذا الأوربي، إلا أن أستحضر صورة الدمشقي الذي تجاوز، وهو في دمشق، حدود المكان، فكان نموذجاً في تعامله للصحابي، فجمع بين أخلاق هؤلاء وأولئك، جمعاً يندر أن تجد له مثيلاً فيما عرفته حتى الآن من شعوب، فكان الدمشقيّ في نظري بمثابة أوربي مسلم، لقد جمع في إهابه التفكير والدقة والاستقامة والإتقان والمهارة وتقديس الوقت والعمل والإنتاج والتفكير المادّي، جنباً إلى جنب مع الروح والورع والتقى والزهد والتصوّف، ولكن بمعانيها النبويّة الصحابيّة الحضاريّة السامية التي تقف على قدميها متحفزةً لكل خطوةٍ تالية، غير متراخيةٍ ولا متهاونةٍ ولا متغافلة.

مَن عدنان سالم، الرجل الذي يشار إليه اليوم بالبنان، إذا سألوا: أين نجد الكاتب والباحث الحصيف والمدقّق؟ ويشار إليه بالبنان إذا سألوا: أين نجد الرجل العالم بالمكتبات؟ ويشار إليه بالبنان إذا سألوا: أين نجد الخبير العتيق بالطباعة والنشر؟ ويشار إليه بالبنان إذا سألوا: أين الناشر صاحب الدين الذي إذا عملت معه لم

يسرقك؟ وإذا اعتمدت عليه لم يخذلك؟ وإذا استأمنته لم يخنك؟ وإذا استنصحته لم تخطئك نصيحته؟ مِن هذا الرجل، تجربتي الأولى مع الأخلاق الدمشقية الصحابية، انطلقت تجربتي بعد ذلك وتنوعت عبر سلسلة من النماذج الدمشقية الأصيلة، كان منها من توارث دمشقيته كابراً عن كابر، وكان منها من كتبت على أسرته الأقدار أن تهاجر إلى دمشق، من أدنى الأرض أو أقصاها، فيولد وينشأ في أحضان المدرسة الدمشقية، ويتخرّج في جامعتها الصحابيّة وكأنه ابن بجدتها.

هكذا اكتشفت بعد ذلك من كتبت لي الأقدار أن تكون لي معهم تجارب شخصيةٌ أطلعتني من خصوصياتهم على ما لم يطّلع عليه كثيرون غيري، فكانوا أبداً يحملون في طيات ثيابهم ذلك الوجه الآخر العصي على الاكتشاف لمن عرفهم من بعيد، وكان من بين هذه النماذج المعاصرة للصحابة، رحم الله من سبقنا منهم وبارك في أعمار اللاحقين، أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور شكري فيصل، والدكتور مازن المبارك، والشيخ ناصر الدين الألباني، والدكتور محمد خير عرقسوسي، والمهندس هشام اليافي، والحاج ياسين عارف النشاوي، والدكتور تحسين مزيّك شوربجي، وغيرهم كثير.

ستجد بين هؤلاء ذا الأصل الأفغانيّ أو الألبانيّ أو المصريّ أو المغربيّ أو الكرديّ أو التركي، ولكن مدرسة دمشق صهرتهم جميعاً في بوتقتها، فكانت هجرتهم إلى دمشق صدىً لهجرة الصحابة

الأوائل الذين فضّلوا أن يستوطنوا دمشق، وأن يشاركوا في صنع شخصيتها الأخلاقيّة، ثم أن يموتوا فيها، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

الحديث عن عدنان سالم، وعن دمشق وأبناء دمشق، لو استسلمت لرغبات نفسي، لا ينتهي، مثله مثل القصص اليومية التي تختفي وراء جدران الحارات العتيقة في زوايا دمشق، من حكايات بر الأبناء بآبائهم، والآباء بأبنائهم، والتلاميذ بشيوخهم، والشيوخ بتلاميذهم، والأغنياء بفقرائهم، والفقراء بأغنيائهم، والجيران بجيرانهم، والتجار بعملائهم، وأصحاب الحرف بعمالهم، براً لم تستطع السنون ولا الأحداث، رغم عواصف الدعوات الغربية المتطفلة التي حاولت النفوذ من تلك الجدران، أن تنال من ثباته ورسوخه مع مرّ الأيام.

دار الفكر
في عرسها الذهبي

د.غازي مختار طليمات

لا مجدَ في المالِ، والأنسابِ، والرُّتَبِ
إنْ لم تُتوَّجْ بتاجِ العلمِ والأدبِ
كمْ من ثَرِيٍّ حَفِيٍّ[1] بالغنى غرِقَتْ
أموالُه في دِنانِ الخمرِ والطربِ
وكم نسيبٍ حَسيبٍ غرَّه نسبٌ
فعاش يَجْترُّ وهْمَ الفخرِ بالنسبِ
وكم وزيرٍ شهيرٍ زانَه لَقَبٌ
فتاهَ[2]، ثم جفاهُ طارئُ اللقبِ

❀ ❀ ❀

(١) الحفيُّ بالشيء: المهتمّ به.
(٢) تاه: افتخر وتكبر.

فـهـؤلاء، إذا اعْـتَـزُّوا فـعِـزَّتُـهـم
كخُلَّبِ البرقِ في أجفانِ مُخْتَلَبِ[١]

أو موجةٌ من سرابٍ خادعٍ، لمعَتْ
وما رَوَتْ من نخيلٍ قطُّ أو عُشُبِ

أو غيمةٌ من جَهام الغيم، ما وَدَقتْ[٢]
وَدْقاً على شامخ يوماً، ولا هَضَبِ

وأنت مجدُك يا «عدنانُ» من دِيَمٍ
تَرْوي النُّهى لا الثرى بالمُغْدِق السَّرِبِ[٣]

❀ ❀ ❀

فضْلٌ من الله، مُذْ أَوْلاكَهُ ازدهرَتْ
في أمَّةِ «اقْرَأْ» رياضُ الفِكر والأرَبِ[٤]

وأينعتْ ثَمراتُ العقل، وانتشرتْ
في الخافقَيْنِ انتشارَ الموسمِ الخصبِ

أجْنَيْتَ يَنْعَ جناها كلَّ ذي سَغَبٍ
وكلَّما امْتارَ منها لجَّ في السَّغَبِ[٥]

(١) المختلب: المخدوع بما يرى، وخُلَّب البرق: البرق الخادع، والسحاب الخلَّب: ليس فيه مطر.
(٢) ودق المطر: خرج من السحاب.
(٣) المغدق السرب: الغزير المنساب.
(٤) الأرب: الذكاء.
(٥) اليَنْع: الثمر الناضج. والشغب: الجوع.

وجائعُ الفكر - مهما يلتهمْ - نهِمٌ
إنْ زِدْتـه في القِرى يزدَدْ من الطَّلَبِ

❀ ❀ ❀

خمسٌ وخمسونَ من عُمر الزمان مضَتْ
و «دارةُ الفكر» تغزو الليل بالشُّهبِ
تُرقرق النُّسْغَ في أعراقِنا، فإذا
ترشَّفَتْه، تجلَّى النورُ في الهُدُبِ
وتبعثُ الصحوَ في أحداقِنا ألَقاً
من بعدِما رقَدَتْ في حالِكِ الحِقَبِ
تُحْيي تليداً مجيداً، كاد يُهْلِكُه
جهلاً «هُلاكو» وخصْمُ الأذكياءِ غبي

❀ ❀ ❀

خمسٌ وخمسونَ، والأسفارُ صادرةٌ
عن «دارةِ الفكر» لم تَعْنَسْ، ولم تخِبِ
تَزُفُّهنَّ إلى عُشَّاقهنّ، كما
تُهْدى النجيباتُ يا «عدنانُ» للنُّجُبِ
تغشى المعارضَ بالأبكار، إنْ جُلِيَتْ
صَبَتْ لها مهجةُ العِزْهاةِ[1] والعَزَبِ

---

(١) العِزهاة من الرجال: العازف عن النساء.

وراهبُ الفكر يبقى راهباً عَزَباً
ولو بنى بألوفِ الخُرَّدِ العُرُبِ(١)

❀ ❀ ❀

خمسٌ وخمسونَ، و «الدارُ» الرحيبةُ لم
تزَلْ نفائسُها تختالُ في الرحبِ
و «الفكرُ» فيها كأزهارِ الرُّبى زُمَرٌ
شتَّى، لينخبَ منها كلُّ مُنْتخِبِ
دينٌ، وعلمٌ، وتاريخٌ، وفلسفةٌ
من تالدٍ خالدٍ، أو طارفٍ قَشِبِ(٢)
شِعْرٌ، ونثرٌ، وآدابٌ مترجمةٌ
ونحن نشتارُ منها أطيبَ الضَّرَبِ(٣)

❀ ❀ ❀

«عدنان» عشْنا معاً دهراً، يؤلِّفُنا
خوفٌ على الضادِ من أوشابِ مُجْتَلَبِ
كأنما قلعةُ الفصحى لنا حَرَمٌ
فيه نرابطُ خلفَ المعقِلِ الأَشِبِ(٤)

---

(١) الخُرَّد العُرب: العذارى الحسان.
(٢) الطارف القشب: الجديد المستحدث.
(٣) اشتار العَسَل: اجتناه من الخلية، والضرب: العسل الأبيض.
(٤) الأشِب: الحصين.

نـذبُّ عـنـهـا رمـاحَ الـغَـدْر إن لَـمَـعَـتْ
مـنـهـا الأسـنَّـةُ قـبـل الـطـعـنِ والـغَـلَـبِ
وسـوف نـبـقـى إذا امـتـدَّ الـزمـانُ بـنـا
على رباطٍ، ولا نشكو من النَّصَبِ(١)

❀ ❀ ❀

«عدنانُ» مَنْ يعشق الفُصْحى فليس لها
مَهْرٌ سوى نَشْرِها في كلِّ مُضطربِ
كـنـوزُهـا لـم تـزل فـي ألْـف مـعـتـقَـلٍ
سـجـيـنـةً بـيـن مَـنْـسِـيٍّ ومُـسْـتَـلَـبِ
وكـلُّ كـنـز نـشـرنـاه لـه لُـمَـعٌ
مـن الـجـمـالِ، وآيـاتٌ مـن الـعَـجَـبِ
فـفـي «الـكـفـايـةِ» مـن أصـدافـهـا دُرَرٌ
وفي «اللباب» شذورُ الماسِ والذهبِ(٢)

❀ ❀ ❀

(١) النصب: التعب.
(٢) الكفاية: كتاب «كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ» لابن الأجدابي، وهو كتاب لغوي كالمخصص لابن سيده، وهو من منشورات دار الفكر. واللباب: هو كتاب: «اللباب في علل البناء والإعراب» لأبي البقاء العكبري. وهو من أعظم الكتب في النحو. نشرته دار الفكر عام ١٩٩٥م.

أبْشِرْ «أبا حَسَنٍ» بالأجْرِ، تذخرُهُ
لك الذخائرُ بعد الصبرِ والتعبِ
فكم تلقَّيْتَ ما ألقَتْ قرائحُنا
إليك من سَقَطٍ بالحبِّ والحَدَبِ(١)
تغضي عن النقص في التحقيق مغتفراً
بعضَ العيوب، وأيُّ الكُتبِ لم يُعَبِ ؟
وتنحني فوقه، بالعطفِ تكلؤُه
كما انحنى فوق مَهْدِ الطفلِ صدرُ أَبِ

❀ ❀ ❀

هذا هو الخُلْدُ، لا صرحٌ يشيِّده
«فرعونُ» مصرَ لكي يرقى إلى السُّحبِ
فالصَّرْحُ قد ينطحُ الجوزاءَ مفْرِقُهُ
لكنه عامرٌ يُفْضي إلى خَرِبِ
وما نشرْتَ يظَلُّ الدهرَ مُؤْتلقاً
إنْ غابت الشمسُ لم يشحَبْ ولم يغِبِ
فَقَرَّ عيناً به دنيا وآخرةً
فهو الرصيدُ الذي يُغني عن النَّشَبِ(٢)

---

(١) الحَدَب: العطف.
(٢) النشب: المال الأصيل: ناطقه والصامت.

البحوث
المهداة إليه

صفحة بيضاء

رقم 138

يوم الرّزم

أ.د. حسين بن عبد الله العمري

مهدى للأخ والصديق العزيز الأستاذ العالم الجليل محمد عدنان سالم..

ذكرى صداقة ومحبة في مسيرة ثلاثة عقود..

فهذا اليوم - يوم الرَّزم - يومٌ هام من أيام العرب قبل الإسلام، صادف يوم بدر الكُبرى، ذلك اليوم الفاصل في تاريخ اليمن وعَرب الجزيرة.

فإلى الأستاذ الأخ والصديق المحتفى به، ناشر التراث، وكل فكر جديد وعلمٍ نافعٍ، ومن وجد - ذات يوم - ضالته في اليمن - المهمل تاريخهً وتراثه - فبعثه كجزء من اهتماماته بتاريخ وتراث أمته، ومستقبل جيله..

إليه هذه الشاردة البكر!

صنعاء غرة رجب ١٤٢٩ هـ

الموافق الرابع من تموز / يوليو ٢٠٠٨ م

الرّزم (ويقال الرَّدم بالدال)، موضع في الجوف ينسب إلى وادي ملاحا، وهي أرض خصبة بها غابات وغيل كبير قرب الحراشف (شمال صنعاء على بعد نحو ١٧٠ كم).

وهناك كان (يوم الرَّزم) يوماً من أعظم أيام العرب في الجاهلية بين قبيلتي مذحج وهمدان اليمانيتين، انتصرت فيه همدان على مذحج، وكان من نتائج تلك الهزيمة إجلاء قبيلة (مراد) المذحجية عن الجوف، حيث كانت تسكن، وملكته همدان التي يقودها الأجدع بن مالك بن أمية الوادعي (فارس همدان وشاعرها في عصره)، وكان زوج كبشة بنت معدي كرب أخت عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي، ولهما فيها شعر ذكره الهمداني.

وقد تزامنت تلك الموقعة مع (يوم بدر) في السنة الثانية للهجرة.

أما سببها فقد كان على صنم (يغوث)؛ يكون في هؤلاء مرة وفي هؤلاء مرة، فأرادت مراد أن تغلبهم عليه، فقامت الحرب وكانت تلك نتيجتها في (يوم الرَّزم) بعد معركة حاسمة بين الطرفين؛ ذهب فيه فرسان مشهورون من الجانبين، إلا أن همدان قتلت من مذحج بشراً كثيراً «وقتل يومئذ فوارس الأرباع بنو ذي الغصة» وهم أبناء الحُصين بن شداد بن قنان رأس بني الحارث وفارسها «وسمي ذا الغصة لأنه كظم الغيظ والحزن على بنيه» وإنما سموا فوارس الأرباع - (وهم عمر وزياد ومالك) - لأن كل واحد منهم كان يأخذ في حروبه ربع الغنيمة، وفيهم يقول الأجدع بن مالك:

أسألتني بركائبي ورحالها
ونسيت قتل فوارس الأرباع

وبعد ثماني سنوات من (الرَّزم) و (غزوة بدر الكبرى) قدم على رسول الله ﷺ مُسلماً - في السنة العاشرة للهجرة - فَروة بن

مُسَيك بن الحارث المرادي، قبل قدوم عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي الذي لحق مع وفد زُبيد، وقد ورد في السيرة والطبري ذكر ما حلَّ بمراد وقبيلتها (مذحج) يوم الرَّزم، والشعر الذي قاله في ذلك فروة، ثم قوله لما توجه إلى الرسول الكريم (مفارقاً لملوك كندة) قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت
كالرجل خان الرجل عرقُ نسائها
قربت راحلتي أؤم محمداً
أرجو فواضلها وحُسن ثرائها

«ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: يا فروة! هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرَّزم؟ فقال: يا رسول الله، ومن ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرَّزم ولا يسوؤه ذلك!».

فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً». وفي رواية أخرى عن فروة بن مسيك قال: «قال رسول الله ﷺ أكرهت يومك ويوم همدان؟ فقلت: إي والله! أفنى الأهل والعشيرة، فقال: أما إنه خير لمن بقي» فاستعمله رسول الله على مراد وزُبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، وكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله. وفي (تاريخ مدينة صنعاء)، «أن رسول الله ﷺ لما بعث فروة بن مسيك المرادي أمره ببناء مسجد صنعاء، فبنى مسجد صنعاء وجبانة صنعاء»، وهناك روايات أخرى تذكر غير فروة فيمن بنى مسجد صنعاء، إلا أن له

مسجداً معروفاً باسمه إلى اليوم شمال سور صنعاء. ولفروة رواية عنه ﷺ عند الترمذي وأبي داود، ومن ذلك حديثه أن النبي ﷺ أمره على قتال من لم يسلم من أهل سبأ، ثم شرط عليه أن يراجعه في أمرهم، وذكر ابن سعد أن عمر بن الخطاب استعمله على صدقات مذحج.

المراجع

١- الهمداني (الحسن بن أحمد) الإكليل: ٢/ ٩١ - ٩٧، ٤٦١ - ٤٦٢

٢- نشوان الحميري: شمس العلوم (الرزم) ٤/ ٢٤٨٨ (بتحقيق الكاتب وزميليه أ. د. يوسف عبد الله ومطهر الإرياني، دار الفكر، ١٩٩٩).

٣- الهمداني: صفة جزيرة العرب بتحقيق الأكوع: ٢٣٧ - ٢٣٨

٤- سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٤

٥- الطبري: ط دار المعارف ٣/ ١٣٢، السيرة ٥/ ٣٤٤

٦- تاريخ صنعاء للرازي بتحقيق حسين عبد الله العمري ٧٧، ٧٨، ٨١، ٢١٥ (ط ٣) دار الفكر.

٧- طبقات ابن سعد ١/ ٣٢٧، التهذيب لابن حَجر ٧/ ٢٦٥، طبقات فقهاء اليمن للجعدي ١٤، ٢٥.

حِوَاريَّات دار الفكر

أ.د. محمد هيثم الخياط

المودَّة التي تربطني بالأخ الحبيب عدنان سالم منذ نصف قرن ونيِّف، تشفع لي في أن أُثْنِيَ عليه جزيل الثناء، بالحديث عن مبادرة لطيفة من مبادراته التي لا تُحْصَى في مجال النشر والثقافة، ألا وهي تلك «الحِوَاريَّات» النفيسة، التي شرعت دار الفكر في إصدارها منذ سنين، والتي تستضيف على صفحاتها في كل إصدارة حواراً متَّزناً مهذَّباً بين اثنَيْنِ اثنَيْنِ من أعلامنا في شتى المواضيع. فقد أحيا بذلك - حيَّاه الله - سُنَّةً من سُنَن هذا الدين الذي نعتزّ بالانتماء إليه والالتزام بآدابه، وأعاد - عملياً - بفهمه العميق لكتاب الله، تحقيق ما أَمَرَنا به ربُّنا عزّ وجل، من دعوة الآخرين إلى الحوار، مع التَّعالي والارتفاع بمستوى هذا الحوار إلى صعيد مشترك: ﴿تَعالَوْا [أي: ارتفعوا] إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤]!

وليس يَخْفَى أنَّ قواعد الخطاب الإسلامي تنطلق من قيمة من أهم القِيَم الإسلامية، ألا وهي **الاعتراف بالآخر**. والآخر هو في الأصل كلُّ ما سوى الذَّات. فحينما بُعِثَ النبي ﷺ إلى الناس كافَّة،

كانوا جميعاً يمثِّلون الآخر بالنسبة إليه. فاعتَرَفَ بهم اعترافَ تمايُز وتكافؤ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦].. «لليهود دينهُم وللمسلمين دينهُم» [كما جاء في الصحيفة، أو قُلْ دستور المدينة].

وانطلق تعامُلُه معهم من مبدأ أصيل كان يدعو به ﷺ كلَّ يوم: «وأشهد أن العبادَ كلَّهم إخوة» [رواه الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن]، لأنهم يشتركون جميعاً في أنَّ لهم أباً واحداً، فَهُمْ كما يسميهم القرآن «بنو آدم»، وهم يشتركون جميعاً كذلك في أن لهم رباً واحداً، وأنهم مهما اختلفوا فإن ربوبية الله تجمع بينهم:

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥]؛

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٦]؛

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥].

«أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد» [رواه أحمد وأبو داوود عن زيد بن الأرقم]؛ وأنهم سَوَاسيةٌ في التمتُّع بخيرات هذه الربوبية، لا تفرقةَ بينهم ولا تمييزَ في أيِّ أمر من الأمور التي تتعلق بربوبية الله عز وجل، كالماء والغذاء والرزق والعطاء والدواء والشفاء والإمداد بسائر أسباب الحياة:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٨-٨٠]؛

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٠]؛

حتى إنَّه حينما قال ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢/١٢٦].. ﴿قالَ [ربُّ العالمين له:] وَمَنْ كَفَرَ!﴾ [البقرة: ٢/١٢٦].

❁ ❁ ❁

وهذا الاعتراف بالآخر يَسْتَتْبع - بطبيعة الحال - الالتزامَ بأدب الحوار كما نصَّ عليه القرآن:

﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٠]؛

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٣]؛

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]؛

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٦]؛

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤].

ولا يَخْفَى أن آية سورة النحل تلفت نظرنا إلى ناحية مهمة. فالدعوة إلى الله ينبغي أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الجدال فلا يكفي أن يكون جدالاً حسناً، وإنما هو جدال **بالتي هي أحسن**.

ثم إن هذا الاعتراف بالآخر يستتبع **البحثَ عن صعيد مشترك**:

﴿تَعالَوْا [أي: ارتفعوا] إِلَى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤]؛

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦]؛

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ٤٢/١٥].

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/١٥]

❁ ❁ ❁

وتتفرع عن هذه القيمة الرئيسية قيمتان فرعيّتان: أُولاهما **الانفتاحُ على الآخَر.**

فالله عزَّ وجَلَّ قد جَعَلَ الناسَ شعوباً وقبائلَ ليتعارفوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]. وما كان الله ليجعلَ الناسَ شعوباً وقبائل وهو يريدهم أن ينصهروا في بوتقة واحدة. وما كان الناس ليتعارفوا ما لم يَفْتَحْ كلٌّ منهم أبوابَ عقله وقلبه على مصاريعها لما عند الآخر.

والله سبحانه يبشِّر عباده ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾ - هكذا بإطلاق «القول» - ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ٣٩/١٨]. والنبيُّ ﷺ - فيما رُوِيَ عنه - يجعل الكلمة «الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها» [أخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن]. ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه في عبارة رائعة: «العلمُ ضالَّة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين» [رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/١٢١].

فهذه الملَّة «الوسطية» «الحنيفيَّة» لا تفرض أيَّ حظر من أيِّ نوع

كان على كلام الآخرين، ملفوظاً كان أم مكتوباً، ولا تُصادر أيَّ رأيٍ ولو كان كفراً. فالقرآن المجيد يقصُّ علينا ما قاله الآخرون بنصِّه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الرعد: ١٣/٧،٢٧] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [النحل: ١٦/٣٥]؛ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨]؛ ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/٨]؛ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦]؛ ونراه يطالبهم ببسط حجَّتهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء ٢١/٢٤، النمل ٢٧/٦٤]؛ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨]؛ ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ١٠/٦٨] .

وتعجبني في هذا المقام عبارة نفيسة لسلطان العلماء العز بن عبد السلام [في كتابه: الفتاوى الموصلية، ص: ١٣٤] يقول فيها: «وليس كلُّ ما فعلته الجاهلية منهياً عن ملابسته، إلا إذا نهت الشريعة عنه، ودلّت القواعد على تركه».

ثم إنَّ هذه الأمة الوَسَط تتَّصفُ بالخيرية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠]. وهذه الخيريّةُ تقتضي أن يكون انفتاحُها على الآخَر انفتاحاً إيجابياً يَصُبُّ في مصلحة هذا الآخَر: «أنتم خيرُ الناس للناس» [كما يقول أبو هريرة ﷺ]. ويتجلَّى ذلك أوَّلَ ما يتجلَّى في دعوة هذا الآخر إلى الخير: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٤]؛ وهذه الدعوة هي في الأصل رابعةُ المهمّات الرئيسية الخمس التي بُعِثَ بها رسول الله ﷺ وجاء ذكرُها في سورة الأحزاب [٤٦] وهي كونه ﷺ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٦]، ثم أصبحت مهمةً رئيسيةً من مهمّات كلِّ مَن اتَّبعه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٢/١٠٨]؛

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣].

❀ ❀ ❀

أما القيمة الفرعية الثانية المتفرعة عن الاعتراف بالآخر فهي **الاعتراف بالاختلاف**. فالله عز وجل يبيِّن أنه قد خلق الناس مختلفين، وأنهم سوف يظلُّون كذلك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٨]، وأنه ﴿لِذَٰلِكَ﴾ [هود: ١١/ ١١٩]- أي للاختلاف - ﴿خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١/ ١١٩]. وما كان الله ليأذَنَ بقَمْع هذا الاختلاف وهو قد خَلَقَ الناسَ له. وقد حَكَمَ سبحانه بأنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]. وقال لنبيه ﷺ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٢]؛ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٤٥]؛ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩]؛ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨]؛ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١/ ١١٨]. فليس من الإسلام ما يحاوله اليوم بعض من ينتسبون إليه، من محاولة قَسْر الناس على فكر واحد، سواء كان ذلك في نطاق المسلمين أو خارج هذا النطاق؛ بل إنَّ في هذه المحاولة مخالفةً صريحةً لأمر الله، والله عز وجل يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣].

❀ ❀ ❀

يبقى علينا أن نتناول عاملاً مهماً يتحكم في إملاء تعامُل الكثيرين منا مع الآخر، ولاسيَّما ذلك الآخر الذي في العالم الغربي. هذا العامل هو موقفنا من العَوْلَمَة.

وأكثرُ ما يخيف الناس من العَوْلَمَة، ما تفعله بثقافتهم. **والثقافةُ** أمرٌ عزيزٌ على (الإنسان) لَصيقٌ بذاته، فهي تلك الأصول الثابتة التي تنغرس في نفسه منذ مولده ونشأته الأولى، حتى يشارف حدَّ الإدراك البيِّن، جِماعُها كلُّ ما يتلقَّاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه، حتى يصبح قادراً على أن يستقلَّ بنفسه. فإذا استقلَّ، استبدَّ عقله بتقليب النظر، وإعمال الفكر، وممارسة التنقيب والبحث، ومعالجة التعبير عن الرأي. وثقافةُ الأمَّة، هي حصيلة ثقافات أبنائها، المثقَّفين بقَدْر مشترك، وهي مرآةٌ جامعةٌ - في حيّزها المحدود - كلَّ ما تَشَعَّثَ وتشتَّت وتباعَدَ من ثقافة كل فرد من أبنائها، على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة [«رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» لشيخنا الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله].

والحضارة هي المظهر المادي لهذه الثقافة. هي نتيجة استعمال المثقّفين بثقافة معينة لمعطيات العلم والتِّقانة (أو الصنائع - بتعبير ابن خلدون -) للارتقاء بالوضع المعاشي للإنسان. والثقافة تختلف عن الحضارة بأنها تناقش وتحاور وتؤثِّر، ولكنها تبقى متمسكة بذاتيّتها، أما الحضارة فتنزع إلى تعميم نفسها ما استطاعت. ولذلك رأينا الحضارات الكبرى تتجلى في شكل عوالم: العالم الروماني، والعالم الصيني، والعالم الإسلامي. ولقد مارست الحضارة العربية الإسلامية على طريقتها ضرباً من (العَوْلَمَة) - كما يقول الأستاذ جورج طرابيشي - إذ دَمَجَتْ بها ما لا يقل عن عَشْر من الثقافات الكبرى (القبطية والبربرية والنوبية مغرباً، والسريانية واليونانية والفارسية والخراسانية، مشرقاً مع قطاعات من الثقافتين الهندية

والصينية، فضلاً عن الثقافتين العربية المسيحية والعربية اليهودية اللتين عاشتا في كَنَفها). بل إنها تعدّت أفاعيل العَوْلَمَة المعاصرة بما استحدثته من انقلابات جذرية ونهائية في ديانات شعوب تلك الدائرة الكبرى، وفي لغاتهم، وحتى في طبيعة تكوينهم البشري.

وهكذا فإن الثقافة تسعى إلى التفرُّد، والحضارة تسعى إلى توحيد الثقافات ودمجها. والعالم الحديث ينزع أكثر فأكثر إلى أن يكون موحّد الحضارة متعدّد الثقافات. وهذه الثقافات تُغني الحضارة الكبرى وترفدها بأصالاتها وخصوصياتها ولكنها تندمج بها في الوقت نفسه.

والمؤسف أن كثيراً ممن ينتمون إلى الإسلام اليوم ينزلقون إلى موقف مُنْغَلق، ظانّين أنهم إنما يحققون ذاتهم بالقطيعة مع الحضارة (الأجنبية). وفي رأينا أن هذا موقف يحتاج إلى تصحيح. فالهجوم على الحضارة العالمية أو الانغلاق عليها، هو هجومٌ أو انغلاق على حضارة ورثت من الحضارة العربية الإسلامية الكثير. وإذا كنا نستنكر أو نضيق ذرعاً ببعض مساوئها، بل بكثير من مساوئها، فإن هذا لا يعني أن نتنكر لها ونحاربها، وإنما ينبغي أن يدفعنا ذلك إلى إصلاحها من الداخل.

وقد زاد من عدائنا للعَوْلَمَة المنطلقة من الغرب، أن الأمر يتعدَّى عالمَ الأشياء، وهو عالم لا انتماءَ له في حقيقة الأمر، إلى عالم القِيَم. فالغربيون يؤمنون إيماناً لا يقبل المناقشة، بأنهم دائماً على صواب، وبأن المستوى الصَّوَابيَّ للقِيَم هو المستوى الذي حدّدوه هم. أما قِيَم الآخرين فإنهم يجهلونها أو يَزْدَرُونها، بل يحاولون أن يفرضوا قِيَمهم على الآخرين.

العَوْلَمَةُ إذن ينبغي ألا تخيفنا! ومادمنا نؤمن بأصالتنا ونَعي ثقافتنا، ونؤمن في الوقت نفسه بالحوار والانفتاح على الآخر، ونؤمن بالعلم النافع إيماناً ليس له حدود، فإن هذه العَوْلَمَة تمثل بالنسبة إلينا - إذا أحسنّا الاستفادة منها - جواً صحياً يتيح لنا تعريف الناس بأفكارنا وقِيَمنا وأخلاقنا، كما يتيح لنا مجالاً نحقق فيه ذاتنا من خلال رَفْدِ العلم العالمي والحضارة العالمية بما نستطيع.

نحن لا نعادي الثقافات الأخرى، وإنما نناقشها ونجادلها ونحاورها. ولا يجوز لنا ونحن نشكو من الاستشراق؛ أن نمارس استشراقاً معكوساً يفضي بنا إلى أن نخرج على حضارة العصر، ونخرج منها إما إلى اللاحضارة، وإما إلى حضارتنا العربية الإسلامية القديمة التي مازالت - في رأينا - ماثلةً في حضارة العصر بما صَلَحَ أن يبقى منها في حضارة العصر.

ولكننا لا نريد أن نعتنق ثقافة العَوْلَمَة بخيرها وشرِّها، وحُلْوها ومُرِّها، وما يُحمد منها وما يُعاب، بل نريد أن نرشِّد هذه المسيرة من الداخل، ولا نأخذ منها شيئاً إلا بعد عرضه على أسلوبنا في التفكير والنظر والاستدلال، فما استجاب له قَبَسناه، ولم نجد في ذلك أيَّ حرج، وما استعصى عليه سَعَيْنا جهدنا في تصحيحه وتقويمه، ولم نكتف بمجرد نبذه واطراحه.

وسوف يكون موقفاً مشرِّفاً لنا، أن نضيف إلى هذه الحضارة العالمية ما ينقصها من روح وخُلُق ومُثُل وقِيَم.

مفهوم الشعر عند العرب

أ.د. وليد إبراهيم قصاب

مفهوم الشعر عند العرب

أُثرت عن النقاد العرب تعريفات كثيرة مختلفة للشعر، وهي تعريفات غير متناقضة ولا متنافرة، بل هي تعريفات متكاملة، يتمِّم بعضها بعضاً، وقد ينظر أحدها إلى الشعر من وجه معين غير الوجه الذي ينظر منه ناقد آخر.

ولكنّ هذه التعريفات الكثيرة التي حفظها التراث النقدي لنا - على تباين وجهات النظر فيها - تحدِّد لنا تماماً مفهوم العرب للشعر تحديداً واضحاً بيِّناً، لا تضلّ فيه الأفهام، ولا تتوه فيه الظنون، كما هو حاصل الآن في النقد الأدبيّ الحديث.

١- الشعر من الخارج

أُثرت عن النقاد العرب تعريفات كثيرة للشعر؛ ركّزت على مظهره الخارجيّ الذي يميّزه من الجنس الأدبيّ الآخر عند العرب، وهو النثر بأشكاله المختلفة التي عرفوها.

وهذا المظهر الخارجي يمثله عندهم (الوزن والقافية) وقد يجمعونهما معاً تحت اسم (الوزن) أو (النظم).

من ذلك تعريف قدامة بن جعفر (ت: **٣٣٧** هـ) المشهور: «الشعر كلام موزون مقفى؛ يدل على معنى»(١).

ومنه تعريف ابن طباطبا: «الشعر كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خُص به من النظم الذي إن عُدل به عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق»(٢).

وتعريف التبريزي إذ يقول: «الشعر عبارة عن ألفاظ منظومة تدلّ على معان مفهومة»(٣).

وعرفه أبو العلاء بقوله: «كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس»(٤).

ومثل هذه التعريفات صحيحة، ولا ضير فيها، وهي تعرِّف الشعر بحسب مظهره الخارجي، من حيث إنه كلام مركَّب على نسق نظمي معين، أو على وفق نظام موسيقي خاص به يميزه من النثر الذي لا يلتزم هذا النظام، بل يمضي مرسلاً من غير ضوابط عروضية.

وهو - في رأينا، وإن لم يكن مستوفياً - دقيقٌ لأنه وضع اليد على المَعْلَم الأساسيّ الواضح بين ما هو شعر وما هو نثر؛ إذ إن

(١) نقد الشعر: **١٢**.
(٢) عيار الشعر: **٥**.
(٣) نضرة الإغريض في نصرة القريض: **١٠**.
(٤) رسالة الغفران: **٢٤٢**.

جميع ما سيُضاف إلى هذا التعريف من مظاهر الشعر الداخلية التي لم يهملها النقاد العرب، هي مظاهر قد تكون مشتركة بينه وبين النثر، ولا تميّزه من النثر بشكل واضح.

٢- الشعر من الداخل

وهنالك طائفة من النقاد العرب لم تنظر إلى الشعر من حيث شكله الخارجي، فهذه مسألة محسومة لا خلاف عليها، فركّزوا على جوهره الداخلي، على طبيعته الفنية الجمالية. إن (الوزن) أو (النظم) وحده لا يصنع شعراً متألقاً، يصنع - كما سيطلقون على ذلك - (شعراً نظمياً) أو (نظماً) من الشعر، ولكنه لا يحقّق (الشعرية) التي هي خصائص فنية تنبع من داخل الشعر، وتمثل جوهره.

يقول الأصمعيّ: «الشعر ما قلّ لفظه وسهُل، ودقّ معناه ولطُف، والذي إذا سمعتَه ظننت أنك تناله، فإذا حاولته وجدته بعيداً، وما عدا ذلك فهو كلامٌ منظوم»[١].

ويشير يحيى بن المنجم إشارة واضحة إلى أن للشعر عناصر أخرى زيادة على الوزن والقافية، وهو لا يحدّدها، ولكنه يجعلها مطلباً فيه. يقول: «ليس كل من عقد وزناً بقافية فقد قال شعراً. الشعر أبعد من ذلك مراماً، وأعزّ انتظاماً»[٢].

---

(١) نضرة الإغريض: ١٠.
(٢) الموشح: ٥٤٧.

ويُنشِدُ إسحاقُ بن إبراهيم الموصلي أبا عبيدة أبياتاً لبعض القدماء، فيقول له: «أترى فيها مثلاً، أو معنى حسناً؟ من جعلك حامل أسفار؟»(١).

ولكن الجاحظ كان شديد الوضوح في تحديد هذه الجماليات، وبيان جوهر الشعر وحقيقته الفنية في عبارته المشهورة: «فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير..»(٢).

وفي هذا السياق يحضر كلام ابن رشيق الذي نقله عن غير واحد من العلماء. يقول: «الشعر ما استُعمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع، وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن»(٣).

وقوله: «إنما سمّي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني.. كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير..»(٤).

كما نقل ابن رشيق عن العلماء قولهم عن الشعر: «إنه لا ينبغي أن يكون خالياً من هذه الحُلَى، يقصدون ضروب الصنعة: كالتمثيل،

---

(١) السابق: ٥٤٨.
(٢) الحيوان: ٣/ ١٣١.
(٣) العمدة: ١/ ١٢٢.
(٤) العمدة: ١/ ١١٦.

والتشبيه، والاستعارة. ووصفوا الشاعر الذي يخلو من هذه الوجوه بأنه يُخلي. واعتبروا الإخلاء عيباً في الشعر»[(١)].

والحقُّ أن هذا الاهتمام بداخلية الشعر، والوقوف عند جوهره الجمالي المتمثل في الخيال والصورة واللغة المجنحة الباهرة معروف منذ البدايات الأولى في النقد العربي، ولم يكن بسبب تأثره بفكرة المحاكاة وآراء أرسطو كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين المعاصرين.

فهذا الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ينشده الراعي النميريّ:

أخليفةَ الرحمن إنا معشرٌ
حنفاءُ نسجد بُكرةً وأصيلا
عربٌ نرى لله في أموالنا
حقَّ الزكاة منزّلاً تنزيلا

فيقول له عبد الملك: «ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلام، وقراءة آية»[(٢)].

ومن قبيل ذلك ما روي من أن عليّ بن الجهم بدأ قصيدة له في مدح المتوكل بقوله:

الله أكبرُ والنبيُّ محمدُ
والحقُّ أبلجُ والخليفة جعفر

فقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر معلِّقاً على هذا الشعر:

(١) السابق: ١/ ٢٨٥.
(٢) الموشح: ٢٤٩.

أراد ابـنُ جـهـمٍ أن يـقـول قـصـيـدة
بـمـدح أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فـأذّنـا[(١)]

وقبل ذلك - منذ العصر الجاهلي - تمثّل حسان بن ثابت رضي الله عنه هذه الخصوصية الداخلية في تشكيل الكلام الشعري، فقد روي أن ابناً له شكا لسعة زنبور قائلاً: «لسعني طائر كأنه ملتف في بُرْدَي حِبَرة»، فقال له حسان: «قلت والله الشّعر»[(٢)] أي قولاً شعرياً، أو كلاماً شاعرياً، وليس شعراً بالمفهوم المتعارف عليه عند العرب كما فهم ذلك بعض المعاصرين.

٣- الشعر الحقيقي بمظهريه

ومن عجب أن يتوقف بعض الدارسين المعاصرين عند تعريف قدامة وحده، ثم يعمِّم في الحكم، فيزعم «أن النقاد العرب حصروا تعريف الشعر بالإيقاع الخارجيّ، أو التطريب الذي نراه يهيمن على تعريفاتهم الشهيرة للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، أضيفت إليه المحاكاة في المرحلة التي تأثر فيها النقاد والفلاسفة العرب بمنطق أرسطو ومؤلفاته»[(٣)].

وهذا كلام بعيد على الحقيقة، إذ يربط معرفة النقاد العرب بأثر المحاكاة أو التخييل في الشعر باطلاعهم على ما كتبه أرسطو، وقد

(١) الموشح: ٥٢٧.
(٢) الكامل للمبرد: ١/ ١٦٤.
(٣) حاتم الصكر، بحث (قصيدة النثر والشعرية الجديدة) مجلة فصول (المجلد ١٥، المجموع ٣، خريف ١٩٩٦)، ص ٧٥.

رأينا في الفقرة السابقة التي لم نورد فيها إلا شواهد يسيرة أن النقاد العرب فطنوا منذ فترة مبكرة جداً إلى أهمية (التخييل) في الشعر، وجعلوه مظهراً رئيساً من مظاهر الشعر.

وسنرى في هذه الفقرة أن أغلب تعريفات الشعر التي أثرت عن النقاد العرب، وقفتْ عند مظهريه معاً: الخارجي متمثلاً في الوزن، والداخلي متمثلاً في بنية التخييل الجمالية.

الشعر الحقيقي عند العرب كلام (موزون) و (مخيّل) أي ذو صنعة فنية متميزة. لا شعر عندهم من غير وزن، ولا شعر حقيقياً، أو رفيعاً، من غير هذه الصنعة الفنية المتميّزة.

فالجاحظ الذي ألحّ على دور الصياغة في الشعر يتحدث عن أهمية إقامة الوزن فيه، فيقول عن الشعر الحقيقي: «وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[١].

ويقول الفارابي: «قوام الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفاً مما يحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية. ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوامه وجوهره، وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل. وأعظم هذين في قوام الشعر هو المحاكاة»[٢].

(١) الحيوان: ٣/ ١٣١.
(٢) جوامع الشعر (ضمن تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر) (تحقيق: محمد سليم سالم)، ١٧١.

ويقول ابن سينا (ت ٤٢٨): «إن السبب المولد للشعر في قوة الإنسان شيئان: أحدهما الالتذاذ بالمحاكاة، والسبب الثاني حبّ الناس للتأليف المتفق والألحان طبعاً، ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان، فمالت إليها الأنفس وأوجدتها، فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية، وجعلت تنمو نمواً يسيراً تابعة للطباع»[(١)].

ويقول ابن رشد (ت ٥٢٠ هـ): «قال: (أي أرسطو) يشبه أن تكون العلل المولدة للشعر بالطبع في الناس علتين: أما العلة الأولى فوجود التشبيه والمحاكاة.. وأما العلة الثانية فالتذاذ الإنسان أيضاً بالطبع بالوزن والألحان.. فالتذاذ النفس بالطبع والمحاكاة، والألحان والأوزان، هو السبب في وجود الصناعات الشعرية، وبخاصة عند الفطر الفائقة في ذلك»[(٢)].

ويقول ابن رشد كذلك: «قال: والشاعر لا يحصل مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن.. وهذا الذي قاله (أي أرسطو) هو بحسب عادتهم في الشعر الذي يشبه أن يكون هو الأمر الطبيعي للأمم الطبيعية»[(٣)].

ويقول ابن رشد: «قال: وكثيراً ما يوجد من الأقاويل التي تسمى أشعاراً ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط.. قال: ولذلك

---

(١) فن الشعر من كتاب الشفا، ضمن كتاب (فن الشعر) لأرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي (بيروت - لبنان)، ١٧٢.
(٢) تلخيص كتاب الشعر، لابن رشد، تحقيق تشارلس بترورث، وأحمد هريدي، (القاهرة ١٩٨٧ م)، ٦٤.
(٣) المرجع السابق: ٧٧.

لا ينبغي أن يسمّى شعراً بالحقيقة إلا ما جمع هذين»[١].

ويقول ابن رشد كذلك: «قال: والقول إنما يكون مختلفاً، أي مغيّراً عن القول الحقيقي. وقد يستدل على أن القول الشعري هو المغيّر أنه إذا غيِّر القول الحقيقي سمّي شعراً أو قولاً شعرياً ووجد له فعل الشعر، مثال ذلك قول القائل:

ولـمّـا قـضـيـنـا مـن مـنـى كـلَّ حـاجـةٍ
ومـسّـح بـالأركـان مـن هـو مـاسـحُ

أخـذنـا بـأطـراف الأحـاديـث بـيـنـنـا
وسـالـت بـأعـنـاق الـمـطـيّ الأبـاطـحُ

إنما صار شعراً من قبل أنه استعمل قوله:

أخـذنـا بـأطـراف الأحـاديـث بـيـنـنـا
وسـالـتْ بـأعـنـاق الـمـطـيّ الأبـاطـحُ

بدل قوله: تحدَّثنا ومشينا[٢]. وكذلك قوله:

بـعـيـدة مـهـوى الـقـرط ابـنـا لـنـوفـل
أبـوهـا وإمـا عـبـدِ شـمـسٍ وهـاشـم

إنما صار شعراً لأنه قال: « بعيدة مهوى القرط» بدل قوله: طويلة العنق. ومثله قول الشاعر:

(١) المرجع السابق: ٥٨.
(٢) تلخيص كتاب الشعر لابن رشد، تحقيق تشارلس بترورث، وأحمد هريدي، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م)، ١٢٢.

يـــادار أيـــن ظـــبـــاؤكِ الـــلُّـــعْـــسُ

قـــد كـــان لـــي فـــي أنـــســـهـــا أُنـــسُ

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها وأبدل لفظ النساء بالظباء وأتى بموافقة الإنس، والأنس في اللفظ.

وأنت إذا تأملتَ الأشعار المحركة وجدتَها بهذه الحال وما عري من هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط»[١].

وقال حازم القرطاجني في تعريفه: «كلام موزون مقفّى، من شأنه أن يحبِّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرِّه إليها ما قُصد تكريهُه، لتُحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصوّرة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه، أو قوة شدته بمجموع ذلك»[٢].

وعرفه ابن خلدون بقوله: «الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كلّ جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده.. وقولنا المفصّل بأجزاء متّفقة في الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكلّ..»[٣].

٤- لا شعر من غير وزن

نخلص من النصوص الواضحة الدلالة التي أوردناها إلى أن الشعر عند العرب لا يكون إلا موزوناً، ولا يسمى الكلام شعراً

(١) المرجع لسابق: ١٢٢.
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٧٢.
(٣) مقدمة ابن خلدون (ط وافي)، ٣/ ١٣٠٥.

إلا بالوزن، وتختلف قيمة هذا الشعر، وجمالياته، ومنزلة قائله بحسب ما يستوفي من عناصر المظهر الداخلي، ولكن المظهر الداخلي وحده لا يصنع شعراً، يصنع (شعرية) أو (شاعرية) أو (قولاً شعرياً) أو ما شاكل ذلك على نحو ما سنرى، ولكنه لا يصنع شعراً، لأن الوزن هو العنصر الذي يصنع الشعر، وهو المَعْلَم الفارق بينه وبين النثر.

يقول ابن رشيق معبّراً عن هذه الحقيقة بوضوح تام: «الوزن أكبر أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها بالضرورة»[(١)].

والوزن عند العرب ليس عنصراً خارجياً فحسب، ولكنه من صميم بنيته الجمالية. يقول الكلاعيّ: «إن القريض قد تزيّن من الوزن والقافية بحلة سابغة ضافية، صار بها أبدع مطالع، وأنصع مقاطع، وأبهر مياسم، وأنور مباسم»[(٢)].

ويشبه أبو هلال العسكري الوزن في الشعر باللحن في الموسيقا، فكما أنه لا موسيقا من غير لحن كذلك لا شعر من غير وزن. يقول: «وممّا يفضل به الشعر أن الألحان لا تتهيأ صنعتها إلا على كلِّ منظوم من الشعر»[(٣)].

---

(١) العمدة: ١/ ١٣٤.
(٢) إحكام صنعة الكلام: ٤٦.
(٣) الصناعتين: ٤٤.

٥- الشعر نوعان: شعر ونظم

إذا كان الشعر عند العرب لا يكون إلا موزوناً فإن هذا لا يعني أن جميع ضروب هذا الموزون سواء، أو هي في مستوى واحد من حيث الفنية والقيمة والتأثير.

إن هناك ضرباً من (الشعر) لم يستوفِ من خصائص هذا الجنس إلا المظهر الخارجي، أي الوزن والقافية والمعنى معروضاً بأسلوب عادي، وصياغة لغوية خالية من الجماليات، إنه شعر ذو لغة أقرب إلى لغة الخطاب العادي الذي يتداوله عامة الناس، ولا يفترق عنها إلا في كونه قد ورد منظوماً على وزن من أوزان الشعر المعروفة، وقد خصت العرب هذا النوع من الشعر بمصطلح (النظم).

والنظم شعر هابط المستوى، ينقصه التخييل والبراعة وفنية الأداء مما هو من جوهر الشعر الداخلي كما ذكرنا.

وأما مصطلح (الشعر)، فيُطلق على الشعر الرفيع، على القول الفني الموزون، على الشعر الحقيقي، على ما استوفى مظهريْ هذا الجنس الأدبي: الخارجي والداخلي، وكأن (أل التعريف) عندئذ تفيد الاستغراق المجازي في خصائص الجنس، كقولك: «فلان هو الرجل» أي الرجل الحقيقي الذي استوفى جميع خصائص الرجولة. وكذا قولك: «هذا هو الشعر» أي الشعر الحقيقي الرفيع.

وقد بدا هذا التقسيم واضحاً في كلام الأصمعي الذي سبق أن

مرّ معنا عندما عرف الشعر بقوله: «الشعر ما قلّ لفظه وسهُل، ودقّ معناه ولطُف.. وما عدا ذلك فهو كلام منظوم»[١].

وبدا بشكل أكثر وضوحاً عند أبي العلاء المعري؛ فقد حدّث تلميذه أبو زكريا التبريزي، قال: كنت أسأل المعري عن شعر أقرؤه، فيقول لي: هذا نظم جيد، فإذا مرّ به نظم جيد قال: يا أبا زكريا، هذا هو الشعر»[٢].

ويبدو أن أبا العلاء المعري ربط ما يميّز الشعر من النظم بالغريزة، فهو يقول في تعريف الشعر: «الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس»[٣].

وشايع المظفّر العلوي أبا العلاء على رأيه، ففرّق بين الشعر والنظم، مستشهداً بموقف المعري الذي كان يسمّي بعض أنواع الشعر المتهافت نظماً[٤].

وسخر حازم القرطاجني الذي يُعَرِّف الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى الذي يحبِّب - بسبب حسن تخييله - إلى النفوس ما قُصد تحبيبه إليها، أو يكرّهها بما قُصد تكريهه، من أولئك الذين لم يفرقوا بين الشعر والنظم، واشتبهت الطرق عليهم «فرأوا أخسّاء العالم قد تحرّفوا باعتفاء الناس، واسترفاد سواسية السُّوق، بكلام صوّروه في صورة الشعر من جهة الوزن والقافية خاصة،

(١) نضرة الإغريض: ١٠.
(٢) المرجع السابق: ١٢.
(٣) رسالة الغفران: ٢٤٢.
(٤) انظر (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) لإحسان عباس: ٦١٨.

من غير أن يكون فيه أمر آخر من الأمور التي بها يتقوّم الشعر»[١].

ويبدو أن مصطلح (النظم) الذي يستعمله بعض النقاد العرب للتعبير عن مستوى عادي من الشعر الذي لم يستوفِ من (الشعرية) إلا مظهرها الخارجي؛ مسبوق ببعض التعبيرات المشابهة التي تحمل الدلالة نفسها.

يروى أن حماداً الراوية جاء إلى الكميت، فقال له: أكتبني شعرك. قال: أنت لحّان ولا أكتبك شعري. فقال له: وأنت شاعر، إنما شعرك خطب[٢].

نخلص مما تقدّم إلى أن الشعر عند العرب لا يكون إلا كلاماً موزوناً دالًّا على معنى، ولكن هذا الكلام الموزون إذا لم يُقدّم بأسلوب الفن الرفيع، وانطفأت فيه جماليات التعبير، وروعة التخييل والتصوير، كان شعراً متدنياً، هابط المستوى، اسمه (النظم).

وأما ما قام من الكلام الموزون على التخييل، والبراعة في التشكيل، والإدهاش في العبارة، فهو الشعر الرفيع، المستحق لقب (الشعر).

وأما الكلام الذي لا يقوم على الوزن، ولا ينظم على العروض المعروف، فهو - عند العرب، وبأشكاله وصوره المختلفة - (نثر).

---

(١) منهاج البلغاء: ١٢٥.
(٢) الموشح: ٣٠٨.

٦- القول الشعري

عرفت العرب - على مستوى الإبداع والتنظير - نوعاً راقياً من النثر الأدبي، تميّز - كالشعر - بلغته الأنيقة، وصوره الخلابة الرائعة، وافترق عن الشعر في أنه كلام غير موزون، بل هو مرسل إرسالاً، لا ينضبط بالعروض الشعري المعروف، وقد أطلق النقاد العرب على هذا النوع من النثر مصطلح (القول الشعري).

يقول الفارابي: «القول إذا كان مؤلفاً مما يحاكي الشيء، ولم يكن موزوناً بإيقاع فليس يعدّ شعراً، ولكن يقال: هو قول شعري، فإذا وُزن - مع ذلك - وقسم أجزاء، صار شعراً، فقوام الشعر وجوهره عند القدماء أن يكون قولاً مؤلفاً ممّا يحاكي الأمر، وأن يكون مقسوماً بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام جوهره، وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل.

وأعظم هذين في قوام الشعر هو المحاكاة، وعلم الأشياء التي بها المحاكاة، وأصغرها الوزن»[(١)].

يختلف الفارابي - كما هو ظاهر - عن ابن رشيق في تقدير كلٍّ منهما لقيمة (الوزن) ومنزلته في الشعر، فهو عند ابن رشيق - كما سبق أن مرّ - «أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية»[(٢)].

(١) جوامع الشعر (ضمن تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر) تحقيق محمد سليم سالم، ١٧٢.
(٢) العمدة: ١/ ١٣٤.

ولكنه عند الفارابي أصغرها، ولكنهما يتفقان معاً في أن الكلام لا يكون شعراً إلا بالوزن، ولم ينفِ الفارابي أن الوزن شرط من شروط الشعر كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين المعاصرين(١)، ولا عدّ «القول الشعري» شعراً، بل هو يسميه بنص واضح (القول الشعري) ويقول إنه لا يعدّ شعراً.

وأوضح ابن سينا هذه المسألة إيضاحاً لا زيادة عليه، فذكر أن خاصية التخييل التي يتمسك بها بعضهم ليجعل النثر الذي استوفاها شعراً، حظّ مشترك بين كلا الجنسين: الشعر والنثر، بل قد تحضر في النثر، وتغيب عن الشعر، ولذلك فهي ليست مَعْلَماً فارقاً بين الشعر والنثر؛ فالشعر الحقيقي لا يتحقق إلا بالوزن والتخييل معاً.

يقول ابن سينا: «وقد تكون أقاويل منثورة مخيّلة، وقد تكون أوزان غير مخيّلة؛ لأنها ساذجة بلا قول، وإنما يوصف الشعر بأن يجتمع فيه القول المخيِّل والوزن»(٢).

التخييل إذن قد يوجد في الشعر والنثر معاً، ولكن حضوره في أي كلام غير موزون - مهما كان حظ هذا الحضور - لا يجعله شعراً، بل هو قول شعري.

ويضرب الفارابي مثلاً بالخطابة الفنية، التي قد تستعمل حظاً من (المحاكاة) أو (التخييل) ولكن ذلك لا يجعل الخطابة شعراً، بل هي نثر نحا منحى الشعر.

---

(١) وليد سعيد الشيمي، مجلة عالم الفكر (العدد الثاني، المجلد ٣٠ أكتوبر / ديسمبر: ٢٠٠١ م)، ١٩٠.
(٢) فن الشعر من كتاب الشفا: ١٧٢.

يقول الفارابي: «والخطابة قد تستعمل شيئاً من المحاكاة يسيراً، وهو ما كان قريباً جداً، واضحاً مشهوراً عند الجميع، وربما غلط كثير من الخطباء الذين لهم من طبائعهم قوة على الأقاويل الشعرية، فيستعمل المحاكاة أزيد مما شأن الخطابة أن تستعمله، غير أنه لا يوثق به، فيكون قوله عند كثير من الناس خطبة بليغة، وإنما هو - في الحقيقة - قول شعري قد عُدِل به عن طريق الخطابة إلى طريق الشعر»[١].

ويستعمل ابن رشد كذلك مصطلح (القول الشعري) ليطلقه على القول المخيّل غير الموزون، والقول المخيّل هو القول الذي غيّر عن الحقيقة، أي حصل فيه عدول أو انزياح، كما نقول بلغة النقد المعاصر، وهذا القول المُغَيَّر هو الذي يستحق أن يسمّى شعراً، أو قولاً شعرياً: الأول لما كان موزوناً، والثاني لما لم يكن موزوناً.

وذلك أن ابن رشد - متفقاً في ذلك مع أرسطو - يرى أن الشعر ينبغي أن يتحقق له التخييل والوزن، وأن الأول منهما لا يتحقق له المراد إلا بالثاني، أي لا يكون شعراً حقيقياً حتى يجتمعا.

يقول ابن رشد: «قال: والشاعر لا يحصل مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن.. وهذا الذي قاله (أرسطو) هو بحسب عاداتهم في الشعر الذي يشبه أن يكون هو الأمر الطبيعي للأمم الطبيعية»[٢].

(١) جوامع الشعر: ١٧٣.
(٢) المرجع السابق: ٧٧.

ويقول في موضع آخر: «وكثيراً ما يوجد من الأقاويل التي تسمّى أشعاراً ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط.. ولذلك ليس ينبغي أن يسمّى شعراً بالحقيقة إلا ما جمع هذين»[١].

٧- ردّ شبهة

وقد زعم بعضهم - استناداً إلى نصوص غير دالة - أن العرب عرفت نوعاً من الشعر غير الموزون، أو أن الشعر لم يرتبط عندها بالوزن دائماً، ويسوق أصحاب هذا الزعم الحجج التالية:

١- قول حسان لابنه: «قلت والله الشعر» عن عبارته: «السعني طائر كأنه ملتف في بردي حِبَرَة»[٢].

والحق أن هذه العبارة منصرفة إلى ما في هذه العبارة التي نطقها الغلام من جمالية وفنية تقربانها من لغة الشعر، فهي ليست منصرفة إلى المصطلح، إنها تتحدث عن الأثر الجمالي الذي يحدثه مثل هذا الكلام. إنها وصف (لشعرية) أو (شاعرية) الكلام، وهي تشبه وصف شيء ما - وإن لم يكن من جنس الكلام أصلاً - بأنه شاعري، كقولنا: مكان شاعري، ولقاء شاعري، وصوت شاعري، وجلسة شاعرية، وما شاكل ذلك.

وإلا فإن العرب - منذ الجاهلية - كانت تعرف مدلول الشعر، لا على مستوى الإبداع التلقائي فحسب، بل على المستوى التنظيري

(١) المرجع السابق: ٥٨.
(٢) ألف باء للبلوي: ١/٥٨.

التطبيقي كذلك، كان عندها مقروناً بالوزن، بالموسيقا، بالإنشاد، بالغناء، وهذه كلها من حقل واحد.

فهذه أم جندبٍ في حكمها المشهور بين زوجها امرئ القيس ومنافسه علقمة بن عبدة، تقول لهما بشكل واضح يشعر بمعرفتها أن الشعر كلام موزون مقفى. تقول لهما: «قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة، وروي واحد. فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خليليَّ مرّا بي على أم جندب
نقضِّ لُبَاناتِ الفؤاد المعذب

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها:

ذهبتَ من الهجران في كلّ مذهب
ولم يكُ حقاً طولُ هذا التجنُّب(١)

ومن الواضح أنهما من البحر الطويل، وعلى روي الباء المكسورة.

كما أن النصوص تشعر بمعرفة العرب منذ الجاهلية بموسيقا الشعر وقوافيه، وما يداخل هذه الموسيقا من عيوب كالإقواء الذي عيب على النابغة الذبياني، ونُبِّه عليه، فلم يعد إليه(٢).

٢- وصف بعض العرب القرآن الكريم بأنه شعر: وهذا أيضاً

(١) الأغاني: ٢١/ ٢٠٢، والموشح: ٢٩.
(٢) الشعر والشعراء: ٢٧٠، الموشح: ٨٠.

منصرف إلى وصف جمال هذا الكلام وفنيته؛ فشبهوه بما هو أرقى أنواع الكلام عندهم، وهو الشعر. وليس من قبيل اعتقادهم أن الشعر قد لا يكون موزوناً، أو أنه يمكن أن يكتب بغير وزن.

كما قد يعني - من وجه آخر - إحالتُهم هذا الكلام المُعْجِب المؤثِّر إلى مصدر غيبي، أو خارجٍ عن تصورهم، فشبّهوا القرآنَ بالشعر، لما كانوا يعتقدونه من إلهام الشياطين للشعراء، ومما يدلّ على هذا أنهم ربطوه كذلك بالسحر، والكهانة، والجنون، وما شاكل ذلك.

ويشهد على معرفة العرب اليقينية بالشعر، وإدراكهم - وإن كابروا - أن القرآن الكريم ليس بشعر، ما جاء في حديث أبي ذر عن سبب إسلامه. قال أبو ذر: قال لي أخي أنيس: لقيت بمكة رجلاً يقول: إن الله تعالى أرسله - يعني محمداً ﷺ - فقلتُ: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، ساحر، كاهن. قال أبو ذر: وكان أنيس أحد الشعراء، فقال: تالله، لقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فلم يلتئم على لسان أحد»[1].

وإذن فإن مفهوم الشعر أنه الكلام الموزون المقفى كان واضحاً عند العرب منذ العصر الجاهلي، على مستويي: الإبداع والتنظير، لا كما قالت سلمى الخضراء الجيوسي من أن اتهام قريش للنبي ﷺ بأنه شاعر «تبيّن أن التفريق بين النثر والشعر لم يكن حتى ذلك الوقت

(١) الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ١٢٤. وأقراء الشعر: قوافيه.

واضحاً، وأن عرب الجاهلية لم يجدوا غضاضة - من وجهة نظر فنية - في أن يصفوا النثر القرآني النفيس البالغ الأثر بأنه شعر»[١].

وخلاصة القول:

إن العرب لم تسمِّ أي كلام غير موزون شعراً، بل هو عندها نثر يأخذ تسميات مختلفة بحسب طبيعته. ومن ثم فلا أصل لما يُدعَى اليوم (قصيدة نثر) إذ الكلام لا يمكن أن يكون شعراً ونثراً في وقت واحد، فهذا جمع بين الأضداد لم يعرفه تراثنا العربي، وهو بدعة غربية، مصدرها التقليد والاحتذاء لما عند الآخر.

---

(١) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث: ٦٨٧.

العقل والقانون الأخلاقي
ظاهرتان انبثاقيتان وُهبتا للإنسان*

هاني خليل رزق**

إننا سنستعمل في هذه الدراسة تعابير العقل esprit, mind، والاستعراف cognition، والمقدرة على البيان (التعبيرية) expressivité, expressivity، استعمالاً ترادفياً. والعقل لغوياً، كما جاء في «لسان

---

* لقد تم إعداد هذه الدراسة الموجزة بمناسبة تكريم الأستاذ (محمد عدنان سالم). إنه ليطيب لي أن أهدي هذه الدراسة المتواضعة له. ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة، بعضها: ١- شغف المحتفى به بالمعرفة عامة، والعلمية منها على وجه التخصيص، وبالنشر الفعلي لهذه المعرفة. ٢- قلمه الغزير في الدفاع عن حرية الفكر، وعن المفهوم الصحيح للمواطنة، وعن الحق العربي. ٣- جهده الحثيث والدائم للارتقاء بالإنسان العربي إلى إنسان قارئ، جدير بـ «أمة اقرأ». ٤- تجسيده هذه الخِلال تجسيداً فعلياً مخلصاً بما يكتبه وبما ينشره. ٥- إسهامه المتميز في نماء الفكر العربي وتطويره.

** دكتوراه الفلسفة في البيولوجيا، فيرجينيا، تشارلوتزفيل، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية؛ أستاذ علم الجنين في جامعة دمشق (سابقاً)؛ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

العرب المحيط» لمؤلفه «ابن منظور»، «محمد بن مُكرَّم» **(١٢٣٢ - ١٣١١)**، يعقل الإنسان فيمسكه عن فعل الشر، الأمر الذي أدَّى - كما سنرى لاحقاً - إلى انبثاق القانون الأخلاقي للإنسان. ولكن قبل أن نفصل في موضوع انبثاق العقل علينا أن نُعَرِّف ظاهرة الانبثاق phénomène emergent, emergent phenomenon نفسها. إن هذا التعبير يشكل قسماً متميزاً **من أقسام المعرفة** épistémologie, epistemology؛ علم يقوم على دراسة أصل المعرفة وطبيعتها وطرائق فهمها وحدود تخومها القصوى ومدى وثوقيتها. ويعتمد علم المعرفة في نظرياته على فهم المنطق الذي تبنى عليه العلوم. أما تعبير ظاهرة الانبثاق؛ فلقد وضع في عام **١٨٧٥** من قبل «جورج هنري لويز» **(١٨١٧ - ١٨٧٨)** Gorge Henry Lewes. **وتُعرَّف ظاهرة الانبثاق بأنها ظهور خاصة جديدة كلياً في جملة ما، بحيث لا يمكن التنبؤ بهذه الخاصة عن طريق فهم العناصر المكونة للجملة. وللتبسيط نقول: إن خاصة الماء كسائل لا يمكن التنبؤ بها عن طريق دراسة خصائص كل من الهيدروجين والأوكسجين (العنصرين المكونين للماء). فسيولة الماء إذن ظاهرة انبثاقية. كما أن تيارات الحمل التي تسبق غليان الماء هي أيضاً ظاهرة انبثاقية، لأنه لا يمكن التنبؤ بهذه التيارات عن طريق فهم خصائص الماء كمادة سائلة.**

ومع أنه لا يعرف على وجه الدقة متى وُضع تعبير epistemology (من اليونانية episteme المعرفة، + - logy - logia - علم)، إلا أن هذا التعبير ظهر لأول مرة في كتابات فلاسفة القرن التاسع عشر، وقُرر استعماله حديثاً عام (١٩٠٦). وبالنظر إلى أن علم المعرفة يقوم

على أساس فهم المنطق الذي تُبنى عليه العلوم، فإننا نجده متضَمناً في فلسفة أفلاطون Platon، (٤٢٧ - ٣٤٧ قبل الميلاد). فالكون قابل للإدراك لأن له بنية يمكن فهمها. ونرى في دراستنا هذه أن الكون نفسه يشكل ظاهرة انبثاقية، ذلك أنه لا يمكن التنبؤ ببنيته من دراسة العناصر المكونة لكواكبه[١] (سبعون ألف مليار مليار - أو ٧ × ١٠ ^٢٢^ - كوكباً)، ولمجراته (مئة مليار - أو ١ × ١٠ ^١١^ - مجرة)، التي تتوزع عليها هذه الكواكب.

لنعد الآن إلى العقل أو الاستعراف أو البيان. إننا هنا نجد أنفسنا أمام سؤالين رئيسين: **أولاً**، ما هو أصل العقل من الناحيتين البيولوجية والتطورية؟ **ثانياً**، ما هو أصل العقل كظاهرة انبثاقية؟

أولاً - الأصل البيولوجي[٢] والتطوري[٣] للعقل

يقول «شارل روبرت داروين» (١٨٠٩ - ١٨٨٢) Charles Robert Darwin في كتابه الموسوم بالعنوان «أصل الإنسان» The Descent of

(١) انظر «رزق، هاني»: «موجز تاريخ الكون، من الانفجار الأعظم إلى الاستنساخ البشري»، «دار الفكر»، دمشق، الصفحات ٧٣ - ١٧٣ - (٢٠٠٣). يحوي هذا الكتاب عشرات المراجع ذات الصلة.

(٢) انظر «رزق، هاني»: «الجينوم البشري وأخلاقياته، جينات النوع البشري وجينات الفرد البشري»، «دار الفكر»، دمشق، الصفحات ٤٦٣ - ٤٧٢ (٢٠٠٧). يحوي هذا الكتاب عشرات المراجع ذات الصلة.

(٣) انظر «رزق، هاني»: «أصل الإنسان، التفسير الدارويني في ضوء المكتشفات الحديثة»، «دار الفكر»، دمشق، الصفحات ٥١ - ٩٦ (٢٠١٠). يحوي هذا الكتيب عدداً من المراجع ذات الصلة.

man، الذي نشر عام ١٨٧١ (بعد اثني عشر عاماً من نشر كتابه «حول أصل الأنواع» On The Origin of Species)، يقول إذن ما مؤدّاه أن هنالك استمرارية للعقل من الحيوان إلى الإنسان، وأن الفرق بينهما هو في الكم وليس في الكيف؛ أي فرق في الدرجة. وأن العقل وصل إلى الإنسان من الحيوانات الأدنى بوساطة سيرورة الانتقاء الطبيعي. ولكن سيتضح من هذه الدراسة أن الأمر خلاف ذلك.

إن الفكر اليوناني القديم لم يترك شيئاً في ما يبدو، إلا وبحث به. وتمثل هذا الفكر بصورة أساسية بالمدرسة الإيونية Ionienne, Ionian، وبأكاديمية «أثينا»، وبخاصة «سقراط» Scorates, Socrate (٤٧٠ - ٣٩٩ قبل الميلاد)، وأفلاطون مؤسس الأكاديمية وتلميذ «سقراط» ومدون دراساته؛ ثم أرسطو Aristote, Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد). ولكن بقدر ما كانت الفلسفة اليونانية مثيرة للإعجاب بعمقها ودقتها وواقعيتها، بقدر ما كانت الفيزياء اليونانية مثيرة للدهشة بخطئها. ففي دراسته الفلسفية (وليس الفيزيائية) للإنسان، عرَّف «أرسطو» هذا الكائن بأنه حيوان عاقل؛ أي إن امتلاكه العقل يميزه من سائر الكائنات الأخرى. ولقد عبر بعد ما يقرب من ألف عام «رينيه ديكارت» (١٥٩٦ - ١٦٥٠) René Descartes عن هذه الحقيقة بقوله cogito ergo sum؛ أي «أفكر إذن أكون»، أي «أفكر إذن أنا إنسان».

وفي عام ١٩٩٤، قام فريق مختص بعلم الأحفوريات البشرية anthropaléontologie, anthropaleontology، يتألف من سبعة وأربعين

باحثاً[1]، ينتمون إلى تسعة بلدان، هي الولايات المتحدة الأمريكية (٢٦ باحثاً)، فرنسة (٦ باحثين)، واليابان (٤ باحثين)، وأثيوبية (٣ باحثين)، وباحثان من كل من كندة وألمانية وإسبانية، وباحث واحد من كل من تركية وتشاد، قام هذا الفريق الذي قاده «تيم هوايت» Tim D. White من جامعة «بيركلي» بـ «كاليفورنيا»، بدراسة منطقة «أراميس» Aramis الواقعة في منخفض «عفار» الغربي إلى الشمال الشرقي من «أديس أبابا» شبراً شبراً. إن هذا المنخفض يشتهر بغناه بالأحفوريات البشرية. ففي عام ١٩٧٤ مثلاً، تم في هذا المنخفض اكتشاف «الاسترالوبيتيكوس أفارانسيس» Australopithecus afaranis (القرد الجنوبي من عفار)؛ الأنثى التي اشتهرت باسم «لوسي» Lucy، وعمرها ٣,٥ مليون عام تقريباً. وبعد ما يقرب من خمسة عشر عاماً (حتى تشرين الأول من عام ٢٠٠٩) من التنقيب والدراسة، نشر هذا الفريق نتائجه في عدد كامل من مجلة «ساينس» Science الغنية عن التعريف (تمثل مع مجلة «نيتشر» - Nature الطبيعة – أعلى مقام في النشر العلمي). اشتمل عدد المجلة على ١١ بحثاً، وافتتاحية العدد لرئيس تحرير المجلة، وكذلك تعليقين مستفيضين. وتجدر الإشارة إلى أن مجلة «ساينس»، التي يتجاوز عمرها ١٣٠ عاماً، نادراً ما أفردت متسعاً لأكثر من بحث واحد. ويمكن إيجاز أهم نتائج هذه الأبحاث، التي تناولت النواحي البيولوجية والبيئية والاجتماعية لمنخفض عفار بتفصيل دقيق؛ يمكن إذن إيجازها كما يلي:

(١) انظر «رزق، هاني»: «أصل الإنسان، التفسير الدارويني في ضوء المكتشفات الحديثة»، «دار الفكر»، دمشق، الصفحات ٤٠ – ٤٧ (٢٠١٠) حيث يوجد المرجع الخاص بمجلة «ساينس».

١- عثر الفريق على أكثر من ١٥٠٠٠٠ عينة أحفورية حيوانية ونباتية، وعلى أكثر من ١١٠ عينة أحفورية بشرية. ولكن ما هو أهم من ذلك بكثير عثور الفريق على هيكل بشري كامل تقريباً، لم يشهد علم الأحفوريات البشرية ما يماثله في كماله. لقد أطلق على هذا الهيكل الأنثى اسم «آرديبيتيكوس راميدوس» Ardipithecus ramadus، اختصاراً «آردي» Ardi. وكما هي الحال تماماً في «لوسي»، فإن طول آردي يبلغ ١٥٠ سنتي متراً، ووزنها ٥٠ كيلو غراماً، لكن عمرها يبلغ ٤,٤ مليون عاماً.

٢- إن خط تطور «آردي» بدأ قبل ما يقرب من ثلاثين مليون عام، وإن هذا الخط مستقل تطورياً استقلالاً تاماً عن خط تطور القردة العليا، وبخاصة الشيمبانزي. إن خط تطور هذه القردة سار على التوازي مع خط تطور «آردي». ويمتد الأصل المشترك لهما عميقاً في العصر «الجيولوجي الحديث» Pliocene، الذي امتد ما يقرب من سبعين مليون عام. بناء على ذلك، فإن الجذع المشترك ربما يكون قد تفرع قبل ٣٥ مليون عام إلى خطين متوازيين: خط «آردي» وخط القردة. ولئن كان جينوم «مجموع الجينات أو المورثات التي تشكل الجسد» شيمبانزي اليوم يتشارك مع جينوم الإنسان الحالي بأكثر من ٩٨,٥ في المئة، ذلك لأن آلية تركيب البروتين (ما يشكل الجسم من أجهزة وأعضاء ونسج وخلايا) هي واحدة تقريباً من الإشريكية القولونية (الجرثوم الذي يعيش في أمعائنا ويصنع لنا فيتامينات ومواد أخرى جسمُنا غير قادر على صنعها) حتى الفيل. إن جينوم الإنسان يحوي قرابة ٣٦٠ جيناً (١,٥ بالمئة من ١٠٠ [٢٤]

جين تشكل جينوم الإنسان) غير موجودة في الشيمبانزي. هذا هو السبب الأول. أما السبب الثاني؛ فيتمثل في أن جسمنا كجسد يماثل من حيث الأساس تشريحياً وفيزيولوجياً وكيميائياً حيوياً (أي بيولوجياً) جسد أي ثديي آخر.

٣- إن العقل أو ملكة الاستعراف أو ملكة البيان (القدرة التعبيرية)، وُهب إلى الإنسان حصراً، ولم يصل إليه من سلف آخر بوساطة الانتقاء الطبيعي. كما أن الفرق بين الإنسان والحيوان - في ما يتعلق بالعقل أو الاستعراف أو البيان - ليس في الكم أو في الدرجة، بل بوجود العقل وعدمه. إن «عقل» الحيوان هو مجموع غرائزه؛ يبني سلوكه عليها، و «يتعلم» بدافع منها. إن العقل أو الاستعراف أو البيان ظاهرة انبثاقية متفردة خاصة بالإنسان: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٥٥/١-٤].

وقد يعتقد البعض أن العقل موجود في الدماغ؛ اعتقاد لا يعكس من الحقيقة إلا هامشها. إن دماغ الإنسان - كجزء من جسده - تطور من بنية بدأت في الفقاريات الدنيا، وصعدت في السلم التطوري لتصبح في الإنسان عضواً متفرداً، لا يماثله في التعقيد دماغ أي ثديي آخر: إن عدد خلايا جسم الإنسان البالغ يصل إلى ما يقرب من مليون مليار (١×١٠^{١٥}) خلية، يستأثر الدماغ وحده منها بنحو **٣٠** ألف مليار (٣×١٠^{١٣}) خلية، أي ما يقرب من **٣** في المئة من مجموع خلايا الجسم. ويزن دماغ الإنسان وسطياً **١٣٥٠** غراماً. إن وزن الدماغ النسبي أو المطلق لا علاقة له بدرجة تطور الكائن الحي.

فمثلاً، يبلغ وزن دماغ الحوت القاتل (Killer whale) (يزن آلاف الكيلو غرامات) ما يقرب من ٥٦٢٠ غراماً فقط؛ أي أقل من واحد من ألف من وزن الجسم. إنه دماغ ضخم جداً بالمعيار المطلق (مقارنة بأوزان أدمغة الحيوانات الأخرى)، ولكنه ضئيل جداً بالمعيار النسبي (نسبة وزن الدماغ إلى وزن الجسم). وعلى العكس تماماً، فإن دماغ «الفأر آكل الحشرات» shrew (يبلغ وزن هذا الفأر غراماً واحداً تقريباً) يصل إلى ٠,١ غراماً (صغير جداً بالمعيار المطلق، وضخم جداً بالمعيار النسبي؛ أي أكثر من عشر وزن الجسم).

كما أن مستوى ذكاء الإنسان لا علاقة له بوزن دماغه. فلقد تبين أن وزن دماغ «ألبرت آينشتاين» Albert Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥) بفتح الجثة بعد الموت post - mortem, Postmortem، كان أقل من المتوسط. إن ما يميز دماغ الإنسان، مقارنة بالشيمبانزي مثلاً، يتمثل حقاً بصفتين أساسيتين: ١- المساحة الكبيرة للقشرة الدماغية المستحدثة (الجديدة) neocortex، التي تتحكم بأفعالنا الإرادية كافة. ٢- المساحة الكبيرة أيضاً لتلافيف الدماغ. إن مساحة هذه التلافيف في الإنسان تبلغ نحو ٢٢٢٦٠٠ ملي متراً مربعاً، في حين أنها تبلغ في الشيمبانزي ما يقرب من ٥٤٠٠٠ ملي متراً مربعاً فقط. ومن المذهل حقاً أن يشتمل دماغ الإنسان على أكثر من مليون مليار (1×10^{15}) مشبكاً عصبياً synapse (مكان تشابك نهايات الخلية العصبية الواحدة - العصبون - مع بدايات الخلية العصبية المجاورة، حيث يتم نقل التنبيه العصبي من خلية إلى أخرى تليها). وإن هذا الدماغ

يحوي على أكثر من مئة مليون مليار (١ × ١٠ ^١٧^) وصلة عصبية (نهايات تفرع المشابك العصبية، حيث يحدث التخاطب الخلوي المتبادل، ويتم نقل التنبيه العصبي). ولكن على الرغم من هذا التعقيد كله، فإن العقل لا يستوطن الدماغ، أكان ذلك من حيث البنية أم من حيث الوظيفة.

ثانياً - العقل كظاهرة انبثاقية

يتفرد الإنسان بأربع سمات أساسية لا توجد في غيره من الكائنات الحية، وهي:

١- النمو الاستثنائي للقشرة الدماغية (الجديدة) neocortex، التي تضبط أفعالنا الإرادية كلها كحركات تؤديها أعضاء الجسم كافة، وفي مقدمتها الطرفان العلويان والسفليان.

٢- إمكان تقابل الإبهام مع بقية الأصابع، الأمر الذي مكَّن الإنسان من القيام بحركات دقيقة. إن هذا التقابل هو أساس براعة حركة هذه الأصابع، وحذاقة الأعمال اليدوية. إن غياب هذا التقابل في الشيمبانزي مثلاً يجبره كي يؤدي فعلاً عادياً جداً - ككسر الجوزة مثلاً - على أن يمسك الجوزة بيده اليسرى وقدمه اليمنى، ويضربها بحجر يمسكه بقبضة يده اليمنى[١]. إن هذا التقابل مكَّن الإنسان من الخياطة والكتابة والعزف، وهلمَّ جرّاً.

(١) انظر رزق، هاني: «أصل الإنسان، التفسير الداروويني في ضوء المكتشفات الحديثة»، «دار الفكر»، دمشق، الصفحات ٦٦ - ٧٥ (٢٠١٠).

٣- الشكل الفراغي ثلاثي الأبعاد للحجرة الصوتية (الحنجرة) وللثنتين الصوتيتين؛ بُنى مكَّنت الإنسان من أن ينطق (البنية السطحية للغة) - وفقاً لـ «تشومسكي» Chomsky[١] - بالأفكار التي يبينها ذهنه (البنية العميقة للغة). إن هذه البنى جعلت الإنسان ينطق بلغة ذات تقطيع صوتي ساكن ومتحرك. واللغة أساس الحياة الاجتماعية للإنسان، وبوساطتها استطاع أن يبني حضاراته.

٤- وضعية الوقوف التي حررت اليدين. إن انتصاب القامة أدى إلى مرونة كبيرة في حركات أجزاء الجسم كافة.

أما في ما يتعلق بالعقل؛ فبالإضافة إلى التعريف اللغوي؛ فإن العقل esprit, mind (من اليونانية menos) هو المجموع المنظِّم للسيرورات والمضامين النفسية التي تتيح للفرد أن يستجيب للمنبهات الخارجية والداخلية على نحو متكامل ودينامي (حركي)، فيربط ذهنياً استجابته الحاضرة بكل ذي صلة مما شهده المرء في الماضي، وبما سيتوقعه في المستقبل. وتتألف السيرورات الأساسية للعقل من الوعي أو الإدراك بوساطة الحواس، ومن التعلم، والمحاكمة، والتذكر، والشعور، والتصرف تصرفاً ذكياً. وبدهي أن تتفاوت مضامين العقل وفقاً لتجارب المرء.

فإذا درسنا السمات الأربع، التي يتفرد بها الإنسان (نمو القشرة الدماغية وتقابل الإبهام وبنية الحنجرة ووضعية الوقوف)، فإنها لا تنبئنا بشيء عن أي سيرورة من السيرورات التي تؤلف العقل.

(١) انظر (٢٠٠٢) ١٥٦٩ - ١٥٧٩ Hauser, M.D. et. Al. Science 298, .

وبالنظر إلى أن هذه السيرورات لا يمكن التنبؤ بها من فهم تلك السمات؛ فإن العقل يغدو ظاهرة انبثاقية متفردة، نشأت كلياً من جديد de novo. لقد وُهبت هذه الظاهرة الانبثاقية للإنسان بسيرورة الخلق.



محمد عدنان سالم ووزير الثقافة رياض نعسان آغا يقدمان درع التكريم لهاني رزق

ثالثاً - القانون الأخلاقي كظاهرة انبثاقية

وكذلك هي الحال في ما يتعلق بالقانون الأخلاقي. إن هذا القانون يتفرد به الإنسان أيضاً. لقد حفظ هذا القانون الإنسان،

وسيظل يحفظه من الانقراض. إن القانون الأخلاقي يقوم على ملكة المحاكمة التي تشكل إحدى سيرورات العقل بربطه استجابته الحاضرة بماضيه علماً وتربية، وبمستقبله الذي يصبو إليه في محاكمة ضميرية، يختار فيها بين ما هو خير وبين ما هو شر. وعلى اعتبار أن فهم السيرورات والمضامين التي يتألف منها العقل لا تنبئنا بشيء عن طبيعة محاكمة الضمير للاستجابة التي ستشكل قرار الفرد، سواء كانت خيراً أم شراً؛ فإن القانون الأخلاقي يغدو ظاهرة انبثاقية استثنائية، نشأت نشوءاً متزامناً ومتوازياً من العقل ومعه. إن القانون الأخلاقي يمثل إذن أساس السلوك الاجتماعي للفرد؛ ظاهرة تنبثق من العقل في إثر محاكمة الضمير للاستجابة العتيدة.

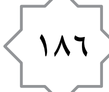
التراث العربي المخطوط أهميته، سبل حمايته، والتعريف به

أ.د. عبد اللطيف صوفي
أستاذ ورئيس قسم المكتبات سابقاً /
جامعة قسنطينة - الجزائر

بكل فخر واعتزاز، أقدم هذا البحث العلمي مشاركة متواضعة مني في تكريم الصديق العزيز الأستاذ محمد عدنان سالم، مدير عام دار الفكر للنشر، الرئيس الفخري لاتحاد الناشرين السوريين، تقديراً لجهوده في الحفاظ على التراث، ونشر الإنتاج الفكري العربي، مشرقاً ومغرباً.

١- تمهيد:

ذكر القرآن الكريم العلم في محكم آياته زهاء سبع مئة وخمسين مرة، وحضّ على الإبداع والابتكار، زهاء أربع وخمسين مرة. وقد أدرك المسلمون الأوائل هذه الأهمية، فامتثلوا لأوامر رب العالمين،



ونبيه الكريم، فطلبوا العلم في كل مكان، من المهد إلى اللحد، وأعطوا القراءة والبحث العلمي، جلّ عنايتهم ورعايتهم، ولكن ما إن انشغلوا عنها، وأهملوها، حتى ضعفت شوكتهم، وأصابهم ما أصابهم، من ذلّ وهوان. (صوفي، ٢٠٠٨: ٢٠).

لقد أقبل العرب المسلمون على الكتابة والتدوين والتأليف، إقبالاً منقطع النظير، منذ العصور الإسلامية الأولى، وحققوا في مجال وضع الكتب بموضوعات المعرفة المختلفة، وحفظها ونشرها؛ تقدماً لم تحققه شعوب كثيرة أخرى كانت تمتلك آنذاك من مقومات الحضارة ما يؤهلها لذلك، كبيزنطة وبلاد فارس وغيرها، وكان إقبالهم على الكتب والمخطوطات "يشبه إلى حد كبير شغف الناس في عصرنا هذا باقتناء السيارات والثلاجات وأجهزة التلفزيون... وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً، قدر الناس في ذلك العصر من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الثراء بما يملكون من كتب أو مخطوطات... ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب في الأرض الطيبة، ففي عام (٨٩١ م) يحصي مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد بأكثر من مئة، وبدأت كل مدينة تبني لها داراً للكتب يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارة ما يشاء منها، وأن يجلس في قاعات المطالعة يقرأ ما يريد، كما ويجتمع فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات خصصت لهم، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية" (هونكه، ١٩٨١: ٣٨٥).

لقد أعطى العرب منذ العصور الإسلامية الأولى المخطوطات،

والكتب والمكتبات عناية كبيرة، وبخاصة في العصر العباسي، حيث ازدهرت حركة الترجمة والتأليف، وأقبل الناس على النسخ وشراء الكتب واقتنائها والعناية بها، وقد حفلت المؤلفات العربية بكثير من المنثور والمنظوم الذي يؤكد هذا الحب والولع. منها ما كتبه أبو بكر أحمد بن الحسين على ظهر كتاب له:

يا مستعير كتابي إنه علق   بمهجتي علق المحبوب بالمهج

انسخه واردده في حل وفي سعة   وأنت في حبسه في أضيق الحرج

وما أنشده أبو حسين علي بن أحمد بن يحيى الجوزْدكي لنفسه بالبصرة بقوله:

يا من يروم كتابي   لنسخه إن أراده

أو رغبة في اطلاع   يبغي بذاك الزيادة

توق فيه خصالاً   تسويده وفساده

إذا فرغت فأسرع   به إلى الإعاده

فحبسه فعل سوء   وسرعة الرد عادة

وكتب أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الفالي الأديب على نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد، اضطرته الفاقة لبيعها ما يلي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها   لقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها   ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية … صغار عليهم تستهل شؤوني

فقلت ولم أملك سوابق عبره … مقالة مكوي الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك … كرائم من ربّ بهن ضنين

وقال بعض الشيوخ:

قد رددنا إليك، أصلحك الله … مع الشكر، ما استعرناه منكا

ورأيناك أحسن الناس صبراً … واحتمالاً لما حبسناه عنكا

أما وصف الجاحظ للكتاب فهو غني عن كل قول وبيان. (حمادة، ١٩٧٠: ١٣٤).

ومع الاهتمام الواسع، بحركة التأليف والترجمة، أقيمت المكتبات العامة في جميع أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك، كذا المكتبات المدرسية والمتخصصة، والمكتبات العلمية، التي حفلت بملايين الكتب والمخطوطات، مثل مكتبة دار العلم بالقاهرة، التي حوت فوق رفوفها، إبان القرن الحادي عشر الميلادي، زهاء **٢** مليون مخطوط، وهي مكتبة قال عنها البابا سلفستروس، بابا روما عام **٩٩٩** م: «إنه لمن المعلوم تماماً، أنه ليس ثمة أحد في روما له من المعرفة لأن يعمل بواباً لتلك المكتبة، وأنى لنا أن نعلم الناس، ونحن في حاجة لمن يعلمنا؛ إن فاقد الشيء لا يعطيه» (هونكة، ١٩٨١: ٣٥٣). ثم مكتبة بني عمار في طرابلس لبنان التي حوت عند مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، حوالي **٣** مليون مخطوط، قبل أن يحرقها جيش الصليبيين (حمادة، ١٩٧٠: ١٣٥).

وقد عبر المؤرخ وول ديورانت عن روح ذلك العصر بقوله: «لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب والمخطوطات في بلد آخر من بلاد العلم - اللهم إلّا في بلاد الصين - ما بلغه في بلاد الإسلام في هذه القرون، حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكونوا يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة» (ديورانت، ١٩٥٠ : ١٧١). كما عبر القس المتعصب ألفارو القرطبي، فيما كتبه عام ٨٥٤ م عن روح ذلك العصر أيضاً بقوله: «يا للحسرة، إن الموهوبين من شبابنا الإسبان، لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابها، ويقبلون عليها بنهم، إنهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها. واحر قلباه، لقد نسوا لغتهم، إذ لا يكاد واحد منهم في الألف يستطيع أن يكتب إلى صاحبه رسالة بلاتينية مستقيمة، أما لو طلب منهم كتابة العربية، فما أكثر من يجيد منهم كتابتها بأسلوب منمق، بل هم ينظمون فيها الشعر، بما يفوق شعر العرب أنفسهم، فناً وجمالاً» (بالنثيا، ١٩٥٥ : ٤٨٥).

لقد اجتمعت كتب المسلمين والمسيحيين واليهود على رفوف مكتبات العرب، متحابة، منتظمة، مفتوحة للقراءة أمام الناس، «تخدم الجميع على اختلاف معارفهم وعقائدهم في بناء النهضة العلمية، وبروح التسامح العربي نفسه، لم يخجل العرب أن يدخلوا مدارس غير المسلمين، وأن ينهلوا من منابع المعارف الهندية أو الإغريقية الشيء الكثير» (هونكة ١٩٨١ : ٤٠١).

ومما يؤسف له أن شطراً كبيراً من هذه المخطوطات التي ازدانت

بها المكتبات العربية الإسلامية ضاع بسبب ما تعرضت له الدول العربية الإسلامية من حروب وفتن وغزوات، وكان ما أصاب الثقافة العربية مروعاً عندما اقتحم هولاكو بجيوشه بغداد عام ١٢٥٨م، حيث ألقيت مئات الألوف من المخطوطات في نهر دجلة، كما أثبت ابن بطوطة أن التتار قتلوا في العراق أربعة وعشرين ألفاً من العلماء. كذا عندما أحرق الصليبيون الغزاة مكتبة بني عمار في طرابلس لبنان (قزانجي، ١٩٧٢ : ١٥).

ولم يكن نصيب المخطوطات العربية من الدمار خلال زحف تيمورلنك بأقل منه على يد هولاكو. وفي الغرب الإسلامي تعرض التراث العربي الإسلامي للمحنة نفسها، فحين سقطت غرناطة بيد الإسبان المهاجمين عام ١٤٩٢م، وانتهت دولة المسلمين في الأندلس أحرقت عشرات الآلاف من المخطوطات، وأكثر الباحثين حذراً أو عطفاً على الإسبان يقدرها بثمانين ألفاً. (قزانجي، ١٩٧٢ : ٢٦).

أما الجانب الذي سلم من هذه الكوارث والنكبات فقد نقل معظمه إلى دور المخطوطات والأديرة والمتاحف الأجنبية في ديار الغرب خلال الحروب الصليبية، ثم خلال الاستعمار الحديث للبلاد العربية. ويقدر معهد المخطوطات العربية عددها بثلاثة ملايين مخطوط. (صوفي، ١٩٨٧ : ١٨٥). وقد شاهدت بنفسي آلاف المخطوطات العربية محفوظة في مكتبات وأديرة الغرب، بعضها لا يعرف أحد حتى اليوم عن مضمونها شيئاً. ومن إنصاف القول، أن الأوربيين أعطوا هذه المخطوطات العناية التي تستحق، من ترميم

وتعفير، حتى إن القديم منها محفوظ لديهم تحت درجة تبريد منخفضة تصل إلى **٣٠** درجة تحت الصفر، لا تعرض على الناس، بل صور عنها. وقد حصل لي شرف الاطلاع على واحد منها، هو كتاب غريب الحديث لابن سلام، من مخطوطات القرن الثاني للهجرة، وذلك عندما كنت أحضر مؤتمر الاتحاد الأوربي لمكتبات الشرق الأوسط في مدينة لايدن الهولندية، نتيجة جدل حاد جرى بيني وبين بعض المشاركين في المؤتمر، حول سبل وصول مخطوطاتنا العربية إلى أوربة. وقد منحوني مدة عشر دقائق فقط للاطلاع عليه، تحت مراقبة شديدة.

لقد حظيت البلاد العربية الإسلامية بتراث علمي وثقافي مخطوط قلّ أن حظيت بمثله أمة من الأمم عبر التاريخ، ولا يتمثل ذلك في كثرته وحجمه فحسب، بل في محتوياته العلمية والأدبية والثقافية والتاريخية، واتساع آفاقه، ليشمل العالم القديم والوسيط كله تقريباً، جغرافياً وتاريخياً.

٢- العولمة والتراث:

ترخي العولمة الثقافية بظلالها السلبية على الهوية والموروث الثقافي للأمم والشعوب، ومخاطرها الفائقة التي تمس قضاياها التراثية الجوهرية، بما يهدد الهوية الوطنية بالتشويه والاضمحلال.

والعولمة بمفهومها المعاصر تعني إحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي، وهو اختراق يستهدف العقل والنفس والتراث.

إنه مفهوم يترتب عليه ضياع تراثنا وهويتنا. فثقافة العولمة هي ثقافة أحادية أمريكية تفرض على الآخرين، وهي مهددة للخصوصيات الوطنية، وبخاصة منها العربية الإسلامية، فهي مقاربة اقتصادية على حساب الثقافة والهوية الوطنية، لتقوم مقامها هوية السوق. ويصف المفكر الفرنسي سيرج لافورش (Serge Lafourche) العولمة بقوله: «إنها عملية اقتلاع جذور الأمم والشعوب، من أعماق الكرة الأرضية» (صوفي، ٢٠٠٣: ١٥٨).

ولم تعد العولمة الشرسة بمفهومها السلبي هذا تراعي أي شيء فهي تدعي أنها منتصرة لا محالة، ولا مجال لردها أو عدم الدخول فيها، بل إنه لا يحل في هذا العالم سواها. ونحن نقول: إن العولمة ما هي إلا ظاهرة تاريخية، أي مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي، قابلة للانتعاش والتراجع، ويجب مقاومتها، وتكوين جيوب مقاومة ضدها، وهذه الجيوب موجودة اليوم في أمريكا اللاتينية، بل وحتى في أوربة الغربية التي تخشى الهيمنة الأمريكية.

أما العولمة الثقافية فهي مجموعة من الرؤى والقيم والسلوكات والمعلومات والمعطيات المرتبطة ارتباطاً قوياً بالنظام الليبرالي الرأسمالي الذي يملك قوة انتشارها وتوزيعها عبر العالم من خلال وسائل القوة التي يمتلكها، وتكنولوجيا الاتصال والإعلام الحديثة، ومن خلال قوته الاقتصادية والعسكرية. ثم إن الدخول في العولمة لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يعني إلغاء السيادة الوطنية، وهي مفهوم مشترك ومقبول من جميع أفراد الوطن الواحد، وتحركه قيم الناس ومشاعرهم المشتركة، وتاريخهم الواحد، وتراثهم وحضارتهم

ولغتهم الواحدة، أو أن يعني إهمال تدريس اللغة الإنكليزية على كافة المستويات في بلادنا، لأنها لغة العلم والثقافة الأولى في العالم، ولأن ٨٠٪ من المعلومات الموجودة في الإنترنت، هي بهذه اللغة.

إن الديمقراطية، وحقوق الشعوب، وحقوق الإنسان، والمجتمع المدني مقولات كبرى، ومطالب أساسية ظهرت حديثاً في مجتمعنا، وكأنها مفاهيم قادمة من بعيد، من الغرب، وليست منطلقة من مجتمعنا ذاته ومن عمق تاريخنا، وهي موجودة فيه، فالحضارة العربية التي سادت بلادنا والعالم قروناً طويلة اتسمت بالإنسانية، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، والشورى بين الناس، وكلها مبادئ نادت بها مختلف الرسالات السماوية، وتشبعت بها حضارتنا، وهي في حد ذاتها حضارة إسلامية إنسانية.

واليوم ما مدى قدرتنا على مواجهة العولمة والصمود في وجهها، وهل المغرب العربي أكثر صموداً من المشرق العربي، أو العكس هو الصحيح؟ لأن قرب المغرب العربي من أوربة قوى مفهوم الشراكة، وهذا يسهل عملية الدخول في العولمة. ولكن هل العولمة فعلاً خيار لا مفرّ منه؟

إن من واجبنا نحن العرب، مشرقاً ومغرباً، أن نقوي صلتنا بتراثنا وأمجادنا الغابرة، ومن هنا تأتي ضرورة نفض الغبار عن تراثنا المخطوط، وحفظه، وتنظيمه، وفهرسته، والتعريف به، وتوجيه الأجيال للتمسك به، ونحن نتجه للدخول في العولمة، حتى نفيد من إيجابياتها، ونتفادى سلبياتها التي تلقي بظلالها الخطيرة على هويتنا

الوطنية. ولا خوف على ثقافتنا العربية في جميع الأحوال عندئذ، لأنها ثقافة كبرى في تاريخ البشرية، تؤهلنا للعب دور جديد في هذا التاريخ، وصنع فكر إنساني جديد.

إننا اليوم أكثر من أي يوم مضى بحاجة إلى الاعتزاز بتراثنا، «وتجديد ثقافتنا الوطنية، وتعزيز الانتماء إلى الذات، مع الانفتاح على العصر، وذلك عبر إعادة بناء الثقافة من داخلها، وربطها بمفهوم الشعب والأمة، واعتمادها سلاحاً في مواجهة ظاهرة عولمة الثقافة» (نعمان، ١٩٩٢: ١١٢).

إن العولمة لا تشكل خطراً إذا هي اعترفت بتنوع الثقافات الإنسانية، واحترمت الهويات القومية الوطنية، وخصوصيات الشعوب، وابتعدت عن التنميط القسري، واعترفت بالسلم والعدل الدوليين. ولكنها للأسف تبدو كظاهرة شريرة تريد فرض سيطرة عالمية للنظام الرأسمالي، وإن الاندماج المطلق فيها، أو الانعزال المطلق، كلاهما انتحار حضاري. وإذا كان لابد لنا أن ندخل هذه العولمة، ولا خيار لنا في ذلك، فإن من واجبنا، أن ندعم هويتنا الثقافية وهويتنا الذاتية، من خلال امتلاك قوانين المكتشفات العلمية، وتطوير رؤيتنا الثقافية - التراثية، وأن نحول نظرتنا إلى تراثنا من مجرد شيء نمجده إلى نقده نقداً عقلانياً، وأن نستفيد منه في تأكيد ذاتيتنا وهويتنا، لأنه المفتاح نحو المستقبل» (مقداد، ١٩٩٨: ١٠٤).

انطلاقاً من ذلك نقول: إن الاهتمام بالتراث الوطني هو حفاظ

على الهوية الوطنية من الضياع والذوبان في هوية الآخرين أو هوية السوق. وإن التراث المخطوط الذي يحوي مؤلفات علمائنا السابقين وإبداعاتهم، وعطاءاتهم الفكرية والأخلاقية، في جميع مجالات العلوم والآداب والفنون، لهو خير حافظ لنا من الذوبان في حضارة الآخرين، وعلينا أن ننفض عنه غبار الزمن، وأن نعطيه من العناية والرعاية ما يستحق.

٣- فهارس المخطوطات:

تزخر الأراشيف ودور الوثائق والمتاحف في دول العالم بنفائس المخطوطات العربية الإسلامية، وقد بذلت جهود كبيرة في العصر الحديث لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المخطوطات التي سلمت من الكوارث والنكبات، وعرف العالم أهمية إنقاذها وحمايتها، وترميمها، والحرص عليها، نظراً لما تحويه من فكر خلاق في العلوم الطبيعية والصيدلانية والرياضية والفلكية والكيميائية والأدبية واللغوية والإنسانية وغيرها، لعبت دوراً بالغ الأهمية في قيام النهضة الأوربية، بعد أن اطلع الأوربيون عليها، ونقلوا جزءاً كبيراً منها إلى لغاتهم الوطنية، مما جعلهم يتقدمون خطوات كبيرة إلى الأمام في مضمار الرقي والازدهار.

وتبرز فهارس المخطوطات العربية التي تزخر بها مكتبات العالم، الحجم الكبير لهذه المخطوطات التي بقيت على قيد الحياة، وما زالت قبلة للدارسين والباحثين، ينهلون منها، ويرتوون من ينابيعها الثرية السمحة، وهذه الفهارس تفتح أمام العلماء الباحثين مغالق تلك الكنوز

الخطية الموجودة فوق رفوف مكتبات وأراشيف العالم، وقد بلغت أعداد هذه الفهارس من الكثرة بحيث أصبحت الإحاطة بها تكاد تكون ضرباً من المستحيل، لذلك نهض عدد من الباحثين المهتمين بوضع ببليوغرافيات عامة ومتخصصة لرصد هذه الفهارس والتعريف بها، في مقدمتهم هويسمان، وفاجدا، وبيرسن، وبروكلمان من علماء الغرب، ويوسف أسعد داغر، وفؤاد سزكين من أبناء العرب والمسلمين.

ونظراً لكون الكثير من هذه الفهارس قد تقادم به العهد، ولأن البعض منها كتب متعددة شرقية وأوروبية، ولكون جملة منها قد نشرت في مجلات استشراقية ليس من اليسير الاطّلاع عليها، وأصبح من الضروري إصدار فهرس عام، ومسح حديث لها، بأسلوب عصري، قام عدد من الباحثين العرب، والمؤسسات العربية بالتصدي لهذا العمل. ومن بين الباحثين العرب الذين بذلوا مجهودات هامة في هذا المجال نذكر الباحث كوركيس عواد الذي وضع فهرساً مبوّباً للمخطوطات العربية في الخافقين بعد جهود طويلة، وزيارات علمية للمكتبات الشرقية والغربية. وقد جاء هذا الفهرس مبوباً تبعاً للأقطار التي تمتلك تلك المخطوطات، يليها أسماء المدن في كل قطر، ثم أسماء المكتبات التي تقتنيها، مع مراعاة الترتيب الزمني للفهارس الموجودة في كل مكتبة أو معهد، وهو فهرس عظيم الأهمية، ولكنه بحاجة إلى تكملة وذيول لأن الإحاطة الشاملة بجميع الفهارس على باحث واحد ضرب من المستحيل. وقد أصدر معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية هذا العمل ضمن مجلدين تحت عنوان: (فهارس المخطوطات العربية في العالم).

كما تتصدى اليوم مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، وهي مؤسسة عربية إسلامية، مركزها مدينة لندن، للتعريف بالمخطوطات العربية الإسلامية وأماكن تواجدها عبر العالم بأسلوب علمي حديث، وأصدرت فهارس ضخمة في أربعة مجلدات تحتوي على أكثر من ألفي صفحة، غطت (١٠٧) دولة في العالم، وأسدت بعملها هذا خيراً كبيراً للمكتبة العربية الإسلامية في هذا الجانب.

وهناك مراكز عربية أخرى في مقدمتها معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية الذي يبذل جلّ اهتمامه لتقصي المخطوطات العربية عبر العالم، والاهتمام بتصويرها والتعريف بها، وتسهيل وضعها تحت تصرف الباحثين؛ وهذا ما سنتحدث عنه في ما يلي من صفحات. ولا بد هنا من الإشارة إلى المجهودات التي يبذلها مركز جمعة الماجد في دبي للتعريف بالمخطوطات العربية، وتصوير الموجود فيها داخل الوطن العربي والتعريف به وتيسير الاطلاع عليه.

كما تقوم الدول العربية بإعطاء مزيد من الاهتمام للمخطوطات المحفوظة لديها، ووضع فهارس لها وكشافات تساعد الباحثين في الوصول إليها بسهولة ويسر، علماً بأن معظم هذه المخطوطات ما زالت موزعة بين المكتبات العامة والخزائن الخاصة، وأن جميع المجهودات التي تبذل في سبيل تجميعها وصيانتها ما زالت قاصرة عن تحقيق أهدافها المنشودة، كما إن الإدارات المسؤولة عنها ما زالت تعاني من نقص الكفاءات الفنية المؤهلة لهذا العمل، هذا فضلاً عن قصور القوانين العربية التي تحمي المخطوطات من

الاستلاب الثقافي والعلمي، وبخاصة منها المخطوطات الموجودة في فلسطين، التي تتعرض للنهب الحضاري بصورة خطيرة.

٤- حماية المخطوطات العربية:

بدأت المخطوطات العربية تخرج من الاهتمام الفردي إلى الاهتمام المؤسساتي، وهي مؤسسات قامت بجهود عدد من الرجال الأثرياء العرب الذين اختاروا إنفاق جانب من أموالهم في هذا المجال الهام، بعد أن تحمل هذه الأعباء في الماضي جيل من الأساتذة الرواد الذين بدؤوا السير في هذا الطريق الصعب الشائك، بغية اكتشاف كنوزه المجهولة، إلا أن عوادي الزمن أقعدتهم عن مواصلة الطريق، بعد أن انحسرت موجة الاستشراق والمستشرقين الذين أسهموا إسهاماً فاعلاً في حماية هذه المخطوطات وصيانتها والتعريف بها، مهما كانت الدوافع التي حركتهم للسير في هذا الاتجاه، أو المآخذ التي أخذت عليهم، فقد كانت لهم برغم ذلك أيادٍ بيضاء في البحث عن المخطوطات النادرة، وحفظها، وطبعها، ونشرها، والتعريف بها، برغم كونها انتزعت من بلادنا دون حق، وجدير بنا، ونحن نفكر في حماية مخطوطاتنا، أن نفكر أيضاً في سبل استرجاعها إلى أوطانها الأصلية التي نهبت منها، وهو الأمر الذي يتطلب بذل جهود أكبر، وعناية أكثر، لرعايتها على الصعيد العربي، ثم على الصعيد الدولي. ومما يثير الدهشة والألم، أن نجد مخطوطاتنا تلقى عناية الغربيين وهي في ديارهم، أكثر مما تلقاه من أهلها، في بلادنا. لذلك فنحن بحاجة إلى بذل مزيد من الجهود على

الصعيد العربي، وتوحيد الجهود، ووضع خطط عمل مشتركة، وللضغط على الدول الأجنبية التي لا تسمح بتصوير مخطوطاتنا المحفوظة لديها، أو تضع العراقيل أمام تحقيق ذلك.

ولو نظرنا إلى المخطوطات العربية في بلادنا، لوجدناها مشتتة مبعثرة بين مختلف الهيئات الحكومية والأهلية والأفراد والمكتبات. وليس تشتت المخطوطات بين مختلف أنواع المكتبات في الدولة الواحدة هو المظهر الوحيد لسوء حالها، فالذي يدخل مخازن بعض هذه المكتبات، يشعر بأسى عميق، لما تلقاه المخطوطات من إهمال بعد أن تحولت في نظر الكثير من المسؤولين عنها إلى مواد متحفية تعرض منها النسخ التي تتحلى بألوان من الفن في كتابتها أو زخرفتها أو تجليدها، ويكرس الباقي في المستودعات ليكون طعماً للآفات والحشرات دون أن يحظى بأي نوع من الصيانة، بل حتى دون أن يراعى في وضعه أبسط الأسس العلمية لتنظيم الكتب على الرفوف؛ فبعضها يزدحم ازدحاماً شديداً حتى لتحشر عليه المخطوطات حشراً يفسد أوراقها وتجليدها، وبعضها الآخر تلقى عليه المخطوطات مضطجعة أو قائمة في وضع مائل يتلفها، وبلادنا بطبيعتها يغلب عليها الحرارة والجفاف، أو الرطوبة، وهذه تساعد على إتلاف الأوراق والجلود، ومخازن المخطوطات عندنا لا تعرف أجهزة سحب الغبار والأتربة، بل قلما تسلم من الشمس أو الرطوبة، فضلاً عن سوء التهوية أو معظم هذه الأخطار مجتمعة... أما تعقيم المخطوطات وترميمها فما زالت أساليبه عندنا قاصرة عاجزة عن أن تصون لنا ما سلم من تلك الآفات، برغم ما أحرزه العلم من تقدم

في هذا المجال (الحلوجي، ١٩٧٦: ١٣٣)، ناهيك عن النقص الفادح في الفهارس اللازمة للتعريف بها، ونقص الدراسات الأكاديمية عن المخطوطات العربية، نع غياب هذا الموضوع كمادة تدريسية على مستوى معاهد المكتبات في معظم الجامعات العربية. وجدير بالذكر، أن الوضع تغير كثيراً، بعد إنشاء العديد من المكتبات الوطنية الحديثة في الوطن العربي، وتخصيص أجنحة لحفظ المخطوطات فيها، واعتماد أفضل الطرق لحفظها، ورعايتها، وهو أمر يدعو إلى الارتياح.

إن أمتنا بحاجة إلى مزيد من العناية بتراثها المخطوط، وحمايته وتصويره من أرشيف ومكتبات العالم، وبخاصة الموجود منه في تركيا وفي أديرة الغرب، وأراشيفه، لأنه يحفل بآلاف مؤلفة من المخطوطات التي ما زالت مجهولة، وهي بحاجة قبل كل شيء إلى خطة واضحة المعالم، وتعاون قوي بين دولها، ودعم لمعهد المخطوطات العربية، وتعاون أفضل مع المؤسسات التي تعمل في هذا الاتجاه، عامة كانت أم خاصة، وتوحيد الجهود، في سبيل إنقاذ مخطوطاتنا، ورعايتها وتجميعها، وتصويرها، وتحقيقها، والتعريف بها وفق أحدث السبل، وأفضل الوسائل.

٥- معهد إحياء المخطوطات العربية:

لم يدرك العرب في عصرهم الحديث أهمية تراثهم المخطوط، إلا بعد إدراكهم لحقيقة كون الحضارة الغربية والنهضة الأوربية إنما قامت على أساس هذا التراث، لذلك قامت الجامعة العربية

بإنشاء معهد إحياء المخطوطات العربية وذلك في شهر أفريل من عام **١٩٤٨**، ولما يمضِ على قيامها أكثر من سنة واحدة، وكانت الأهداف المرسومة لهذا المعهد بطبيعة الحال الاهتمام بالمخطوطات العربية أينما كانت، ورصدها، وجمعها، وتصويرها، والتشجيع على تحقيقها، وفهرستها، وصيانتها، ونشر هذه الفهارس على أوسع نطاق ممكن، مع إصدار نشرة دورية تعنى بالمخطوطات وما يتصل بها من أمور.

بدأ المعهد بعد عام من تأسيسه بإرسال البعثات إلى الدول العربية والأجنبية لتصوير المخطوطات، ثم توقف عن ذلك في عام **١٩٦٠** لأسباب مادية، غير أنه قام بالحصول على صور المخطوطات عن طريق اليونسكو، خلال المدة التي توقف فيها، فقد أخذ هذا الأخير على عاتقه أمر تصوير المخطوطات في البلاد العربية التي تطلب منه ذلك. ثم عاد المعهد للتصوير، بعد أن توفرت الاعتمادات المادية لذلك.

وقد بدأ المعهد عام **١٩٥٥** بإصدار مجلة نصف سنوية تعنى بالمخطوطات العربية وتقدم أخبارها، وأخبار المعهد ونشاطاته، وكما بدأ بإصدار فهارس للمخطوطات العربية عبر العالم، فضلاً عن نشرة نصف شهرية، ثم أصبحت شهرية لأخبار التراث العربي. ويستقبل المعهد أعداداً كبيرة من الباحثين والعلماء والدارسين والمحققين لمراجعة المخطوطات المصورة على ميكرو فيلم، ويعمل على تزويد الراغبين بنسخ عنها. ويعتبر المعهد اليوم مركزاً للتوثيق الببليوغرافي حول المخطوطات العربية، وتدريب المشتغلين فيها.

إن معهد المخطوطات العربية هو الملاذ الأمين الذي تعتمد عليه المخطوطات العربية لحمايتها من الإهمال والضياع والاندثار، «وجهوده المعروفة غنية عن التعريف، وإنما نريد منه الخروج من إطار النظرة الأكاديمية التقليدية إلى أفق أكثر رحابة بما يحقق من التفاعل والتلاحم، مع الجماهير العريضة من المثقفين، لكي تحقق المخطوطات مزيداً من نبض الإشعاع والإخصاب في خضم الثقافة العربية، ولا يتوقف فقط عند مهمة التحقيق والنشر والتصحيح والتعريف... ولا ينبغي أن نحمل المعهد وحده ثقل هذه المسؤولية، بل هو في حاجة إلى روح جديدة، وحضور متواصل، والخروج من نطاق التخصص المحدود إلى مجالات أرحب وأوسع مدى؛ يتلاحم فيها مع مصاب الثقافة العربية العامة، ويتماوج بأكبر وأعمق من إطاره الأكاديمي المعروف» (الهاشمي، ١٩٧٦ : ١٣١) وبرغم مرور وقت طويل على هذه الدعوة، فإنها ما زالت قائمة إلى اليوم، بل هي اليوم أكثر أهمية من أي وقت مضى، حيث العولمة تريد أن تفرض أخطبوطها على العالم، وبخاصة منه العالم النامي، لتبعده عن تراثه وأصالته، وهويته، لتضع مكانها هوية السوق، وفي ذلك خطر مبين.

٦- حفظ المخطوطات وصيانتها:

تحتاج عملية حفظ المخطوطات إلى مخازن معينة بمواصفات خاصة للبناء والتجهيزات وما إليها، فالبناء يجب أن يكون في منطقة صحية بعيدة عن التلوث الجوي، تحفظه جدران نارية من الحرائق، وتدخل في بنائه مواد تمنع تواجد الحشرات فيه ما أمكن ذلك.

ويجب استخدام الخزائن الحديدية المثقوبة لحفظ المخطوطات، مع استخدام المساند الحديدية أيضاً والرفوف المتحركة. وأما الإضاءة فتكون كهربائية غير مباشرة، مع عدم استخدام الإضاءة الزئبقية أو من نوع الفلورنس؛ لأنها تحوي أشعة فوق البنفسجية تضر الورق وتغير لونه، ولا بد من توفر درجة حرارة ورطوبة مناسبة، كأن تكون درجة الحرارة بين **٢٠** – **٢٥** درجة مئوية، أما الرطوبة بين **٥٠**٪ إلى **٦٠** ٪. وتشير بعض الدراسات الحديثة، إلى أن حفظ المخطوطات النادرة يجب أن يتم في درجة حرارة تصل إلى **٣٠** درجة تحت الصفر، أي درجة التجمد الشديد؛ لأن مثل هذه المخطوطات قديمة جداً، ونادرة الاستخدام، وحفظها في درجة التجميد الشديد يطيل من عمرها.

ولا بد بطبيعة الحال من تزويد المخازن بأجهزة إطفاء جيدة، ووسائل تنبيه سريعة عن الحرائق، كذا تزويدها بصناديق تعفير وتبخير لمعالجة المخطوطات ومكافحة آفاتها. كما أن توفر المكتبة أو الأرشيف على قسم خاص بالصيانة والتجليد والترميم هو من الأمور الهامة التي لا غنى عنها. ومن مهام هذا القسم تصفح المخطوطات ومعرفة أوضاعها الصحية، وترقيمها بإكمال الصفحات الممزقة والناقصة بالوسائل والمواد الحديثة الملائمة، مع طلاء الأوراق الجافة بمواد مطرية خاصة، إلى جانب التحذير من استخدام القماش العادي والأصماغ والنشا وما إليها في هذه الأعمال، نظراً لانعكاساتها السلبية على المخطوطات، وتأثيرها على نمو الحشرات الضارة والبكتريا والفطريات، أهمها النمل الأبيض (الأرضة)

والسمكة الفضية، والحشرة القارضة، ودودة الورق، والخنفساء السوداء، والإصابات الجرثومية، والفطريات؛ وهذه الأخيرة تترك بقعاً ذات ألوان مختلفة صفراء أو برتقالية أو سوداء تترك أثراً حامضياً، يؤدي إلى فسخ الزخارف وضياع ألوانها. وجدير بالذكر أن هذه الفطريات لا تمتص الرطوبة من الجو، بل من المواد المخزونة نفسها، وبخاصة عندما تكون درجة الرطوبة في المخازن مرتفعة. وهناك مواد متعددة تستخدم لمكافحة الحشرات بينها مادة الـ (D.D.T).

ويهتم هذا القسم أيضاً بعملية تعفير المخطوطات وتعقيمها، وتقتني كل مكتبة صناديق للتعفير بمعدل صندوق لكل خزانة، وتوضع فيه مجموعة كتبها، وتبخر بمواد قاتلة للحشرات، وتتم هذه العملية مرة واحدة كل عام، وعند الشعور بوقوع إصابات بين المخطوطات. ونشير هنا إلى أنه لابد من تعفير المخطوطات القادمة حديثاً إلى المخزن قبل وضعها فوق الرفوف، لاحتمال كونها مصابة إصابات مسبقة، وحتى لا تنقل العدوى إلى المخطوطات الأخرى المحفوظة في المخزن. ويكون صندوق التبخير عادة مصنوعاً من مادة خشبية جيدة، مصفحة من الداخل بمادة معدنية لا تسمح بتسرب الأبخرة خارجه. ويكون حجم الصندوق حوالي متر مربع واحد، توجد في أسفله شبكة معدنية ترتفع حوالي **٢٠** سم من أسفله توضع فيها المواد الكيميائية الخاصة بمكافحة الأوبئة. وهناك أضرار متنوعة؛ قد تصيب المخطوطات نتيجة الاستخدام والملامسة من قبل الموظفين والمستفيدين، أو نتيجة عرضها في المتاحف والمعارض. لذلك

ينصح بعدم استخدام وسائل التدفئة الغازية أو النفطية في المخازن، وعدم السماح للمستفيدين من استخدام أقلام الحبر وما شابهها عند استعمال المخطوط، مع منعهم بشدة من الكتابة فوقه. ويفضل تقديم صور عن المخطوط للمطالعين، أو ميكروفيش وميكرو فيلم عنها لقراءتها عبر الأجهزة القارئة، (النقشبندي، ١٩٧٦ : ١٥٨) أو عبر الكمبيوتر.

٧- فهرسة المخطوطات وتكشيفها:

لقد بذلت حتى الآن جهود كبيرة على المستويين العربي والدولي لرصد المخطوطات، وفهرستها، وصدرت أعداد هامة من الفهارس بجهود علماء أجلاء، دفعهم لذلك حبهم للتراث وانشغالهم فيه، أوبجهود منظمات عامة أو مؤسسات خاصة سبق الإشارة إليها.

ولم تسلك هذه الفهارس مسلكاً موحداً من الناحية الفنية وهو مسلك بدأ في السنوات الأخيرة، يأخذ اتجاهاً موحداً على جميع المستويات العربية، وذلك بصدور بطاقة الفهرسة الموحدة للمخطوطات العربية عام ١٩٨٩، وهي بطاقة يجري اعتمادها اليوم في جميع الدول العربية من قبل الباحثين العرب المهتمين بإصدار الفهارس. وتتضمن هذه البطاقة ستة حقول أساسية هي على التوالي:

١- **حقل المضمون**: يحوي هذا الحقل عنوان المخطوط والعناوين الفرعية، والمؤلف مع تاريخ وفاته، ثم الموضوع واللغة التي كتب فيها، ثم عبارات البداية والنهاية.

ويجري التحديد اعتماداً على المخطوط نفسه، أو على مصادر أخرى ذات صلة، بسبب غياب العنوان أصلاً لضياع بعض الأوراق الأولى أو الأخيرة منه، أو لكون بعض الناسخين ينسون كتابة العنوان، كذا بسبب تعدد أسماء القدماء من المؤلفين، وتنوعها، وهذه كلها لها قواعد محددة يجب اعتمادها.

٢- **بيانات النسخ**: وتتضمن اسم الناسخ مع نسبه ومذهبه ومسكنه إلخ... ثم مكان وتاريخ النسخ باليوم والشهر والسنة إلى غير ذلك من أمور.

٣- **الوصف المادي للمخطوط**: مثل رقم المجلد، رقم الجزء، نوع المادة التي كتب عليها، وصف الحالة العامة له، وحالته الصحية، وعدد أوراقه، ومقاييسه، كذا نوع خطه، ورسومه وزخارفه، مع لون مداده وتجليده.

٤- **الإضافات الخاصة بالمضمون**: وتشمل إضافات تتصل بمضمونه أو لا تتصل، كالإجازات، والسماع، والتوقيعات، والملكية، والأوراق المنفصلة عنه، إلى غير ذلك من أمور.

٥- **البيانات الإضافية**: وهي البيانات الخاصة بالنسخة، وبيانات النشر والترجمة، ورقم تواجد المخطوط في المكتبة ومجموعته، ومكان الطبع إن وجد، وتاريخه، ودار النشر، مع بيانات التحقيق وما إليها.

٦- **حقل الملاحظات**: أي البيانات المتصلة بالمخطوط التي لم يكن بالإمكان إدخالها ضمن البيانات السابقة لسبب أو لآخر، تم الحصول عليها من مصادر أخرى خارجية.

أما الكشافات فهي ضرورية أيضاً، وتقع في عدة أنواع مثل: كشاف العناوين، وكشاف المؤلفين، وكشاف النساخ، والكشاف الزمني وغيره، ثم إن وجود فهرس عام موحد للمخطوطات العربية في العالم هو أمر في غاية الأهمية، وهو عمل ضخم يستدعي تضافر الجهود وتوفير الأموال والوسائل اللازمة لذلك. ويوجد في كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وكتاب تاريخ التراث العربي لفؤاد سيزكين، حصر لعدد كبير من المخطوطات العربية وكتب التراث، إلا أنهما مع غيرهما من الفهارس الموجودة اليوم، لا تغنيان عن الفهرس الموحد المنشود. ويمكن أن يتحقق ذلك اليوم بصورة أسهل من أي وقت مضى، نظراً لتواجد الكثير من الفهارس الراصدة للمخطوطات، ويبقى على معهد المخطوطات بذل الجهود لإصدار الفهرس الموحد الذي يشملها جميعاً؛ لأنه الجهة الأقدر على ذلك. ويبقى اليوم ضرورة تعميم استخدام الآلية في صنع هذه الفهارس والكشافات؛ نظراً لإمكانات استيعابها الواسعة، ومقدرتها الفائقة على التنظيم، مع دقتها وكفاءتها المتناهية. لذلك لابد من الاهتمام بإصدار الفهارس المحسبة للمخطوطات العربية.

٨- تحقيق المخطوطات:

التحقيق هو جهد علمي هام لا يقل أهمية عن التأليف، بل هو جهد وطني يعمل على إحياء تراث الأمة، والتعريف به، وإبرازه لينير السبيل أمام الأجيال الصاعدة. ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى تحقيق تراثنا ونشره، وبخاصة منه التراث العلمي، لنبين مدى إسهام

أجدادنا في صنع النهضة العالمية، وحفاظهم على تراث الأمم الأخرى. ومن واجبنا اليوم أن نفخر بعلمائنا الأجلاء الذين يصرفون الوقت والجهد، قصد التعريف بتراث أمتهم وإسهاماتها عبر التاريخ في الحضارة الإنسانية. قالت المستشرقة المنصفة زيغريد هونكة في مقدمة كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب): «لقد صممت على تأليف هذا الكتاب، وأردت أن أكرم العبقرية العربية، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلاً، تعصب ديني أعمى، أو جهل أحمق... لقد حان الوقت للتحدث عن شعب أثر بقوة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له الغرب، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير، بالرغم من ذلك، فإن من يتصفح مئة كتاب تاريخي، لا يجد اسماً لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها» (هونكة، ١٩٨١: ٠٩).

وينبغي على المحقق أن يروض نفسه على الصبر والجلد، لأن تحقيق الكتب والنصوص يحتاج إلى نفس طويل وإرادة قوية، وميل لمثل هذا العمل.

ومن الصفات الأخرى المطلوبة في هذا المجال، الدقة والأمانة العلمية في النقل، كذا الدقة في التفكير والتعبير، مع الشعور بالمسؤولية والتواضع، ثم الارتفاع عن مجرد الرواية وترديد الأخبار، بل السعي لاستجلاء معانيها، وبيان آثارها في الحياة. وهناك ثلاثة أنواع من العلماء المحققين، نوع مثقف بثقافة علمية معاصرة تستند على تجربة واختبار، يضعون معارفهم في خدمة الحقيقة، ونوع مثقف بثقافة إسلامية تقليدية؛ يفهمون ويفسرون في

ضوء آراء السابقين وأفكارهم دون خروج عنها، وهؤلاء لا يضعون المعرفة السابقة في ضوء العلوم الحديثة والشروط المتغيرة، بل يبقى تحقيقهم تقليدياً ملتزماً دون خروج عن القواعد السابقة المألوفة.

أما النوع الثالث فهو الذي اطلع على الثقافة الحديثة المعاصرة، وعرف مداخلها ومناهجها ومضامينها، وتشرب بروحها، مع إحاطته إحاطة واعية بالثقافة الإسلامية السمحة، وبالتالي يكون قد جمع بين الثقافتين الحديثة والتقليدية، وهو النوع الذي نتمنى أن يسود بين المحققين، لأننا بحاجة إلى أمثال هؤلاء العلماء الذين لا يفرطون بالقديم ولا يستهينون به، بل يقدمونه بحلة عصرية حديثة. إننا بحاجة إلى علماء يحترمون حرية التفكير والرأي الآخر، ويوسعون زاوية الفهم، ويمتلكون المعايير والموازين لتقويم الثقافتين الإسلامية والمعاصرة، والتمييز بين ما هو صحيح فيها، وما هو خاطئ دون تحيز، ومن دون معرفة تامة بالثقافة الإسلامية، ومن دون إحاطة بالثقافة المعاصرة، ومن دون التمييز بين الصالح والطالح، وبين الحسن والسيئ؛ لا يكون هناك ازدواج بين الأفكار، ولا مولود سليم البنية والروح معاً. (أتاي، ١٩٩٢ : ٣٤). إن على الباحثين أن يختبروا الأدلة قبل أن يختبروا الأقوال المستندة إليها، إذا كانت صحيحة يتأكدون من صحتها، وإذا لم تكن صحيحة صححوها، هذا هو المنهج الصحيح للبحث عن الحق والصواب، بعيداً عن الأحكام المسبقة.

ويحتاج المحقق إلى ثقافة أوسع من ثقافة المؤلف، حتى يتمكن من تقديم النص الذي يحققه حياً إلى القراء، لذلك نجده بحاجة إلى

اطلاع واسع على مختلف أنواع الثقافة، ومعرفة بالمكتبات والخزائن، وكيفية استخدام فهارسها، كما هو بحاجة إلى اطلاع جيد على فقه اللغة العربية، وعلم الصرف ليتمكن من استجلاء غوامض النصوص، أو ما ذهبت به الأيام، كما هو بحاجة إلى اطلاع على علم العروض والقافية، ويكون بحاجة في عمله إلى اطلاع على المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع المخطوط، مثل: مؤلفات صاحب المخطوط، ومخطوطاته الأخرى، والكتب ذات الصلة به، وبخاصة المؤلفات التي اعتمدها المؤلف في كتابه، مع كتب الأعلام والأنساب والمعجمات اللغوية، فضلاً عن كتب أخرى يهتدي إليها المحقق، وهو يجمع مصادره.

ثم إن معرفة المحقق بأنواع الخطوط العربية يعد من الأمور الهامة، وبخاصة عندما يتصل الأمر بمخطوط قديم، ومعروف أن العرب كانوا يكتبون بالخط الكوفي حتى القرن الثالث الهجري، وهو خط لم يكن منقوطاً أو مشكولاً، تصعب قراءته، ثم الخط الثلثي والنسخي والريحاني في العصر العباسي، بينما لم يشتهر الخط الفارسي بأنواعه إلا بدءاً من القرنين السادس والسابع، وبلغ مرحلة الكمال في القرنين العاشر والحادي عشر. أما الخط الأندلسي فقد ازدهر في الأندلس بصفاته الخاصة، والخط الإفريقي في المغرب. وكان لكل قطر خصائص الخط لديه، ولكل مؤلف خطه وشخصيته.

ولا يجوز للمحقق أن يتدخل في نص المخطوط مهما كان السبب، بل عليه أن يخرجه بالشكل الذي يرضي مؤلفه الأصلي، ويخرجه كما لو كان حياً، بتقديم النص مقروءاً ومشكولاً، وموثقاً،

وإثبات صحته وعنوانه لمؤلفه بدليل علمي قاطع، والسهر عليه سهراً كلياً، لتثبيت كل ما فيه من كلام، وشواهد وأعلام، مع العناية الدقيقة بضبط الكلمات التي تحتمل أكثر من قراءة، فهو إذن عملية إحياء نص قديم، وعرضه عرضاً علمياً دقيقاً، وهذا الأصل، لأن النص أمانة مقدسة في رقبة من يتعهد إخراج النص من مكامنه. (ألتونجي، ١٩٨٦ : ١٨٠).

وتعد الحواشي، الميدان الحر لقلم المحقق الشخصي، وشروحه، وآرائه الشخصية، وتعليقاته، يذكر فيها ما يشاء، وإذا كان من واجبه الإبقاء على متن النص كما هو دون أي تبديل أو تغيير، فإن الهوامش هي له، يدوّن فيها ما يريد، ولكن دون إطالة أو إكثار من الشروح، حتى لا يرهق القارئ، ويعيب الكتاب، ويفضل أن تكون تعليقاته عبارة عن إشارات توضيحية، أو شروح موجزة، أو تصحيح خطأ ورد في النص الأصلي، أو شرح نقطة غامضة.

ويجب على المحقق أن يضع فهارس للمخطوط، مثل فهارس الأعلام المذكورة في النص، وفهارس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وفهارس الأشعار، وفهارس أخرى يراها ضرورية ويتطلبها المخطوط مثل فهارس الألفاظ، وفهرس المباحث الكلامية، وفهرس الاستعارات والمجازات لمخطوطات علوم البلاغة وغيرها.

ويجب على المحقق أن يضع مقدمة وافية للمخطوط تعرف بهوية صاحبه وعصره، وعلومه وشيوخه، وتلامذتهم، ويتحدث فيها عن موضوع الكتاب ومن سبقه إليه، ومن تبعه بعده فيه أو علق عليه.

كما يصف فيها المخطوطة مثل: الحديث عن مكان وجودها، وعدد أوراقها، وقياس كل ورقة، وعدد السطور فيها، ونسبة كمالها أو نقصها وعيوبها، ونوع النقش وألوانه، وصحة نسبة العنوان وما ذكر مع العنوان، ونوع القلم الذي نسخت به، وهل هو منقوط ومشكول، ومدى صحة ذلك، وهل النسخة مزينة، وتاريخها، ومدى علاقتها بنسخة المؤلف، وكم قلماً نسخها، واسم ناسخها، ومرتبته العلمية، وأمانته. ثم يعرف بالتعليقات والهوامش والإجازات والأختام والتملكات المضافة على النسخة... ثم تعريف بالنسخ الفرعية، ووصفها وصفاً دقيقاً، ومدى الاستفادة منها، وأهميتها، وهل هي مطبوعة سابقاً، وأهمية النسخة المطبوعة وعيوبها، فقد يعتمد المحقق على نسخة واحدة فيطبعها، وقد يفقد أصل الكتاب بعد طبعه، وهذا يزيد من أهمية النسخة المطبوعة... ثم يبين (المحقق) خطته في مراحل عمله التحقيقي، والشرحي، والفهرسي، ونوع الصعوبات، وأسماء من مدّوا له يد العون والمساعدة، والرموز التي اتبعها في إخراج نسخته. ثم التعليق على أسلوب المؤلف وأفكاره، وإذا كانت النسخة دون تاريخ، كيف ذلل ذلك، وإذا كانت غفلاً من اسم المؤلف، كيف تمكن من اكتشافه؟ ثم يختم ذلك كله ببعض الورقات المصوّرة من المخطوطات بوصفها نماذج، ولا سيما الأولى والأخيرة. وترقم هذه المقدمة بالأبجدية، وتلحق بأول الكتاب (ألتونجي، ١٩٨٦: ١٩٥)، وفي جميع الأحوال تبقى الممارسة الميدانية، والتجربة خير مجال للمحقق، وأفضل سبيل.

٩- الذاكرة العربية الرقمية:

لم يعد يليق بنا نحن العرب، أن نواصل الوقوف مكتوفي الأيدي، أمام ثورة علمية عارمة، في الوقت الذي بدأت فيه دول عديدة أخرى، في شرقي آسيا وأمريكا اللاتينية، أقل منا إمكانات وقدرات، بالنهوض للإسهام في صنع الحضارة العالمية، والانخراط بها، أخذاً وعطاء، سعياً منها لمواكبة العصر، وآفاقه المتجددة. صحيح أن دخول هذا العصر ليس أمراً سهلاً، بل يحتاج إلى جهد وعمل، وإلى مواجهة تحدياته بإرادة قوية، وخطوات مدروسة واعية، وهي تحتاج بدورها إلى استنفار مختلف قوى المجتمع، وإمكاناته المادية والبشرية، قصد خلق ثقافة الابتكار، «وهي بنيان مرصوص لمجموعة من العوامل التي يجب الاهتمام بها، تبدأ من المنزل، ثم تنتقل إلى مدارس التعليم العام والمهني، وتروى من خلال وسائل الإعلام، وتبرز في الجامعات ومؤسسات البحث العلمي، لكنها لا تثمر ولا تزدهر إلا في مناخ من التخطيط والتعاون والعمل المشترك بين جميع هذه الأطراف». (الحاج بكري، ٢٠٠٦: ٢٩).

ومعروف أن التقدم لا يمكن أن يتحقق، إلا من خلال تعزيز ثقة الإنسان بوطنه، وأمته، وتراثه، واقتناعه بخطر سيطرة الثقافات الأخرى على مقدرات حياته. أما مجتمع المعرفة الذي نريده، فهو مجتمع تسوده العدالة والحوار، والمصالح المتبادلة بين الشعوب، واحترام الآخر، «وليس لنا من سبيل إلى ذلك، سوى حفز الهمم، وخلق المناخ الملائم للإبداع والابتكار، والتعريف بمنجزاتنا الحضارية عبر العصور، ولدينا الإمكانات المادية والبشرية لذلك،

بعيداً عن الإملاءات الغربية، التي تبذل قصارى جهدها، للهيمنة والسيطرة». (العوضي، ١٩٩٩: ١٠). وليس أمامنا، من سبيل، سوى بذل كل الجهود، لدخول عصر المعرفة، كمشاركين في فعالياته، والسعي الحثيث، لتجديد ثقافتنا الوطنية، والتعريف بحضارتنا الإنسانية، حتى نتمكن من ركوب قطار العولمة، كأنداد، لا كعبيد، لأن لكل حضارة عناصر تفوقها الذاتية، مع استفادتها من حضارات الأمم الأخرى.

إن من أولى واجباتنا اليوم، ونحن نسعى لتجديد شباب أمتنا، أن نجتهد لتعريف أبناء هذه الأمة وبناتها، بمنجزاتنا الحضارية على مرّ العصور، وإسهاماتنا العلمية والثقافية، في بناء الحضارة الإنسانية، وإن الوسيلة الأولى والأكثر أهمية، للوصول إلى هذه الغاية النبيلة، هي إنشاء المكتبة العربية الرقمية، التي تجمع هذا التراث من المكتبات والأراشيف والمتاحف العربية، وتحفظه، وتصونه، وتعرف به رقمياً، وفق الطرق العلمية الحديثة وتتيحه للناس، داخل الوطن العربي وخارجه، حتى يطلعوا عليه، ويفيدوا منه في رفع معنوياتهم، ودعم مواقفهم، ويجددوا من خلاله العزم، للمضي قدماً في طريق الإبداع والعطاء الخلاق. إن المكتبة العربية الرقمية هي ذاكرة الأمة، وحامية أمنها الثقافي، والاجتماعي، وهما سبيل هام لحماية أمنها القومي. وغني عن القول، إنه «كلما كان الاتصال الجماهيري أكثر ارتباطاً بثقافة الشعب، وأكثر قدرة في المحافظة على تراثه، كلما زادت درجات الإبداع، وانتشرت الثقافة الواقعية، والقيم الإيجابية، لذا يحذر الباحثون والمثقفون، من خطر

سقوط الثقافة، وتدني مستواها، لأن ذلك يقود لانهيار الأمة، واضمحلالها على جميع المستويات». (حجازي، ٢٠٠٩: ١٠٦٦). لذلك لا يجوز أن تبقى ثقافتنا العربية، حبيسة المخازن، نستخدم الطرق التقليدية في غالب الأحيان، لمعالجتها، والتعريف بها، في عصر الانفجار العلمي والمعلوماتي. من هنا، وفي ضوء ما سبق ذكره، كانت أهمية المكتبة العربية الرقمية، التي تجمع التراث العربي من المحيط إلى الخليج، وتصونه، وتعالجه، وتعرف به إلكترونياً بوسائل العصر، وبذلك، تحافظ على الأمن الثقافي العربي، وتكبح جماح الاختراق الثقافي، وتحد من آثاره السلبية.

١٠- مقترحات عامة:

لقد عرفت المخطوطات العربية اهتماماً ملحوظاً في السنوات الماضية من قبل حكومات الدول العربية والمؤسسات الرسمية والخاصة، ومن قبل الباحثين، إلا أن ذلك ما زال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والرعاية والدعم، سيما ونحن نعيش عصر العولمة الذي يسعى إلى القضاء على الشخصية الوطنية للدول النامية، وبخاصة منها شخصيتنا العربية الإسلامية. لذلك يجب أن تأخذ هذه القضية قدراً أكبر من رعايتنا واهتمامنا حفاظاً على هويتنا ووجودنا. ونقدم فيما يلي بعض المقترحات التي يمكن أن تفيدنا في تدعيم نشاطنا، وتقوية مجهوداتنا في هذا الاتجاه:

١- إنشاء صندوق عربي خاص لتمويل حماية التراث المخطوط ونشره، وتعضيداً للجهود التي تبذلها الحكومات والمؤسسات العلمية

في هذا المجال، مع تبادل الخبرات الفنية والبعثات التدريبية المتصلة بالمخطوطات، وتصويرها، وصيانتها، وترميمها، وتبادل الفهارس للتعريف بما تقتنيه كل دولة من مخطوطات، إلى جانب السعي لإنجاز الفهرس الموحد بإشراف معهد المخطوطات العربية.

٢- تقديم مزيد من الدعم لجهود معهد المخطوطات العربية والمؤسسات العلمية لتصوير المخطوطات العربية الموجودة في العالم، وبخاصة في تركيا، التي تقتني مجموعات كبيرة من تراثنا المخطوط الذي تواجد فيها خلال الحكم العثماني للبلاد العربية. ويجب إقامة مزيد من التعاون مع اليونسكو ودول العالم في هذا السبيل، مع ضرورة الاستعانة بمؤسسات تصوير ذات خبرة عالية في هذا العمل، وتوقيع الاتفاقيات الثنائية مع الدول لتحقيق هذه الغاية.

٣- وضع قانون عربي موحد لحماية المخطوطات كتتويج للقوانين الوطنية لكل دولة، ويشمل كل ما يتصل بأمن المخطوطات، وصيانتها، وإدارتها وملكيتها وسبل التعريف بها، وجمعها، وحفظها، وترقيمها، وتصويرها، وتقييم الانتفاع بها إلى غير ذلك من أمور بمشاركة المتخصصين في الأرشيف والمخطوطات ورجال القانون، ووضع العقوبات الرادعة لكل عمل من شأنه الإساءة إلى المخطوطات أو تهريبها للمتاجرة بها، مع وضع المكافآت اللازمة لكل من يسهل جمع المخطوطات ووضعها تحت تصرف الجهات المسؤولة عن حمايتها ورعايتها.

٤- الاستمرار في بذل الجهود على المستويات الوطنية للتعريف بأهمية المخطوطات في حياة كل أمة، ومتابعة السعي لاقتنائها،

ورعايتها، وحفظها، وترقيمها، والتعريف بها وفق أفضل السبل والوسائل، مع ضرورة إنشاء المكتبة العربية الرقمية للمخطوطات، وكتب التراث العربي، وهي ذاكرة الأمة.

٥- إجراء مسح شامل على مستوى كل دولة عربية للمخطوطات المحفوظة في المكتبات العامة والخاصة الموجودة فيها، ونشر قوائم بها، تمهيداً لإصدار فهرس المخطوطات الموحد على المستوى العربي، ووضع هذه الصور تحت تصرف الباحثين في كل دولة عربية. كذا نشر قائمة موحدة للرسائل الجامعية على مستوى الماجستير والدكتوراه التي تناولت تحقيق المخطوطات على مستوى الجامعات العربية أو الجامعات الأجنبية التي اهتمت بتحقيق مخطوطات عربية.

٦- توجيه مزيد من الاهتمام لتحقيق المخطوطات ذات المحتويات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والفنون العسكرية نظراً لأهمية هذه المواضيع، وقلة اهتمام الباحثين بها.

٧- وجوب تعميم الطرق والوسائل العلمية الحديثة في حفظ المخطوطات وصيانتها، على مختلف المكتبات ودور الوثائق التي تقتني مخطوطات ما أمكن ذلك، ونشر المعلومات اللازمة حول هذا الموضوع. وننوه هنا بالجهود التي تبذلها مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، والمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة في هذا المجال.

٨- إقامة مزيد من الدورات الفنية الخاصة بترقيم المخطوطات وصيانتها وتعقيرها والحفاظ عليها، إلى جانب موضوعات أخرى تتصل بأنواع الخطوط والورق والحبر والكتابة والخطاطين والوقاية

من الآفات التي تصيبها. وحبذا لو أدخلت هذه الموضوعات كمادة مقررة في أقسام المكتبات والتاريخ في جامعات العربية ضمن «المخطوطات العربية».

١١- الخاتمة:

إذا كانت الأمم والشعوب تعنى بتراثها المخطوط، فإن من واجبنا نحن العرب والمسلمين أن نكون أكثر منها عناية ورعاية واهتماماً، نظراً لحجم تراثنا المخطوط الهائل المتواجد عبر العالم ونوعيته، والذي يقدره معهد المخطوطات العربية بثلاثة ملايين مخطوط، وهي ثروة لا تعادلها ثروة نادرة، كان لها دور كبير، مؤثر وفاعل في صنع الحضارة الإنسانية، نهل منها الغرب قروناً عديدة، وأفاد منها في صنع نهضته، وإقامة حضارته، التي تظلل العالم اليوم.

إن التعلّق بالتراث، وبذل الجهود الفردية والجماعية لحمايته وتحليله ودراسته والتعريف به بروح علمية واعية، هو أحد مظاهر الإيمان بالأمة وتاريخها وأمجادها، والعمل على ترسيخ أقدامها بين الأمم. وإذا كانت البشرية ما زالت بحاجة إلى ثرواتنا المادية، فإنها أكثر حاجة إلى ثروتنا الثقافية والفكرية في هذا العالم المضطرب الذي انحدرت فيه القيم، وتعثرت أمامه السبل نحو إقامة مجتمعات تسود فيها المحبة والإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية، لذلك كله نجد أنفسنا اليوم؛ بحاجة أكثر من أي وقت مضى لنشر هذه القيم والمثل العليا في تراثنا عبر أحدث الوسائل، وأفضل السبل.

مراجع البحث

- أتاي، حسين، (١٩٩٢) منهج البحث العلمي في القرآن الكريم مجلة العلوم الإسلامية، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع٣ (جانفي ١٩٩٢).
- ألتونجي، محمد، (١٩٨٦) المناهج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، حلب: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٨٦.
- الحاج بكري، سعد، (٢٠٠٦) التحول إلى مجتمع المعرفة، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، (١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م).
- حجازي، أحمد مجدي، (٢٠٠٩) العولمة والتدفق المعلوماتي، الأبعاد الاجتماعية، والآثار السلبية، أعمال المؤتمر العشرين للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات (الدار البيضاء ٩ - ١١ ديسمبر ٢٠٠٩) مج. ٢. ص ١٠٦٣ - ١٠٧٥.
- الحلوجي، عبد الستار، (١٩٧٦) نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط. المورد (مجلة تراثية فصلية) بغداد: وزارة الإعلام، مج ٥، ع١، ١٩٨٦.
- حمادة، محمد ماهر، (١٩٧٠) المكتبات في الإسلام،

نشأتها، تطورها، ومصائرها، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٩٧٠.

- ديورانت، وول، (١٩٥٠) قصة الحضارة، تعريب أحمد بدران، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠.

- صوفي، عبد اللطيف، (١٩٨٧) لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧.

- العوضي، رفعت، (١٩٩٩) باحثون ومفكرون عرب يحذرون من فخ العولمة، دمشق: صحيفة تشرين، (٢٤ تموز ١٩٩٩)، ع٤٧٦٣، ص ١٠.

- قزانجي، فؤاد، (١٩٧٢) المكتبات والصناعة المكتبية في العراق، بغداد: مطبعة الجمهورية، ١٩٧٢.

- مقداد، عمر، (١٩٩٨) الصراع بين العولمة والهوية، مجلة معلومات دولية. دمشق: مركز المعلومات القومي، ١٩٩٨، ع ٥٨.

- نعمان، عصام، (١٩٩٢) العرب والعالم، تحديات العولمة وفرصها، مجلة معلومات دولية، دمشق: مركز المعلومات القومي، ع ٥٨ (خريف ١٩٩٢).

- النقشبندي، أسامة ناصر، (١٩٧٦) صيانة، وخزن، وتعفير المخطوطات، مجلة المورد (مجلة تراثية فصلية) بغداد: وزارة الإعلام، مج ٥، ع١، ١٩٧٦.

- الهاشمي، بشير، وجهة نظر في حماية المخطوطات العربية. المورد (مجلة تراثية فصلية) بغداد: وزارة الإعلام، مج ٥، ع١، ١٩٧٦.
- هونكة، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبة. ط ٥، تأليف: زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، وكمال الدسوقي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١.

ملحق البحث

الاعتبارات المادية والبشرية في دراسة المخطوطات

١- فنون تركيب وإعداد المخطوط:

- المخطوط عالم وفن معقد الجوانب فيه ما هو مادي وما هو بشري.

- هناك أربعة أركان لصناعة المخطوطات (الورق، الحبر، الخط، التجليد).

- استخدم المسلمون الرق البريدي والورق في مؤلفاتهم.

- المداد له أمزجة كثيرة وألوان متعددة وأقلام متعددة أيضاً.

- هناك خطاطون مشاهير من العصر العباسي مثل بني مقلة، وابن البواب وغيرهم.

- المعايير الجمالية والشخصية تتحكم في الخط وأنماطه وهي تتحرك في مراتب الإبداع وعالم الجمال.

- هناك أصناف كثيرة من الكاغد (الورق) الذي كتبت عليه

المخطوطات القديمة، مع تنوع أساليب الصناعة والمكونات، وطرق السقي والصقل والتكوين، وقلة الأحماض.

(هناك كاغد صنع من القنب الجيد الأبيض وآخر من التبن القديم).

- هناك أنواع متعددة للتجليد تستخدم الجلد والحرير والخشب والورق الملبد مع الخيط واللصق.

- لقد أبدع الخطاطون والمزوقون والمذهبون في ذلك، والحبارون في مزج الأوان.

- أهم أنواع الحبر (الأسود، اليابس، متعدد الألوان، والمائع المركب، اليابس المعتاد، مركب الذهب والفضة).

- صناعة الحبر من (ماء قشور الجوز الرطب، ماء قشور الرمان الرطب، ماء الخرنوب الرطب، ماء الأثل) ويمكن ضم الواحد منها إلى الآخر وهو أفضل وأشمل. وأفضل الحبر ما صنع من سخام النفط.

- مكونات الحبر الأسود (العفص، الزاج، المغ، الماء، وقد يضاف إليه الزعفران، والمسك والصبر السقطري، ماء الورد).

- مكونات الحبر الأبيض (الإسفيداج (Cérus)، ماء العفص الأبيض، الصمغ، مواد المداد الوردي (مشكلة من المرتك، الزعفران، الصمغ والماء، ماء الجلنار).

- كل نوع من أنواع من الحبر يصلح لنوع من مواد الكتابة:

العفص المطبوخ يصلح للكاغد وحده، المعصور يصلح للكاغد والرق، المنقوع يصلح للرق خصوصاً، الغبار يكتب به في حينه.

٢- أنواع الورق في المخطوطات الإسلامية:

-صناع الورق منذ العصر العباسي عرفوا باسم (كاغدي) لاشتغالهم بالكاغد، آخرهم الحاج صالح كاغدي (ق. ١٢) ذكر اسمه في الكتابات الفارسية القديمة.

- استخدمت لفظة كاغدي أيضاً في بلاد فارس لوصف الثمار ذات القشور الرقيقة.

- خاطب الشاعر الفارسي سراج المحققين محبوبته خلال القرن الثاني عشر الميلادي بقوله: أيتها المحبوبة لماذا تعقدين حاجبيك عند رؤية هذه الرسالة، إنها رسالة حبيب، وليس ليموي كاغدي (ليمونة)..

- استخدمت كاغدي في معان أخرى (الجوز، اللوز، الخوخ، أسماء، مدى، رسالة، الأدوات، الحياة اليومية)، أي حوالي أربعين نوع.

- صانع الورق سمي: كاغدكر، كاغد ساز.

- مصنع الورق: كاغدي كري، أو بكار كاه كاغدكري.

الورق السمرقندي كانت له شهرة واسعة بين القرن الرابع حتى القرن الثالث عشر الهجري.

- نشطت صناعة الورق في أصفهان وهو جيد وممتاز، وقزوين، وكاغد كنادر الواقعة بالقرب من زنجان، كذلك في كرمان (بالقرب من مدينة خند حد)، ومدينة يزد.

- ذكر ابن النديم في الفهرست ستة أنواع من الورق الجيد في القرن الرابع الهجري هي: السليماني، الجعفري، الطلحي، النوجي، الكاغد الفرعوني (المصري) وهي أنواع منسوبة إلى كبار رجال الدولة المصنوعة في خراسان، وهي مفضلة على غيرها.

- خرق نسيج الكتان كانت تحول إلى عجينة بواسطة ملح النادر، ثم تصقل وتسوى الألوان التي استخدمت في صناعة الورق، وكانت إما بسيطة أو مركبة، وكان أكثرها شعبية ال (أصفر محمر) وحنائي (برتقالي حمر) وليمون (أخضر مصفر) ومستقي، نخودي (أصفر برتقالي) وكان الاعتقاد السائد أن الأبيض الناصع صالح للعيش في الضوء القوي وأن الورق الملون أكثر ملاءمة.

يقول الشاعر عن ورق آل الملون:

«كان بغرفتي ورق آل وردي، مذكراً ليلي بالورود، بوجه حبيبتي». وقال آخر يقارن لون الورق الحناني بلون يد محبوبته:

«لونك في نضارته، كالحرير الصيني، ويدك في رقتها، كالكاغد الحنائي».

- الكاغد الأبري نوع من الورق السميك المصقول. كتب الشاعر لمحبوبته:

«فلتعلمي أني بدونك أبكي دموعاً بمئة لون، رقشت بها لون الكاغد الأبري».

– في القرن **٣** / م كان الورق يصقل بكلاء من النشا. والورق المصقول نوع جيد، فضله الخطاطون لأن القلم يجري عليه بسهولة.

– الركائز التي يمكن الاعتماد عليها في معرفة نوع الورق هي: العنوان، المعالم الظاهرة للمخطوط، نوع الورق بشكل عام، مقرونة بتاريخ الخط.

– هناك أنواع للورق، السمرقندي، الأصفهاني في، البغدادي، دولة أبادي، الشامي، والهندي، والأول أفضلها جميعاً، وأقدمها، ودامت تجارته قروناً عديدة، كما صنع أهل طرابلس الشام ورقاً يضاهيه جودة.

المجال الجغرافي في قصص القرآن الكريم

أ.د. رجاء دويدري

حمداً لله على ما أنعم والصلاة والسلام على نبيه الأكرم..

وبعد هذه خطاطة موجزة حاولت النهوض بها وأنا أعلم وفرة مؤونتها ومعينها كتاب الله، معجزة الإسلام الخالدة، التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخاً في الإعجاز، وركائزها منهج الصدق التاريخي والعلمي والبياني في قصص القرآن الكريم؛ فعلى هدي آياته حاولت توضيح هذه القصص وما ينتظمها من وحدة جغرافية، وما بينها من علاقات مكانية، وإني آمل أن يكون ما أقدمه وسيلة استقصاء، وأداة تعميق، وإحياء لدراسات تأخذ بالاعتبار المواضع التي تعين على فهم القرآن الكريم.

القرآن: اسم كتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء من سائر الكتب غيره، ولفظ القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ويقال للقرآن: فرقان أيضاً، وأصله مصدر أطلق على النظم الكريم، والقص تبع الأثر، والقصص مصدر، والقص أيضاً: الأخبار

المتبعة، والقص: الأمر والخبر والحال والشأن، وقصص القرآن: إخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة. وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة على ما كانوا عليه.

القصص القرآني ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بالحوادث التي وقعت زمن الرسول الكريم؛ كغزوة بدر وأُحد وحنين وتبوك والأحزاب والهجرة والإسراء.

وعلى أساس تاريخي: يمكن تقسيم قصص القرآن إلى قسمين متميزين، يتباينان في مدى وضوح المكان:

القسم الأول: ويشتمل قصص ما قبل الطوفان؛ أي قصص آدم وإدريس ونوح، ولا نكاد نجد ذكراً للمكان في هذه المجموعة، باستثناء ما ذكر عن الجودي، وقصة نوح وما زال موضعه محل جدل.

القسم الثاني: قصص ما بعد الطوفان، بدءاً من هود إلى سيدنا محمد ﷺ، وفي هذا القسم أمكنة متعددة نحاول تحديد مجالها الجغرافي.

ورغم أهمية دراسة المكان في قصص القرآن لفهم ما قص الله تعالى في كتابه، فإن من عُني بذلك قلة، ولم يشيروا إلى إبراز ما بين الأمكنة من علاقات، نذكر منهم:

مظفر الدين الندوي[١]، وجه عنايته إلى ما جاء في القرآن الكريم من أمور تتصل بالحوادث التاريخية والظاهرات الجغرافية، والشيخ عبد الوهاب النجار[٢]، أورد المكان في قصص متفرقة كسابقه، وخصّ محمد رشيد رضا[٣]، في كتابه (دراسة لسورة هود) أمثلة كقصص موسى ونزوله في أرض مدين، كما ضرب أمثلة بقصص هود ونشأته مع قبيلة عاد.

ولقد عُني مؤرخو الإسلام والمفسرون بقصص القرآن الكريم، معتمدين أساساً على ما جاء فيه وما صح من الأحاديث؛ نذكر منهم: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[٤]، وكتابه تاريخ الأمم والملوك. فقد سار في إسناد الأخبار إلى رواتها.

ولقد أسلفنا أن مرجعنا الأساسي القرآن الكريم، فعلى هدي آياته نحاول توضيح القصص وما يربط بينها من وحدة جغرافية، ومن أجل الإلمام بالجانبين العلمي والتطبيقي نذكر بعض المعلومات الجغرافية، التي تلقي لنا الضوء وتمهد لنا سبيل المعرفة.

---

(١) مظفر الدين الندوي: التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة عبد الشافي غنيم، القاهرة ١٩٥٦ م، المقدمة.

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ط ٣، بيروت.

(٣) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.

(٤) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م.

نعلم من الإرثين التاريخي والجغرافي؛ أن اليونان والرومان قسموا شبه جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام: العربية الصحراوية (لم يعينوا حدودها)، والعربية الصخرية، والعربية السعيدة[١]. كما قسَّم جغرافيو العرب الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام؛ هي: تهامة، الحجاز، نجد، العروض، اليمن. ولقد تناول هذا القسم امتداد المناطق المذكورة وسماتها المناخية، ومن أجل هذه الخصائص الطبيعية كثرت الرحلة في طلب العيش والكلأ.

إن الواقع الجغرافي بكل أبعاده، بما في ذلك الموقع الجغرافي لشبه جزيرة العرب، أكسبها خصائص ومؤهلات وميزات عما حولها من الأرض، ولا شك في أن هذه الخصائص وتلك الميزات والمؤهلات، كانت الخلفية العريضة والأصلية حينما أسكن إبراهيم ذريته بواد غير ذي زرع، ودعا ربه أن يشهد هذا الموقع الاستقرار، وأن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧].

كانت هذه الخصائص من بعد أن استجاب الله لدعاء إبراهيم في الخفية العرضية والأصلية، عندما تمثلت الظروف المثلى لكي تضم المسجد الحرام، وتصبح البؤرة المشعة بنور الإسلام فيما بعد. كانت شبه جزيرة العرب مؤهلة بالخصائص في الزمان والمكان، كي يثمر في أحضانها هذا الغرس السماوي العظيم، وأن تلعب هذه الأرض دوراً مهماً في التاريخ، وأن تكون مصدر عطاء.

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ١٧٢.

يختلف وضوح المكان في القرآن الكريم من قصة لأخرى، فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الأقصى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: ١٧/١]. وقد لا يذكر الاسم ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦١].

وقد يذكر اسم العلم لكن يختلف في تحديد مكانه كالجودي[(١)]. وقد لا يذكر الاسم كقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٣]، وقد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان؛ مثل قصة إدريس ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٥-٨٦].

وقد يذكر اسم صاحب القصة دون أن تذكر قصته كذي الكفل ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ [ص: ٣٨/ ٤٨]. وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان كأصحاب الرس دون عرضه للقصة ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾ [ق: ٥٠/ ١٢]. وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها ولا اسم صاحبها كقصة المؤمن في سورة يس ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ

(١) ما زال موضع الجودي محل جدل.



﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٣٦/٢٠]. وقد اشتهر عن كثير من السلف والخلف أنها أنطاكية، والله أعلم[١].

أشرنا سابقاً أن قصص ما قبل الطوفان لم يذكر بها أمكنة، والأمكنة متعددة في قصص ما بعد الطوفان، والمجال الجغرافي لهذه القصص يبدو لنا بشكل واضح إذا أخذنا بالاعتبار الوضعَين التاريخي والجغرافي لشبه جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده، وانتشار الإسلام يعد ظهور الدعوة مما ذكرناه سابقاً.

ويمكننا اعتبار البيت الحرام مركزاً لخارطة قصص القرآن الكريم ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الحج: ٢٢/٢٦]، ولا يوجد مكان آخر يدانيه في أهميته والأحكام المرتبطة به في الإسلام ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران: ٣/٩٦-٩٧][٢].

وقد أسكن من ذرية إسماعيل مع أمه هاجر ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧]، واستجاب له فجعل أفئدة من الناس تهوي إلى البيت ومن حوله ورزقهم من الثمرات وامتنّ على قريش به[٣].

---

(١) ورد في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني: ٣/١٥٨: أنها أنطاكية، وما ورد في البداية والنهاية: ١/ ٢٣٠ - ٢٣١ أنها ليست أنطاكية والله أعلم.

(٢) بكة بالباء: لغة في مكة (تفسير السعدي).

(٣) سميت قريش من القرش؛ وهو الكسب والتجارة (ابن هشام). وقال الجوهري: القرش الكسب والجمع، وهو قرش يقرش. قال الفراء: وبه سميت قريش.

والبلد الأمين الذي حرمه الله أسماه الله في كتابه بأكثر من اسم؛ فهو بكة كما ذكر سابقاً، وهو مكة، وهو أم القرى في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٢]، والبيت الحرام هو مركز (منطقة القلب)، والارتباط قوي بين منطقة القلب ومناسك الحج، وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ، وما زالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي النابض بالأمر الإلهي لإبراهيم ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٧].

نضيف إلى هذه المنطقة (منطقة القلب) أهمية أخرى، وهي الأهمية الاقتصادية الناجمة عن الرحلات التجارية، التي قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوباً، وبلاد الشام والعراق شمالاً، ومصر غرباً، والتي ورد توقيتها في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: ١٠٦/ ١-٤].

في منطقة القلب هذه أكبر عدد من الأسماء المحددة واضحة المعالم:

هناك أولاً ثلاثة أماكن تجمعها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦-٩٧]، وتجمع الآيتان الكريمتان أربعة أماكن أخرى من مناسك الحج ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ

عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٨].

هذه الأماكن تمثل من الناحية الجغرافية نطاقاً حول منطقة القلب التي تضم الأماكن السبعة التي سبق عرضها، والأماكن في دائرة الغزوات أقل تركزاً وأوسع انتشاراً؛ أي إن التركز المكاني يقل بابتعادنا النسبي عن المسجد الحرام.

وإذا اعتبرنا أم القرى مركزاً لدائرة وجدنا اليمن والعراق وبلاد الشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة أو قريبة منه، وفي نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث قصص القرآن الكريم.

تربط بين مراكز القلب ومناطق الاستقرار على محيط الدائرة المذكورة عدة محاور باتجاهات مختلفة:

يمتد من مكة:

١- محور جنوبي إلى اليمن.

٢- محور شمالي يتفرع منه نطاقان: أحدهما غربي يتجه إلى مصر، والآخر يتابع سيره شمالاً ليضم بلاد الشام، ويدور حول باديته إلى العراق، ويحده من الشمال الأطراف الجنوبية للإطار الجبلي، الذي يمتد من الركن الشمالي الشرقي للبحر المتوسط إلى رأس الخليج العربي، ويمثل في الوقت نفسه الحدود الشمالية للعالم الإسلامي ضمن نطاقه العربي، ويقابلها الحدود الجنوبية في خليج

عدن والمحيط الهندي، أما الحد الغربي ففي غرب مصر، والشرقي غير واضح، وإن كان من الممكن أن يضم الجزيرة العربية كلها إلى الخليج العربي وخليج عدن.

يمتد المحور الجنوبي من مكة إلى اليمن، ويشكل اليمن جزءاً من محيط دائرة تحيط بقلب جزيرة العرب، وقد حدد (غلاسير) النمساوي الرقعة الجغرافية لليمن القديم بكامل الرقعة في جنوب شبه جزيرة العرب، الممتدة من عسير إلى المحيط الهندي، ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي. وقد ورد اسمها في النصوص السبئية القديمة (يمنات، يمنت) بما معناه الخير والبركة، وما ترجمه الرومان إلى (أريبيا فيليكس)؛ أي العربية الخيرة، أو العربية السعيدة، دلالة على غنى البلاد ومدى حضارتها، وشرح المؤرخ الروماني (بلينوس) شرحاً يتعلق بهذه التسمية[١].

لقد نجح سكان الجنوب (اليمنيون) في التجارة، وعبر بعضهم إلى الشاطئ الإفريقي، واستقرت جاليات منهم فيه، وقاموا بالاتصال بين مصر وبابل، وأوصلوا حضارة وادي السند وبابل ومصر عن طريق التجارة، وعَبَر اليمنيون بحضارتهم إلى الحبشة، ورحلة الشتاء والصيف معروفة لدى سكان الجزيرة العربية، ولم يكن أمر اليمن غريباً على الرسول الكريم، فقد كان تاجراً، وقد عبر عما يظنه باليمنيين فقال: «الإيمان يمان، والحكمة يمانية»[٢].

(١) رجاء وحيد دويدري: جغرافية الوطن العربي: ٢. جامعة دمشق ١٩٨٣، ص ٣١١.

(٢) أحمد فخري: اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٤٩.

ومن الطبيعي أن يكون اليمن أول البلاد التي دخلت تحت لواء الإسلام، وقد استعان أبو بكر الصديق بالقوات اليمنية في فتح كل من العراق وبلاد الشام، كما أنه بفضل موقع اليمن الجغرافي تمكن اليمنيون من نشر الإسلام في شرق إفريقية وجنوب آسيا وجنوبها الشرقي(١).

بهذا المحور (الجنوبي) ترتبط قصة هود عليه السلام، بعثه الله عز وجل إلى قومه عاد الأولى، وكانوا عرباً سكنوا الأحقاف، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢١].

والأحقاف جبال رمل تقع في شمال حضرموت، كان أهلها يسكنون الخيام التي ترفع بالأعمدة الشداد، وكانوا أشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشاً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ٦-٨]، أي عاد إرم؛ وهم عاد الأولى التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، كما وصف بلادهم بالغنى وتوفر وسائل الاستقرار في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٣٢-١٣٤].

وقد ذكر هذا الغنى أيضاً في قصة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ

(١) يسري الجوهري: آسية الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ٩.



بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥-١٧].

نستنتج عن البيئة الجغرافية وقتئذ من الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: ٣٤/١٨]، يذكر الله تعالى ما كانوا عليه من النعمة والغبطة والعيش الرغيد، والقرى المتقاربة المتواصلة مع كثرة أشجارها وزرعها وثمارها ما بين الشام واليمن. وقيل: قرى الشام (مجاهد). وقال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء. وقال ابن عباس: بيت المقدس. وعنه: هي قرى بينة واضحة بين المدينة والشام يسيرون إليها بالتجارة، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى حتى انتهاء سفرهم(١)، والذي تؤكده الآية غنى الإقليم ثم تدهوره وتمزق القوم عندما بطروا بنعمة الله ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٩]؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: أيدي سبأ وأيادي سبأ.

وقد تتصل بهذا المحور قصة (نصارى نجران)، وإن لم تصرح الآيات باسمها، في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٤-٧]. كما ستتصل به أيضاً ما جاء عن قوم تبع في سورتي الدخان ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

---

(١) الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ٣٨، ص ١٢٧.



﴿مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾ [الدخان: ٤٤/٣٧]، و ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق: ٥٠/١٢-١٤].

ويمكن اعتبار خليج عدن والمحيط الهندي الحد الأدنى لقصص القرآن الكريم.

وإذا اتجهنا من مكة شمالاً نعبر منطقة تحتوي على الأماكن المتعلقة بالهجرة والغزوات وتتابع القرى بعد يثرب، شمالاً بانحراف نحو الغرب حتى بلاد الشام، وفي هذا الجزء يذكر الله عدة أماكن متتابعة على طريق التجارة، جاء ذكرها في سورة الحجر.

أشار الله في قصة لوط إلى موطنه دون تصريح باسمه في قوله: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧﴾ [الحجر: ١٥/٦٧]، والمقصود مدينة سدوم، وكان أهلها ذوي أخلاق رديئة لا يستحون المنكر، ثم وصفها بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ۝٧٦﴾ [الحجر: ١٥/٧٦].

أي إن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها بطريق يعرفه كل من تردد في تلك الديار أفلا يعتبرون بهم؟ وفي هذه القصة من العبر عنايته تعالى تجلله إبراهيم(١)، والمكان الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ۝٧٩﴾ [الحجر: ١٥/٧٨-٧٩]. والمقصد قرى قوم لوط والأيكة وهؤلاء قوم شعيب.

والمكان الثالث في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ

(١) تفسير السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٤/ ١٧٤.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٠-٨٣]، وهنا يخبر الله عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، وكيف كذبوا صالحاً.

هذه هي الأماكن الثلاثة الرئيسة في المحور الشمالي، وتضم مقص لوط وشعيب وصالح، وكانت المنطقة الشمالية التي تضم هذه الأماكن تتمتع ببيئة أوفر غنى مما عليه الآن، وكانت هذه المدن مراكز مهمة للتجارة والتقاء القوافل، ولم يكن لثمود أثر عند مجيء الإسلام.

وفي غزوة تبوك نزل النبي بالناس الحجر عند بيوت ثمود وقال لأصحابه: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين»[1]، ووصف الله تعالى الأماكن الواقعة على هذا المحور بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨]؛ أي على ديار قوم لوط، وهي في طريق واضح لكل مسافر، وهنا يبدو جانب من قوة العبرة في ذكرها ومعاينتها.

وفي شمال هذه المنطقة، ينقسم المحور الشمالي إلى نطاقين؛ أحدهما يتابع سيره إلى بلاد الشام، والثاني ينحرف غرباً إلى مصر، قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٢١] (والمقصود الطور وما حوله)، وتفسيرها بيت الله[2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٣٨.
(٢) محمد علي الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ١/ ٥٠٢.

وفي ذكر بلاد الشام نعود إلى ذكر مدين، ونتابع سيرنا منها شمالاً، نحو بلاد غنية خصبة الأرض كثيرة الماء، معتدلة الجو، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧١]، وحقت أن تكون كذلك، فهي مبعث الأنبياء -صلوات الله عليهم- ومهبط الوحي إليهم، نشروا فيها تعاليمهم الدينية وتعاقبت عليها مدنيات مختلفة[١]، كما أورثتها علمها وحضارتها، واشتهر في بلاد الشام كثير من المدن، كانت مركزاً للعلم والحركة العقلية كمدن دمشق، بيروت، وحمص، وأورثها الفينيقيون حروف الكتابة، واليونان المذاهب الفلسفية، والرومان النظريات الفقهية. وقد عرف العرب في جاهليتهم هذه البلاد، فحلوا بها طمعاً بخيراتها ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١٠٦/١-٤]، وتؤكد هذه الآية رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام، في كل عام.

والمكان المؤكد هنا في قصص القرآن الكريم هو المسجد الأقصى في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١]. وقد روى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي»[٢].

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٧٩.
(٢) تفسير القرطبي، ٥/ ٣٨٢٨.

وفي بلاد الشام كانت حياة أنبياء بني إسرائيل وجوانب من حياة إبراهيم وعيسى، وإبراهيم كان من أهل (فدان أرام) وكان (صديقاً نبياً) لم يطب له المقام وقومه فذهب إلى أور الكلدانيين ثم حاران (حران) ثم رحل إلى فلسطين.

وقد ذكر اسم عيسى في القرآن بلفظ المسيح ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٥]، وبلفظ عيسى في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٦]، وبلفظ ابن مريم: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٠].

وذكر الإنجيل في أكثر من آية ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣-٤][1].

ونذكر أن موسى أوتي الكتاب ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢]. وقال لما توجه تلقاء مدين قال: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٢]، وقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠] بقدر ولطف منا وليس اتفاقاً من غير مقصد ولا تدبير[2].

ولم تُصرح الآيات باسم القرية التي حدثت فيها قصة المؤمن

(١) وكذلك في: المائدة: ٥/ ٤٦، ٤٧، ٦٨. التوبة: ٩/ ١١١. الفتح: ٤٨/ ٢٩.

(٢) تفسير السعدي: ٥/ ٣٣٨.

التي ذكرها الله في سورة يس، وإن قال بعض المفسرين إنها أنطاكية[١] من بلاد الشام، وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة لعيّنها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتّكلم بلا علم، والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين[٢]..

ويرى البعض أن بيت المقدس أو بلاد الشام هو المكان المقصود من قوله تعالى عن عيسى ومريم: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٠][٣]، وقال بعض المفسرين إنها كانت مصر، وكذلك الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٢/ ٥٨]، وتذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هي بيت المقدس.

حول بادية الشام تمتد أرض العراق، وهو الجزء الأدنى من وادي دجلة والفرات، خصبت أرضه وغزر ماؤه، واعتدل جوه، فكان أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً، سُكن منذ فجر البشرية، وتعاقبت عليه الأمم المتحضرة، وأقاموا فيه ممالك تختلف صبغتها، وكانت مدينتهم مناراً يلقي أشعته على ما حوله. عرفه العرب قديماً، حيث نزلت فيه قبائل من بكر وربيعة، ثم كوّنوا فيه إمارة المناذرة في الحيرة، وبعد معركة القادسية (١٦ هـ/ ٦٣٧ م) أصبح العراق مركزاً

(١) للاطلاع على تاريخها ينظر: سلسلة مراكز الحضارة: جلايفل دارني، أنطاكية في عهد ثيودوسيوني الكبير، ترجمة: ألبرت بطرس، مكتبة لبنان، ١٩٦٨.

(٢) تفسير السعدي: ٦/ ٣٣٨.

(٣) ذات قرار: أي مستقر وراحة. ومعين: ماء جارٍ، السعدي: ٥/ ٣٥٥.

روحياً وفكرياً لا ينضب، كما أصبح منطلقاً لفتوحات عظيمة، شملت فارس والسند وبعض بلاد الهند وأذربيجان وما وراء النهرين سيحون وجيحون(١).

والعراق هو الحد الشرقي لقصص القرآن الكريم، وبه تتصل قصصه، فقد ورد الاسم القديم لبابل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ [البقرة: ٢/١٠٢]، وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم ولوط ويونس بن نينوى. أما الجودي فقد ذكرناه سابقاً. واختلف في الموضع الذي ولد فيه إبراهيم، قال بعضهم: كان مولده بالسوس في أرض الأهواز. وقال بعضهم: مولده ببابل من أرض السواد، وقال بعضهم: كان مولده بالوركاء ناحية الزوابي، وقال بعضهم: مولده بحران، لكن أباه تارح نقله إلى أرض بابل(٢).

وبأرض العراق ترتبط قصة يونس عليه السلام، وقد ذكر في القرآن الكريم وصفه بقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٧]. وذكر بوصفه أيضاً: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٦٨/٤٨]، ولم يعلم عن نسبه في كتب التفسير إلا أنه (يونس بن متى)، ويقول أهل الكتاب: إنه (يونان بن أمتاي)(٣).

---

(١) رجاء وحيد دويدري: جغرافية الوطن العربي، جامعة دمشق، ١٩٨٣، ٢/ ٣٠.

(٢) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٩.

(٣) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، بيروت، ص ٣٦٢.

ذكرنا سابقاً أن العراق هو الحد الشرقي لقصص القرآن الكريم. نتجه الآن نحو الغرب نساير النطاق المتجه نحو مصر، وتاريخ مصر غني، وهو سلسلة متدرجة منذ العصر الحجري القديم إلى العصور التاريخية، والأعمال التي قامت بها مصر ما تزال آثارها مخلدة، اشتهرت بخصب أرضها وجودة موقعها على الطريق الرئيس لتجارة البحر المتوسط، وكانت معادنها وثرواتها قد جعلت لها السيادة على بلاد لوبيا في الغرب وبلاد فينيقيا في الشمال والشرق. أقبل عليها العرب لما علموا بغناها وخصب أرضها، وخططوا الفسطاط حسب قبائلهم، ونزلوا بالمدن والأرياف واستوطنوها، واتخذوا الزرع معاشاً، ودخل كثير من القبط في الإسلام[(١)].

ذكر الله غنى مصر، ففي قصص موسى وفرعون نستطيع أن نقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥١].

وفي مصر جرت أحداث من قصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى، وارتبطت جوانب من حياة إسماعيل، وعنيت الآيات الكريمة عناية واضحة بالبساط الأخضر الوادي نفسه، ويمكن أن نرى هذا في سورة يوسف وقصة موسى، ووصفت الآيات دورات القحط وأنواع الغلات، وجمع الله لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدابير في سني الخصب إلى

(١) رجاء وحيد دويدري: جغرافية الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ٢/ ٦٥٠.

سني الجدب[(١)]. قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/٤٧-٤٩]. وفي خواتم السورة دعوة من الله تعالى للناس نقرؤها في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩].

نستطيع هنا أن نربط بين السير في الأرض والتحديد المكاني الواضح في سورة يوسف، كما عنيت الآيات بشبه جزيرة سيناء، وقد ذكر هذا المكان في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٨-٢٠].

كما ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٩٥/١-٤]. ويقصد بطور سينين: طور سيناء، والبلد الأمين: مكة المكرمة، وبسيناء[(٢)]: الوادي المقدس وجبل المناجاة؛ حيث كلم الله موسى،

(١) تفسير السعدي: ٤ / ٣٤.
(٢) اختلف في سيناء، قال قتادة: معناه الحسن، وقال مجاهد: معناه مبارك، وقال الجمهور: هو اسم الجبل كما تقول جبل أحد، وقال مجاهد: كل
=

وإن كان من الصعب التحقيق الدقيق لهذه الأماكن، فهي مناطق لم تستقر فيها الحياة بانتظام كمكة المكرمة مثلاً، وليس بها آثار تدلنا دلالة واضحة يقينية على أنها الأماكن التي دارت فيها أحداث قصص موسى، وبهذا تبدو أهمية سيناء المكانية في ناحيتين؛ أولاهما: قصة موسى، والثانية: ورودها في آيات تعدد نعم الله على عباده.

أشرنا سابقاً إلى أنه ليس لجميع قصص القرآن الكريم ارتباطات مكانية، وينطبق هذا على قصص ما قبل الطوفان، ونضيف إليها الأماكن المقترحة (المفترض وجودها) وراء بلاد الشام والعراق؛ أي في النطاق الجبلي الذي يحيط بها شمالاً أو وراءه، وما دعانا إلى قول كلمة (مقترحة) هو أن الأقوال والتفاسير التي وردت حول بعض قصص القرآن، والتي تمت بصلة إلى النطاق الجبلي كانت أمراً مشتركاً بين هذه الأقوال والتفاسير، ونستطيع أن نطبق هذا بوضوح على بعض ما قيل عن قصة أهل الكهف وذي القرنين والافتراضات التي قيلت في شأن مكان السد في جبال القوقاز.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/٩]، وليس في سورة الكهف وقصصها ذكر لمكان معيّن(١).

= جبل يحمل الثمار فهو سيناء؛ أي حسن، وزعم الأخفش أنه اسم عجمي (تفسير القرطبي: ٥/٤٥٠٧).

(١) الكهف: هو الغار بالجبل، والرقيم: أي الكتاب الذي رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم لملازمتهم له دهراً طويلاً (تفسير السعدي: ٥/١٢)، وعن ابن عباس: الرقيم واد قرب آيلة (مختصر تفسير ابن كثير: محمد علي الصابوني، ٢/٤٠٩).

ولا نكاد نجد مجموعة من قصص القرآن الكريم جاء فيها من الأقوال والتفاسير بقدر ما ارتبطت به سورة الكهف، وليس في سورة الكهف وقصصها ذكر لمكان معين. حاول المفسرون تحديد مكان الغار، فقال كثيرون: هو بأرض آيلة، وقيل: بأرض نينوى، وقيل: بالأندلس، وقيل: ببلاد الروم، وذهب بعضهم إلى أنها أفسوس في آسية الصغرى[1].

وعن السد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٣-٩٥].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٩]؛ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٣] وهما جبلان متناوحان من قبل أرمينيا وأذربيجان[2] بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج[3] على بلاد الترك فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل.

أما عن السد فذهب البعض إلى أن المقصود هو الجدار الحديدي في مضيق داريال بالقوقاز، ونذكر ما ذهب إليه الإدريسي في خارطة (صورة الأرض) إلى أن الصين موطن يأجوج ومأجوج،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ٢/ ١١٥.
(٢) تفسير القرطبي: ٥/ ٤٠٩٤.
(٣) يأجوج ومأجوج: من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين.

وأن سور الصين هو المقصود[١]، وقد وصفه الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/٩٧]؛ أي إن يأجوج ومأجوج لم يقدروا على أن يصعدوا من فوق السور ولا قدروا على نقبه من أسفله.

نخلص من هذه الآراء، رغم تباينها، إلى أمر مشترك بينها وهو امتداد المجال الجغرافي في قصص القرآن الكريم إلى النطاق الجبلي، أو إلى ما وراءه الذي يحيط بالعراق وبلاد الشام، والاختلاف بين هذين النطاقين هو عدم تحديد الأماكن في النطاق الأول، واستنتاجها بافتراضات، بينما وردت محدودة في النطاق الثاني باستثناءات، ونستطيع أن نطبق هذا بوضوح على بعض ما قيل عن قصة أهل الكهف، وعلى قصة ذي القرنين، والافتراضات التي قيلت في شأن مكان السد في جبال القوقاز، ونستطيع القول: إن الله سبحانه وتعالى بعد أن أنزل سورة الكهف لم يذكر شيئاً عن قصة أهل الكهف وذي القرنين، إلا إشارة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٦]، والآية في سورة الأنبياء وهي مكية أيضاً، ولم يذكر الله قصة موسى والعبد الصالح بعد نزول سورة الكهف مع نزول جوانب أخرى من قصة موسى، ولم تأت قصة أخرى خارج النطاق الذي سبق عرض حلقاته.

أخيراً يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

(١) الإدريسي: صورة الأرض، تحقيق: محمد بهجت الأثري وجواد علي، بغداد، ١٩٥١.

- ارتباط محاور المجال الجغرافي في قصص القرآن الكريم بتحركات سكان شبه جزيرة العرب واتصالهم بالأمم المجاورة براً وبحراً، وتأثر ذلك بالظروف الجغرافية والتاريخية التي سادت قبل ظهور الإسلام.

- العبرة من القصص، وارتباط المجال الجغرافي بها يبدو لنا واضحاً في:

أ- الارتباط القوي بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ، وما زالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي.

ب- الرحلات التجارية التي قام بها سكان منطقة القلب جنوباً نحو اليمن وشمالاً نحو بلاد الشام والعراق ومصر، والتي يبدو توقيتها واضحاً في رحلتي الشتاء والصيف، وفي هذا التنظيم والتدبير آية تدعو إلى الإيمان بالله وعبادته.

- في المنطقة الوسطى أماكن الغزوات، ومن الممكن القول إن هذه الحلقة قد تمتد شمالاً لتضم الغزوات الشمالية، فالأولى تتمثل في بدر وحنين، وهما جانبان متقابلان ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٣]، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٩/ ٢٥].

- المناطق التي تحوم حول أماكن الغزوات، فإن الله يصف بعض قصصها بأنها سبيل مقيم وإمام مبين ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ

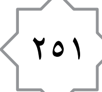
﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨]، والحديث عن قوم لوط، وهذا المرور هو من وسائل الفكر والتأمل.

- نستطيع أن نجمع بين الأماكن التي تضمها وحدة جغرافية، تتضح فيها ظاهرتا العلاقات والتوزيعات بشكل دائري، مركزه المسجد الحرام، وحوله حلقة مركزية تحوم حولها طبقة تتعلق بالهجرات، وعلى محيط الدائرة قصص اليمن والعراق والشام ومصر، وجانب كبير من الأماكن ضمن هذا التوزيع، يدخل في رحلتي الشتاء والصيف، بحيث أصبحت معظم أماكن العبرة واضحة للمسلمين، فالأماكن بهذه الصورة أداة من أدوات الاعتبار في القصص القرآني.

- أما القصص التي لم يذكر الله سبحانه وتعالى فيها أماكن، فهي المجموعة السابقة للطوفان، ثم مجموعة سورة الكهف.

لعلي بذلك أن أكون قد مهدت بما قدمته طريقاً رحباً للمتابعة بقدر كاف من الجد وقدر كاف من الوضوح، وأرجو أن يلتمس لي العذر إن كنت قد قصرت، وأن أرشد إلى شاكلة الصواب إن كنت قد أخطأت، وأسأل الله تعالى أن يقابل بالقبول ما وفقنا إليه من نافع العلم وصالح العمل ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣].

ويسرني في هذا المجال أن أجزي التحية إلى الأستاذ محمد عدنان سالم مؤسس دار الفكر ومديرها العام، لما قدمه للمكتبة



العربية من إغناء متنوع في مجالي العلم والمعرفة، بكافة الجوانب، عاد بالخير الكبير، وانعكس منه شعاع نور الفائدة الشاملة.

والشكر واجب إلى العاملين في دار الفكر الذين منحوا هذه الدار قدراً كافياً من جهدهم في سبيل إنجاز ما عليهم من واجب.

والله الموفق

فصلة

من المصادر والمراجع العربية والإسلامية

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، م، القاهرة ١٣٤٨ هـ/ ١٩٢٩ م.
- ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦١.
- ابن عماد الحلبي: شذرات الذهب، القاهرة، ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م.
- الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت، ١٩٧٧ م.
- الحافظ بن كثير: تفسير القرآن العظيم، عيسى البابي الحلبي، مصر.
- الحموي، شهاب الدين، أحمد عبد الله، ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م.

- السخاوي، شمس الدين، محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القاهرة، ١٣٤٧ هـم ١٩٢٨ م.

- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن علي بن بكر: لباب النقول في أسباب النزول، القاهرة، ١٩٣٥ م.

- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.

- القصبي، محمود زلط: قضايا التكرار في القصص القرآني، القاهرة، ١٩٧٨ م.

- المقريزي، أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م.

- أحمد أمين: فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٨ م.

- جلايفل دارني: أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة: ألبرت بطرس، مكتبة لبنان، ١٩٦٨ م.

- رجاء وحيد دويدري: جغرافية الوطن العربي، جامعة دمشق، ١٩٨٣ م.

- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، بيروت.

- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، القاهرة، ١٩٦٩ م.

- محمد عبد العزيز الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، بيروت.

- محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء، القاهرة، ١٩٨٢ م.

- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٣ م.

- يسري الجوهري: آسية الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٠ م.

ملامح من تجربة شخصية
أثر حماية حقوق الملكية الفكرية على تطور الإنتاج الفكري

أ.د. جورج جبور

عرفت الأستاذ عدنان سالم في الثمانينيات، حين كنت أسعى وأعمل من خلال اتحاد الكتاب العرب لمحاولة إقناع الاتحاد بإرساء لجنة تُعنى بحقوق المؤلف، في تلك الفترة صدر قرار من رئيس الاتحاد سماني رئيس لجنة مراجعة حقوق المؤلف .

من خلال عملي في اتحاد الكتاب العرب لاحظت أن موضوع الملكية الفكرية لا يحتل موقعاً متقدماً في أهداف الاتحاد المنصوص عليها في نظامه، في الوقت نفسه كنت أتابع عن بعد مساعي الأستاذ عدنان سالم في موضوع حقوق المؤلف من خلال موقعه في اتحاد الناشرين العرب، ولعلها المرة الأولى التي التقيت فيها أ. سالم في مكتبة الأسد أوائل التسعينات، كنت أبتاع كتباً من دار الفكر، تقدم صاحب الدار وعرفني باسمه، وأثنى على مقال لي في جريدة الحياة عن كيفية مناقشة الجمعية التأسيسية العربية لموضوع دين الدولة، ثم

تحادثنا في موضوع حقوق المؤلف، واتفقنا أن نكون على اتصال. هتف لي وسألني أن أكتب كتاباً عن حقوق المؤلف، ولم يكن لدي الوقت لكتابة ما هو مطلوب، قلت له: سوف أرسل لك مقالات عن حقوق المؤلف، فإن شئت أن تصنع منها كتاباً فلا بأس، لأن وقتي لا يسمح أن أكتب ما أود كتابته عن حقوق المؤلف. أرسلت المقالات والدراسات ونسيت الموضوع، ولم أتابعه لأني شعرت أني مقصر. بعد فترة صدر كتابي الأنيق عن الملكية الفكرية في ثلاث مئة صفحة فيه دراسات ونصوص عن حقوق المؤلف وكلمة ختامية من الأستاذ عدنان سالم يقول فيها إني أول من بحث عن حقوق المؤلف في سورية، شكرت له صنيعه. وأحب أن أقول: في فترات زمنية معينة كان يرسل لي مستحقاتي بموجب العقد بيننا، وهو أمر لم يحصل مع بقية الناشرين إلا في حالات نادرة جداً!

ترك لدي انطباعاً إيجابياً منذ اللحظة الأولى؛ فهو قارئ متابع وصاحب دار نشر، يذهب للمؤلف ولا ينتظر أن يأتيه، وهو يكرس معظم الاهتمام حول موضوع حقوق المؤلف. تلك تجربتي الإيجابية مع أ. سالم.

مع الصداقة التي نشأت بيننا أخذت أتعرف على شخصيته من خلال لقاءاتنا في مختلف المجالات والمؤتمرات المتخصصة بحقوق المؤلف.

وأحب أن أذكر في هذه المناسبة أننا ذهبنا معاً لعمان في ندوة حول (أخلاق مجتمع المعلومات) عام ٢٠٠٢ يقيمها النادي العربي

للمعلومات بالتعاون مع اتحاد الناشرين العرب، ومع جمعية المكتبات الأردنية؛ ألقيت البحث في الندوة (ملامح من تجربة شخصية - أثر حماية حقوق الملكية الفكرية على تطور الإنتاج الفكري).

تلقيت اتصالاً منه في الشهر الثالث في عام **٢٠٠٨** لكي أشارك في ندوة تقيمها دار الفكر عن (دمشق حاضنة اللغة العربية) وبمناسبة اليوم العالمي للكتاب وحقوق المؤلف، وقرأت محاضرة بعنوان (العربية وحرب اللغات). بعد الانتهاء من قراءة البحث سألني إن كنت لا أمانع من نشره على شكل كراس يوزع مجاناً. وافقت وارتضيت أن يكون حقي الفكري حسبة من أجل اللغة العربية، حسب رسالته لي، وأتوقع أن المحاضرة تصدر ككراس يوضع في الجيب مثل بعض كتب دار الفكر، كما طلب مني أ. سالم أن أوافيه بأبحاثي عن الشؤون الدينية المسيحية والإسلامية ليتم نشرها ضمن كتاب.

وبمناسبة تكريم الأستاذ محمد عدنان سالم، كواحد من رواد النشر في سورية، أحب أن أرفق نص بحث شاركت فيه في مؤتمر الأردن عن (أخلاق مجتمع المعلومات)؛ وهو بعنوان

(ملامح من تجربة شخصية، أثر حماية حقوق الملكية الفكرية على تطور الإنتاج الفكري العربي وتشجيعه).

أولاً: هدف البحث

للبحث هدفان متلازمان؛ أولهما تبيان أثر انعدام حماية حقوق الملكية، ومعها اضطراب الأخلاقيات المهنية العربية، على إضعاف الإنتاج الفكري العربي، وهذا الهدف واضح، وهو في صلب مبرر وجود حقوق الملكية الفكرية. أما الهدف الثاني فيتركز على أثر انعدام الحماية، في متابعة اقتراح من المفترض أن يكون له دوره الكبير في إظهار العنصرية الصهيونية من حيث هي ناتج طبيعي عن الاستعمار الاستيطاني. هذا الاقتراح، كان تبناه الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية السابق، رحمه الله، عام ١٩٧١، وسار خطوات متواضعة منذئذ. وبما أن الاقتراح ما زال صالحاً فمن الطبيعي أن يشتمل الهدف الثاني على محاولة لإحياء الاقتراح والوصول به إلى غايته؛ وهي إنشاء مؤسسة بحوث متخصصة في دراسات الاستعمار الاستيطاني المقارن في العالم.

وبما أن كاتب هذا البحث هو صاحب الاقتراح الذي تبناه الرئيس حافظ الأسد رحمه الله، وبما أنه يعتبر نفسه المعني الأول بمتابعته، فستظهر الأسطر التالية ملامح تجربة شخصية لا بد منها، والرجاء الذي ينبغي تقديمه للقارئ الكريم سلفاً هو غض النظر عما في البحث من جانب ذاتي.

ثانياً: علم الاستعمار الاستيطاني والكيفية التي تعاملت معه جامعة الدول العربية: ١٩٧١ - ١٩٨٩

علم الاستعمار الاستيطاني هو علم التفاعل بين المجتمعات التي أقامها المستوطنون الأوربيون أساساً على أرض غير أوربية، بدءاً من عصر الاكتشافات الجغرافية، وبين مجتمعات السكان الأصليين. هذه الأراضي غير الأوربية شملت قارتين لم يكن لهما دورهما في التاريخ العام المشترك للبشرية؛ وهما قارتا أمريكة وأسترالية، كما شملت قارتين كان لهما دورهما في التاريخ العام المشترك للبشرية هما إفريقية وآسية. تدل التجربة التاريخية على أن التفاعل كان لصالح المستوطنين في القارتين الجديدتين ولصالح السكان الأصليين في القارتين القديمتين.

الهدف العلمي للاقتراح الذي تبناه السيد الرئيس حافظ الأسد هو دراسة الأسباب التي حَدَتْ نتيجة التفاعل إلى أخذ منحيين متناقضين، وإمكان زيادة الأسباب التي يمكن لها أن تقود تجربة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين باتجاه النتيجة التي اقترنت بها التجارب المماثلة في القارتين القديمتين.

هذا العلم الموجود في الواقع، يطرق منذ مدة أبواب الأكاديمية لكي يحوز حق المواطنة، ولعل عام ١٩٦٥ كان عام بدء الشعور بوجود هذا العلم عن طريق كتابات للعلامة الدكتور فايز (عبد الله) الصايغ الرئيس الأول لمركز الأبحاث الفلسطينية في بيروت؛ التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، إلا أن محاولة إضفاء الصفة الأكاديمية

الأصيلة له تبلورت على نحو لقي اعترافاً دولياً من خلال كتاب هو (الاستعمار الاستيطاني في الأقطار الجنوبية من إفريقية وفي الشرق الأوسط)، وقد قامت بالإنفاق عليه جامعة الخرطوم، ونشره بالتعاون مع الجامعة مركز الأبحاث الفلسطينية عام ١٩٧٠، ثم لعلنا نقول إن الكتابات الأجنبية الجدية في مجال قضية فلسطين مثل كتابات إدوار سعيد ونعوم تشومسكي وغيرهما، إنما تنتسب إلى علم الاستعمار الاستيطاني، وإن هذا الانتساب يشرح جزئياً على الأقل سبب انتشارها والإقبال عليها في الدوائر الأكاديمية العالمية، وبخاصة في الدوائر الأكاديمية الغربية.

ويثور هنا سؤال: بغض النظر عن المصلحة العربية في إنشاء علم الاستعمار الاستيطاني؛ ما مدى علمية هذا العلم؟ وفي الجواب أقول: للعلوم الاجتماعية والإنسانية كافة إشكالاتها العلمية. إنها علوم تقريبية وليست دقيقة، ولأنها تقريبية فهي تقبل بحسن نية علمية أو بسوئها أن تُستثمر من أجل هدف غير علمي أساساً، إنها علم يشبه العلم، يخدم ويحترم السياسة وأهلها. وليس في هذا القول انتقاص من قدر العلوم الاجتماعية والإنسانية، إنه في التحليل العلمي الدقيق العلم بعينه، ولا تقل علمية علم الاستعمار الاستيطاني عن المتوسط العام لعلمية العلوم الاجتماعية والإنسانية. وإذا كان هذا العلم لم يتطور في الأكاديمية الغربية فلأن المصالح التي تسيّر تلك الأكاديميات لم تتبين لنفسها ما يخدمها جراء ذلك التطور.

«من ينتج المعرفة؟» سؤال جميل كان عنوان مقالة للدكتورة بثينة شعبان (تشرين ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٢) والجواب الواضح: ينتجها من له

مصلحة في إنتاجها، وأول من له مصلحة في إنتاج علم الاستعمار الاستيطاني هو العربي، ولكي تتحقق تلك المصلحة لا بد من ممارسة أقصى درجات الصرامة العلمية.

إن العربي منتج علم الاستعمار الاستيطاني لم يشتهر بأنه منتج للعلم من جهة، وبأنه من جهة ثانية مسكون - ودائماً - بشحنة عاطفية قوية من العداء لإسرائيل الصهيونية تنال من موضوعيته، وهي موضوعية مفترضة في منتج العلم. وفي الحالتين كلتيهما ما سبب انتقاصاً في القناعة العلمية العالمية العامة من قدرة العربي على إنتاج العلم.

اقتراح رسم دراسات الاستعمار الاستيطاني علماً عن طريق إنشاء مؤسسة متخصصة، شَرُفَ بتبنٍّ رئاسي سوري له في خريف ١٩٧١. ذهب الاقتراح إلى جامعة الدول العربية أواخر ذلك العام، وطاف في عدد من اللجان والهيئات حتى رسى في معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة في عام ١٩٧٣، وتم تخصيص مبلغ متواضع من المال لتنفيذه في أوائل عام ١٩٧٤. صدر المنتج على هيئة كتاب من مجلدين في ربيع عام ١٩٧٥، إلا أن المنتج لم يكن مطابقاً للمواصفات التي حددت للإنتاج. الكتاب الذي أصدره المعهد كان كتاباً آخر عن قضية فلسطين يعيد تأليف المؤلَّف؛ أي يعيد إنتاج ما في السوق ولا يتقدم ليبدع علماً، باستثناء ما جاء في الدراسة التصديرية من الكتاب وهي لصاحب هذه الأسطر. ولم يهتم بما في الكتاب من إبداع قليل احتوته الدراسة إلا القلة من الباحثين، ومنهم باحث لم ألتقه حتى الآن هو

الدكتور خالد الأزعر الذي أشار في عدد من كتاباته إلى عنصر الإبداع في الدراسة. لماذا حصلت تلك الكارثة العلمية؟. هذا ما أعالجه في فقرة لاحقة، إلا أني أود أن أتابع سرد مسيرة الاقتراح، متابعة يعود الفضل في نجاحها مرة ثانية إلى الفكر الخلاق لدى السيد الرئيس حافظ الأسد رحمه الله.

في عام ١٩٨٤ عقد المؤتمر العربي للتضامن مع نضال شعوب إفريقية الجنوبية في تونس. وجه السيد الرئيس حافظ الأسد رحمه الله رسالة عبر بها عن أمله في أن يتخذ المؤتمر قراراً بإنشاء مؤسسة لدراسات الاستعمار الاستيطاني. استجاب المؤتمر إلى الدعوة الرئاسية فصدرت توصية بهذا الأمر، واكتسبت تلك التوصية صيغة تنفيذية عام ١٩٨٩ في اجتماع اللجنة الدائمة (الوزارية) للتعاون العربي الإفريقي. وفي ٢١/ ٨/ ١٩٨٩ وجهت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية مذكرة إلى الدول الأعضاء؛ تسألهم بها إرسال تصوراتهم عن كيفية إنجاز المؤسسة المقترحة، ثم كانت في عام ١٩٩٠ أحداث زلزلت الوطن العربي وطوي أمر المتابعة.

ثالثاً: أخلاقيات مهنية، أم ملكية فكرية، أم تحفظات سياسية، أم الأمور كلها؟

كان ثمة وقت في الستينات حتى منتصف السبعينات؛ ازدهر فيه السعي العربي لإظهار التماثل البنيوي بين كيانات الاستعمار الاستيطاني التي كانت ذات مستقبل غير محدد، وهي جنوب روديسيا، وجنوب إفريقية، وإسرائيل، ثم جاء الاقتراح المتبنى من

الرئيس السوري ليحاول تأسيس منهج بحثي يرقى إلى إعلان قيام علم. وصل الخبر إلى متضلعين من الباحثين والأساتذة الجامعيين، أحب بعضهم ركوب الموجة. وضمن الأخلاقيات المهنية السائدة عربياً، ومثلها سائد دولياً في كل حال وإن بدرجة أدنى، حاول هذا البعض تهميش المضطلع بالمحاولة، معتمدين على وزن الهيئات البحثية والأكاديمية التي ينتسبون إليها، إلى ماذا تؤدي محاولة التهميش؟ قد تؤدي إلى رضوخ الخاضع للمحاولة، وقد تؤدي إلى معارك جانبية، وقد تؤدي إلى تشويه الفكرة المبدعة عن طريق عدم إدراك أبعادها، وفي كل حال لا تؤدي محاولة التهميش وما ينتج عنها، إلى خدمة الفكرة على النحو المستحق.

هبوط أخلاقيات المهنة قد يتجاوز الحدود المتعارف عليها ليقتحم حقوق الملكية الفكرية، وهذا بالضبط ما يبدو أنه جرى من قبل معهد البحوث والدراسات العربية، ويبدو لي أن الجهل بحقوق الملكية الفكرية، أو محاولة القفز فوق تلك الحقوق؛ كان السبب الكامن وراء ضعف تطور الإنتاج الفكري العربي في علم الاستعمار الاستيطاني. تسبب الجهل المطبق في خلق ورطة، ورأى الجهل أيضاً أن الخروج من الورطة إنما يكون بإهمال حقل علمي نتجت الورطة عن الخوض فيه.

ثم قد يكون الأمر خلاف ذلك، علم الاستعمار الاستيطاني علم سياسة بامتياز .

بدءاً من خريف ١٩٧٥ أصبح معلناً جداً الخلاف بين توجه الرئيس حافظ الأسد (المعجب بفكرة تأصيل الصراع العربي –

الصهيوني على أنه حالة من حالات الاستعمار الاستيطاني) وبين توجه الرئيس أنور السادات الذي انطلق في مسيرة رآها سلمية (ورآها الأسد استسلامية) منذ اتفاقية سيناء الثانية في أيلول/ سبتمبر **١٩٧٥**. لعل عناية معهد كمعهد البحوث والدراسات العربية بدراسات الاستعمار الاستيطاني في وقتِ خلافٍ عربيٍّ بين سورية ومصر تعتبر انحيازاً لسورية وابتعاداً عن مصر. ثم لعل هذا الخلاف في التوجه بين سورية ومصر وهو خلاف بدأ منذ أواخر أيام حرب تشرين لم يكن فقط السبب في وقف اهتمام المعهد بعلم الاستعمار الاستيطاني منذ صدر الكتاب، بل كان أيضاً السبب الكامن وراء صدور الكتاب بالشكل العجيب الذي صدر به.

أي مَن مِن العوامل إذن كان وراء انهيار محاولة تأصيل علم الاستعمار الاستيطاني؟ عامل أخلاقيات المهنة؟ أم عامل ضعف الشعور بحقوق الملكية الفكرية؟ أم عامل الخلاف السياسي بين عاصمة الاقتراح وعاصمة تنفيذ الاقتراح؟ في غياب الشفافية العربية لا نستطيع أن نجزم بجواب قاطع، ومن الأسهل أن نقول لعلها العوامل الثلاثة مجتمعة.

والآن وبعد (**٢٧**) عاماً على صدور الكتاب الذي جاء منتهكاً لحقوقي كمؤلف، وجاء أيضاً (كفناً) ينهي محاولة إنشاء علم الاستعمار الاستيطاني، لعل من المناسب خدمةً للفكر العربي أن تتوجه جهة ما، لعلها المعهد نفسه، إلى منفذي المشروع (وقد برد الدم بعد هذه المدة الطويلة) تسألهم ما جرى؟ لماذا حُرِّفَ مشروعٌ فكري كبير عن هدفه؟ هل هو جهل من منفذي المشروع؟ هل هي

الرغبة في التحايل على حقوق الملكية الفكرية؟ هل هو الخلاف السياسي الذي شجر بين دمشق والقاهرة؟

رابعاً - سبل المتابعة

أفضل سبيل للمتابعة هو ذلك الذي يتم عن طريق معهد البحوث والدراسات العربية، وقد أشرت قبل قليل إلى خطوة أولى تأسيسية في ذلك الاتجاه، ثم إن جامعة الدول العربية ينبغي أن تهتم أيضاً، وهي التي وزعت على الدول الأعضاء مذكرتها بشأن المؤسسة في آب/ أغسطس ١٩٨٩، ثم إن منظمة الوحدة الإفريقية ينبغي أن تكون معنية هي الأخرى.

إلا أن العبء الأكبر يقع على القطر الذي تبنى رئيسه الاقتراح؛ وهو القطر العربي السوري، وعلى الحزب الذي عالج دستوره موضوع الهجرة إلى الوطن العربي لغاية استعمارية؛ وهو حزب البعث العربي الاشتراكي.

وأكتفي بهذا القدر ولمن يود الاستزادة أن يعود إلى ندوة عقدها المركز العربي للدراسات الاستراتيجية (دمشق) في أيار/ مايو الماضي، وقد نشرت وقائع الدورة في تقرير خاص.

خامساً - الدرس المستخلص

في الواقع، علم يمكن لكل منا أن يشاهد عناصره بكل وضوح هو علم الاستعمار الاستيطاني؛ كان يمكن لمعهد القومية العربية

الأول الذي أسسه ساطع الحصري عام **١٩٥٣** (أطلق من هنا نداء إلى رئيس المعهد الدكتور أحمد يوسف أحمد: حبذا لو تبدأ من هذه اللحظة استعداداتك للاحتفال بالذكرى الخمسين لتأسيس المعهد)، كان يمكن له أن يكون حاضناً فكرياً لهذا العلم الجديد، إلا أن هبوط الأخلاق المهنية إلى حد أخل بحقوق الملكية الفكرية؛ قضى على الجنين الذي وضع في أحشاء المعهد، فولد الطفل معوقاً ولا ريب أن هذه الإعاقة انعكست سلباً على موقعنا السياسي في مناهضة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني.

وختاماً أعود إلى ما قلته في البدء، كان لهذه الصفحات هدفان؛ هدف يختص مباشرة بموضوع الملكية الفكرية، وقد بينته، وهدف ثانٍ أستطيع التبشير به دون أن أستطيع بلوغه بنفسي هو إنشاء مؤسسة مبدعة في العلوم الاجتماعية تبحث في شؤون الاستعمار الاستيطاني في العالم بما يفيد نضالنا ضد الصهيونية.

أبعادُ الذات والموضوع في الكتابة العلمية والأدبيّة

أ. د. عيسى علي العاكوب
عضو مجمع اللغة العربية

ملخص الورقة:

يُقصد بالذات في هذه الورقة؛ الأنا الواعيةُ المتهيّئةُ للكتابة في الموضوعات العلميّة أو الأدبيّة؛ أي مجموع الملكات الإدراكية البشريّة المسؤولة عن اقتراح الفِكَر وبلورتها وتنظيمها وإخراجها في بيانات تعبيرية لغويّة مكتوبة موجّهة إلى جمهور مقصود.

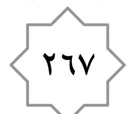
ويراد بالموضوع هنا مادّةُ المعالجة في الكتابة العلمية أو الأدبيّة، سواءٌ أكانت فكرةً أم شيئاً أم شأناً.

فقد يكتب طبيبٌ وشاعرٌ في شأن مَرَض من أمراض العين، كالرَّمَد مثلاً، واصفَيْن طبيعة المرض وأعراضَه وما يُحدثه في المريض من آثار، مقترحَيْن ما يمكن أن يكون دواءً له وعلاجاً. وفي هذا المثال عندنا ذاتان هما ذاتُ الطبيب وذاتُ الشاعر، وموضوعٌ

واحدٌ هو الرَّمَد. فالذاتُ هنا ممثّلةٌ لجملة العناصر النفسيّة المسؤولة عن الكتابة والتأليف. أمّا الموضوعُ فهو المادّةُ المعالجة أو المتناوَلة subject matter.

وتنطلقُ الورقةُ من فرضيّة أنّ الذاتَ في الكتابة العلميّة منشغلةٌ انشغالاً شبهَ تامّ بالموضوع الذي تعالجه، مُستلبةٌ له، مأخوذةٌ تماماً بنَقْل حقائقه ودقائقه وتفاصيله. فتهيُّؤها وتيقّظها مشدودان تماماً إلى ماهيّة موضوعها وحقيقته الماديّة؛ ومن هنا تتحدّث عنه بلغة الأرقام والحجوم وجملة المشخِّصات المميّزة بدقة. أي إنّها مشغولةٌ بالمعلوم، منهمكةٌ في تعيين خاصّيّاته ومحدّداته، هو في ذاته، غيرَ قاصدةٍ إلى بيان موقفها منه، إيجاباً أو سلباً، وغيرَ مهتمّة في كتابتها العلميّة بإحداث ما يُسمّى خلابة في أنفس جمهورها القارئ. وتكون الخاصّياتُ التعبيرية للغة الكتابة العلميّة نتاجاً لهذا الانشغال التامّ بالموضوع. ولأمرٍ ما، سمّى لسانُنا العربيُّ المبينُ العِلْم بهذا الاسم؛ وذلك أنّ العِلمَ هو إدراكُ الشيء بحقيقته.. إدراكُ ذاتِ الشيء (الرّاغب الأصفهانيّ: مفرداتُ ألفاظ القرآن، مادّة علم).

أمّا في الكتابة الأدبيّة فإنّ الذاتَ المنتجة للكتابة أو التأليف منشغلةٌ انشغالاً تاماً بمعرفتها الحَدْسيّة التي محورُها العامُّ موضوعُ المعالجة، منهمكةٌ في إنشاء بيانٍ تخييليٍّ تصويريٍّ قادرٍ على تصويرِ طاقاتها الإبداعيّة في ميدان التأليف من جهة، وإحداثِ أكبر قدْرٍ من التأثير في نفوس مَنْ يتلقّون مُنجزَها التأليفيّ من جهة أخرى. الذاتُ هنا مُهَمَّةٌ بعالمها الإبداعيّ التخييليّ المعبّر الموحي. وينشأ عن ذلك



لغةٌ للكتابة الأدبيّة روحُها التعبيرُ المصوِّر الإشاريّ، حتّى قال بعضهم: الإشارةُ لغةُ القلب، والعبارةُ لغة العقل.

وستُضمَّن الورقةُ تطبيقاتٍ لهذه الفَرضيّة على إنشاءات علميّة وأدبيّة، تُوضح الخلاصات النظريّة التي تنتهي إليها. ويتخلّل المناقشة تناولٌ للحظات تدخّل الذات في التأليف العلميّ، وعكوف الذات على تصوير انفعالها بالموضوع في التأليف الأدبيّ.

والله، سبحانه، هو الهادي إلى السّداد في القول والعمل.

العرض والمناقشة:

أ- مجالُ العِلْم ومجالُ الأدب:

الكتابتان العلميّة والأدبيّة؛ ضربان من الصّنعة الكتابيّة يختلف أحدهما عن الآخر في المقام الأول، تبعاً لحال الذات في تعاملها مع الموضع. فالذّاتُ في الكتابة والتأليف تتعامل مع موضوعهما ضربَيْن من التعامل؛ تعاملاً علميّاً وتعاملاً أدبيّاً. ويختلف مجالُ العِلْم عن مجال الأدب؛ فالعِلْمُ في جوهره إدراكُ الأشياء على ما هي عليه في وجودها المتعيِّن، مثلما يقول الراغب الأصفهانيّ في شأنه: «هو إدراكُ الشيء بحقيقته. إدراك ذاتِ الشيء» (الرّاغب الأصفهانيّ: مفرداتُ ألفاظ القرآن، مادّة «علم»). ووظيفة العالِم أن يزداد بصراً بالمعلوم؛ ماهيّة ومكوِّناتٍ وحجوماً وألواناً وخصائص. فإذا ما حصل هذا للعالِم استطاعَ أن يعْلِم الآخرين بذلك. والعِلْم بالموضوعات أو الأشياء يظلّ قليلاً قياساً إلى عِلْم الخالق سبحانه؛

ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥]. ولهذا السبب عُلِّم الإنسانُ أن يدعو بهذا الدّعاء: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤]. ويظلّ الإنسانُ في رحلة التعلّم والعِلْم محتاجاً إلى المزيد، ولذلك قال شاعرُ العرب:

وأعلمُ عِلمَ اليومِ والأمس قبْله ولكنّني عن عِلم ما في غَدٍ عَمِ

أمّا الأدبُ فمجالُه تصوير أصداء الموضوعات في رقعةِ النفس. فقد أوتي الإنسانُ على الجملة حساسيّة خاصّة إزاء إدراك الأشياء والفِكَر والهواجس؛ ينفعل بها انبساطاً وانقباضاً فرَحاً وتَرَحاً. ويُفترض أن تكون هذه الحساسيّة عند جمهرة الأدباء من نوعٍ خاصّ إرهافاً وحدّةً وتأثّراً. وينشأ عن ذلك اختلافٌ في طريقة التعبير بين الإنسان العاديّ والأديب الفنّان، وبين العالِم والأديب. ولو جاز لنا أن نفترض أنّ كلًّا من العِلْم والأدب تصويرٌ ووصفٌ، وأنَّ كلًّا من العالِم والأديب مصوِّرٌ، لجاز لنا أن نقول أيضاً إنّ مادّة التصوير عند كلّ منهما مختلفة. فالمصوَّرُ في العِلْم الواقعُ من جهة ما ينكشف للعالِم من حقائقه ودقائقه وتفاصيله. أمّا المصوَّر في الأدب فهو انعكاسُ الواقع، بتنويعاته ومجاليه المختلفة، على مرآة نفس الأديب. وينشأ عن ذلك أن تتماثلَ صُوَرُ هذا الواقع عند العلماء،وتتباين عند الأدباء، بل عند الأديب الواحد في أزمنة مختلفة وأوضاع متباينة. وفي هذا الشأن يقول المرحوم الدّكتور شوقي ضيف: «العالِمُ لا يصدرُ في عِلْمه عن نفسه، وإنّما يصدر عن الواقع الخارجيّ؛ ليتثبت ما يريدُ إثباتَه من القوانين في الطبيعة وغير الطبيعة، مقيَّداً بالمنطق العقليّ وأدلته وبراهينه، وتفاصيلها السّليمة ومقدّماتها

السّديدة. أمّا الأديبُ فلا يعبأ بذلك كلّه، إنّما يعبأ بما يشعر به في نفسه إزاء الواقع، فهو يستمدّ من داخله مازجاً الواقعَ الخارجيّ بمشاعره وما يضفيه عليه من حالاته النفسيّة ودقائقها المعنويّة (في النقد الأدبيّ، ص ٦٩).

ب- مبلغ تدخّل «الذات» في نوعَي الكتابة:

في مستطاع المتأمِّل أن يقول إنَّ «الذات» العالِمة تكون في كتابتها منهمكة في تقديم الحدّ الأقصى من محدَّدات موضوعها ومعيّناته؛ لأنّ قصْدها منصرفٌ إلى إعلام الآخرين بذلك. وكأنّه في مقدورنا أن نقول إنّها موجودةٌ ليس لنفسها هي بل للآخرين؛ تكشف لهم الحقائق وتبيّن لهم الدّقائق، حتى إنّ العرب قالت في هذا الشأن: «قتَلَ فلانٌ الشيءَ عِلْماً أو خُبْراً».

أمّا «الذّاتُ» الأدبية فتكون كتابتها مُنفعِلة بموضوعها تماماً، بل ربّما تكون مستغرَقة فيه إلى حدّ الغياب والذهول، غيرَ واضعةٍ في الحسبان أنها مطالبة بتقديم محدّداتِ موضوعها ومعيِّناته إلى الآخرين.

ولعلّ الأمرَ يتّضح أكثر حين نُعيد إلى الأذهان أنّ مادّة الكتابة العلميّة قد تكون نتاج عمل فريقٍ كاملٍ مستعمِلٍ لآلات السَّبْر والقياس والموازنة والتحليل، ومعتمِدٍ أحياناً ما يُسمّى «العِينة» أو النّموذج؛ أمّا مادّة الكتابة الأدبيّة فنِتاجُ انفعال ذات الأديب وحْدَه بموضوعه، ولا مجالَ هنا لعمل فريق، أو استعمال آلاتٍ أو اعتماد عينةٍ أو نموذج؛ وهذا «هو معنى قولهم: إنّ الأدبَ ذاتيّ، والعِلم موضوعيٌّ، فالعالِمُ يتناولُ حقائق الواقع محاوِلاً أن يصفها كما هي،



غيرَ مضيف إليها أيّ شيءٍ من داخله أو من مشاعره وتصوّراته، إذ لا ينسج نفسَه، إنّما ينسج الواقعَ وحقائقه وقوانينَه. أمّا الأديبُ فلا يهمّه الواقعُ ولا حقائقُه وقوانينه، إنّما تهمّه نفسُه وحقائقُها الوجْدانيّة ودخائلها الشّعورية» (في النقد الأدبيّ، ص ٦٩).

وينشأ عمّا تقدّم، مثلما بيّنّا قبْلُ، أنّ الأوصاف العِلميّة للموضوع الواحد تميل إلى أن تكون واحدةً عند علماء مختلفين، لأنّها معطياتُ انكشاف الواقع وتعرّفه الدّقيق وتحدّد مكوّناته وخاصّيّاته في آلة إدراك العالِم؛ أمّا الأوصاف الأدبيّة للموضوع فمتغيّرةٌ عند الأديب نفسه تبعاً لحالته النفسيّة، وعند الأدباء المختلفين تبعاً لتباين كمّ انفعالهم بالموضوع وكَيْفِه، وتبعاً لنظرتهم إلى الأشياء ولعوامل أخرى كثيرة. وسأسمح لنفسي هنا بأن أستشهد ببيتٍ قاله الشاعرُ الفارسيّ الهنديّ ميرزا بيدل مصوِّراً فيه حالَ النفس في النظر إلى الوجود الماديّ والموقف منه، وذلك إذ يقول:

لو اتسع القلب ما ظهرَ هذا المرْجُ

خرَجَ لونُ الخمرِ من شدّة ضيق الزّجاج

«والفكرةُ في هذا البيت أن هذا العالم الحسِّيّ لا خطرَ له، بل لا وجودَ له إلّا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالمُ، كالخمر يُظهرُ لونَها كأسُ الزّجاجِ لضيقها». وفي الجملة، راقت هذه الفكرةُ العلامة محمّد إقبال فقال:

ذي سماءٌ وجبالٌ وفِجاجْ

ذاكَ حقٌّ، أم عيونٌ في اعوجاجْ؟

فــــرّقَ الآراء إثـــبـــاتٌ ونـــفـــي
أهِـيَ دُنـيـا أم خِـداعٌ فـي الـحـجـاجْ ؟
عُـقْـدةٌ قـد حـلّـهـا بـيـدِلُ حـقّـاً
أعـجـزَتْ مـن قـبْـلِـه كـلَّ عـلاجْ
«مـا بـدا ذا الـمـزْجُ لـو في الـقـلـب وسْعٌ
بـان لـونُ الـخـمـرِ مـن ضـيـق الـزّجـاجْ»

ولستُ هنا طبعاً في صدر قبول هذه الفكرة الشّعريّة أو ردّها، بل ما أبتغيه هو النصُّ على تغيُّر موقف «الذّات» الأدبية من الموضوعات التي تعالجها، في مقابل ثبات موقف «الذّات» العالِمة إزاء موضوعها.

لكنّ ذلك لا ينبغي أن يُغيِّب عنّا الإشارة إلى أنّ المنتَجَ في الكتابة العلميّة ذو طبيعة متغيِّرة على المدى البعيد؛ لأنّ انكشاف حقائق الأشياء للعالِم قد يكون متوهَّماً؛ فربّما يخال أنّ فكرةً علميّة عن شيءٍ من الأشياء حقيقةٌ لا مجالَ لدفعها، ثمّ يتبيّن له بعد حين أنّ الأمرَ ليس كذلك، فيغدو ما ظُنّ حقيقة في وقتٍ خُرافة في وقتٍ آخر. أمّا المنتج في الكتابة الأدبيّة فأمْيلُ إلى الدّوام، لتصويره وَقعَ الأشياء في رقعة نفس الأديب، والأنفسُ مخلوقةٌ من نفسٍ واحدة؛ ومن هنا تكون «حقائقُ الأدب النفسيّة أكثرَ ثبوتاً وخلوداً في الحياة الإنسانيّة من حقائق العِلْم والعقليّة، فشِعرُ هوميروس وامرئ القيس والمتنبي وشكسبير وأضاربهم ما زال يُمتِعنا ويُلذّنا كما يُمتع ويُلِذّ

معاصريهم، أمّا حقائق العِلْم التي كانت تُعاصرهم فقد بليت وذهبت مع الرّيح» (في النقد الأدبيّ، ص ٧٠).

جـ- آثار تدخُّل «الذّات» في نوعيّ الكتابة:

ينشأ عن عدم تدخّل «الذّات» في الكتابة العلميّة تجدّدُ نظريّات العِلْم وتعرّضُها للتغيّر والاختلاف، وإبطالُ الحديث منها القدِيمَ أحياناً؛ لارتباط ذلك بحقيقة المحجوب الذي كُشِف وصدْق هذا المكشوف. كما ينشأ عن تدخّل «الذّات» الكبير في الكتابة الأدبيّة ثباتُ النظرات والحدُوس الأدبيّة واستمرارُ تأثيرها في النفس؛ ذلك لأنّها «قائمةٌ على أشياءَ ثابتةٍ فينا: على طبيعتنا البشريّة. وأصولُ هذه الطبيعةِ النفسيّة والشعوريّة لا تتغير ولا تتحوّل من زمانٍ إلى زمان ولا من مكانٍ إلى مكان، لم تتغيّر في الماضي ولا في الحاضر، ولن تتغيّر في المستقبل، فالناسُ سيظلون يحبون بنفس الدّوافع والعواطف والغرائز والبواعث» (السّابق، ص ٧١).

وينشأ عن ذلك أيضاً أن تختلف قيمة الموضوع أو المادّة في نوعي الكتابة هذين؛ فقيمة المعطى في الكتابة العلميّة مرجعُها مطابقتُه للواقع والحقيقة؛ وقيمة المعطى في الكتابة العلميّة بأنه صادقٌ أو كاذبٌ، وليس في مقدورنا أن نقول ذلك للأديب إذ «كلّ ما يقوله الأديب صادقٌ؛ لأنّه يصوّر به نفسَه» (نفسه، ص ٧٢).

وينشأ عن ذلك أيضاً أن تنعدم التعليلات التخيليّة في الكتابة العلميّة وتكثر في الكتابة الأدبيّة؛ حتى إنّ شيئاً من ذلك جُعِل عنصراً من عناصر التقانات البديعيّة في البلاغة العربيّة يُعرف بـ «حُسْن

التعليل». ومن ذلك مثلاً قولُ أبي هلالٍ العسكريّ (ت ٣٩٤ هـ) معلِّلاً الهيئة التي تظهر عليها زهرة «البنفسج»:

زعمَ البنفسجُ أنه كعِذاره حُسْناً فسَلّوا مِنْ قفاه لسانَه

«فخروجُ ورقةِ زهرة البنفسج إلى الخَلْف ظاهرةٌ طبيعية ثابتة، ولا علّة لها في الظّاهر على الأقلّ، لكنّ الشّاعرَ علَّلها بتعليلٍ تخييليٍّ لطيف هو أن البنفسجَ اغترّ بجماله فزعم أنّه في الحُسْن كعِذار الحبيب كذباً وافتراءً، وكانت عقوبتَه أن سُلّ لسانُه من قفاه (عيسى علي العاكوب: المفصّل في علوم البلاغة العربية، ص ٥٩٦).

ومن حسَن ذلك أيضاً قولُ الصّوليّ يعلل هبوب الرّيح وسترَها وجهَ المحبوبة عندما همّ بتقبيلها:

الرّيح تحسدني عليـ ـكِ، ولم أخَلْها في العِدا
لَمّا هممتُ بقبلةٍ ردّت على الوَجْه الرّدا

(السابق، ص ٥٩٦).

وليس في مستطاع أحدٍ أن يقول لقائل ذلك إنّه كاذبٌ مدّعٍ مخالفٌ للواقع؛ لأنه لا وجودَ للواقع هنا؛ بل مرجعُ الأمر أنّ مبنى الأدَب على التخييل والإيهام، وليس على العقل والواقع. وقد جاء في مصادر الفلسفة القديمة أنّ وظيفة الخطابة الإقناع ووظيفة الشّعر التخييل.

ومن آثار تدخّل «الذات» في الكتابة الأدبيّة وعدم تدخّلها في الكتابة العلميّة اختلافُ أسلوب التعبير في نوعي الكتابة. ونخال الأمر محتاجاً إلى معالجة مستقلة ههنا محلُّها.

د- الذّاتُ وأسلوب التعبير في نوعي الكتابة العلميّة والأدبيّة:

يُعنى بالأُسلوب في المجال الذي نحن فيه طريقة التعبير. وهو «معانٍ مرتّبة قَبْل أن يكون ألفاظاً منسّقة، ويتكوّن في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم» (أحمد الشايب الأسلوب - دراسة بلاغيّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة، ص ٤٨). ولأنّ المادّة التي تتعامل معها (الذّاتُ» في نوعي الكتابة اللذين نحن في صددهما متباينة، يتباين أسلوبا الكتابة العلميّة والأدبيّة تبايناً كبيراً، في التعبير عن الموضوع الواحد، إذ يحكم الكتابة العلميّة منطقُ العقل، ويحكم الكتابة الأدبيّة منطقُ العاطفة والانفعال، كما يقول د. شوقي ضيف (في النقد الأدبيّ، ص ٧٤).

وابتغاءَ إيضاح مرادنا هنا نقدِّم نموذجين، أولهما للكتابة العلميّة، وثانيهما للكتابة الأدبيّة، وقد عالجا موضوعاً واحداً، لكي نخلص من ذلك إلى تعرّف تأثير تدخّل «الذّات» في الكتابتين العلميّة والأدبيّة. وعندنا هنا عالِمٌ وأديبٌ وقفا أمام موضوع واحد هو أهرام مصر:

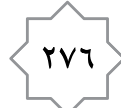
- يقول مؤلّفُ كتاب تاريخ مصر إلى الفتح العثمانيّ (ص ١٦ - ١٧، نقلاً عن الأسلوب للشايب):

«كان القصد من بناء الأهرام إيجادَ مكانٍ خفيّ يوضعُ فيه تابوت الملِك بعد مماته؛ ولذلك شيّدوا الهرمَ الأكبر وجعلوا فيه أسراباً خفيّة زَلِقة صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها وامّلاسها؛ حتّى لا يتسنّى لأحدٍ الوصولُ إلى المخدَع الذي به التابوت. ومن أجل

ذلك أيضاً سُدّ مدخلُ الهرم بحجر هائل متحرّك، ولا يعرف سرّ تحريكه إلّا الكهنة والحُرّاس، ووضعتْ أمثالُ هذا الحجر على مسافات متتابعة في الأسراب المذكورة. وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذُ تلك الأسراب مجهولة أجيالاً من الزمان، ويُعدُّ الهرمُ الأكبرُ من عجائب الدّنيا. قرّر المهندسون والمؤرّخون أنّ بناءه يشمل (٢,٣٠٠,٠٠٠) حجر، متوسّط وزن الحجر منها طنّان ونصف طنّ. وكان يشتغل في بناء الهرم مئة ألف رجلٍ، يُستبدلُ بهم غيرُهم كلَّ ثلاثة أشهر، وقد استغرق بناؤه عشرين عاماً. وجميعُ هذا الهرم شُيِّد من الحجر الجيريّ الصّلْب ما عدا المخدَع الأكبر، فإنّه من الصَّخْر المحبَّب. وكان الهرمُ مغطّى بطبقةٍ من الجرانيت فوقها أخرى من الحجر الجيريّ المصقول، ووَضْعُ المِلاط بين الأحجار في غاية الدّقة، حتّى كأنّ الناظرَ إلى الهرم يظنّه صخرة واحدة» (الأسلوب، ص ٦٦ - ٦٧ عن تاريخ مصر إلى الفتح العثمانيّ، ص ١٦ - ١٧).

- ويقول مؤلّف كتاب «حديث عيسى بن هشام» في وصف الأهرام:

«ولمّا وقفت بنا الرّكابُ في ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقفَ الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العَلم الذي يطاول الرّوابيَ والأعلام، والهضبة التي تعلو الهضابَ والآكامَ، والبنية التي تشرُف على رضوى وشمام، وتبلى ببقائها جدّةُ اللّيالي والأيّام، وتطوي تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام، وتفنى بدوامها أعمارُ السنينَ والأعوام؛ خَلِقَت ثيابُ الدّهر وهي ما تزال في ثوبها القشيب، شابت القرون وأخطأ قرنَها وَخْطُ المشيب، ما برحتْ ثابتةً تناطحُ مواقع النجوم، وتسخر



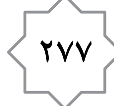
بثواقب الشُّهب والرّجوم (الأسلوب، ص ٦٨، عن حديث عيسى بن هشام، ص ٤٠٥، ط ٢).

وابتغاء بيان التأثير الذي تُحدثه درجة تدخّل «الذّات» في الموضوع في أسلوبيْ الكتابة العلميّة والأدبيّة؛ في مقدور المرء أن يخلص من تأمّل المقطعين السّابقين إلى الملاحظات الآتية:

أوّلاً - في المقطع الأوّل نشأ عن انهماك «الذّات» العالمة، بتحصيل المعلومات المتصلة بالموضوع، وتقديمها على نحو صحيح ودقيق وتفصيلي، أن جاء أسلوبُ الكتابة العلميّة على هذا النحو:

١- مصوِّراً لبنية الشيء أو هيئة تركيبه على نحو معيّن، معلِّلاً كونَه على هذه الصّورة؛ فالقصدُ من بناء الهرم إيجادُ مكانٍ يوضع فيه تابوتُ الملك بعد وفاته؛ والمكانُ المعدُّ لذلك ينبغي أن يكون حصيناً وخفيّاً، واستدعى ذلك أن يُشيّد الهرم الأكبرُ وتُجعلَ فيه أسرابٌ؛ وهذه الأسراب خفيّةٌ زَلِقةٌ صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها وامّلاسها. واستدعى ذلك أيضاً أن يُسَدّ مدخلُ الهرم بحجر، وهذا الحجرُ هائلٌ ومتحرّك ولا يعرف سرّ تحريكه إلّا الكهنة والحُرّاس، وأن يوضع أمثالُ هذا الحجر على مسافاتٍ متتابعة في الأسراب.

٢- مقدِّماً حقائقَ الموضوع وجزئيّاتِه بلُغة الأرقام والمقادير، أي بأسلوبٍ تعبيريّ متسمٍ بالدّقة والضبط، غير متأثر بالحالة الوجدانيّة للمنشئ البتة. ذلك أنّ المهندسين، أي علماءَ المقادير والنّسب، هم الذين قرّروا أنّ بناء الهرم الأكبر يشتمل على **٢,٣٠٠,٠٠٠** حجرٍ،



متوسّط وزن الحجر الواحد منه طنّان ونصفُ طنّ، وأنه كان يشتغل في بنائه مئة ألف رجلٍ يُستبدل بهم غيرُهم كلَّ ثلاثة أشهر، وأنّ بناءه استمرّ عشرين عاماً.

٣- مُظهراً التفاصيلَ والدّقائق في تصوير الجزئيات الخفيّة؛ فالهرمُ الأكبر كلُّه شيّد من الحجر الجيريّ الصُّلب ما عدا المخدَع الأكبر، فإنّه من الصّخر المحبّب. وهذا الهرمُ كان مغطّى بطبقة من الجرانيت فوقها أخرى من الحجر الجيريّ المصقول.

٤- متّصفاً بالوضوح والمباشرة في التناول مُعْرضاً عن استعمال المجازات والتمثيلات وضروب المحسّنات البديعية المعنويّة واللفظيّة، فشمس العقل هنا تُري الأشياء على ما هي عليه؛ بتعبير كاشفٍ مبينٍ مضيء، يتخلل عقلَ المدرك ويقدِّم له بهجة المعرفة والكشْف، لا بهجة التلذّذ بالتخييل والموسيقا وجماليّات الأداء المختلفة.

٥- عارضاً المعارف المقدَّمة بقدرٍ من التسلسل المنطقيّ الذي تُسْلِمُ فيه المقدّماتُ إلى النتائج على نحو يسهِّل إدراكَ المراد، ولا يسمح بتشتت الذّهن وانشغاله بعملية الفهم وتحصيل المعاني.

٦- قاصداً إلى تقديم الحقائق والمعارف والمعلومات؛ لتوسيع آفاق المعرفة ومضاعفة الخبرة بالموضوعات المعرفيّة.

ثانياً - في المقطع الثاني؛ نشأ عن انهماك «الذّات» الأديبة في تصوير وَقْع الموضوع على رقعة النفس وتمثيل الجيشان الذي تعانيه، أن جاء أسلوبُ الكتابة الأدبيّة على هذا النحو:

١- مصوِّراً الشعورَ الذي وقع الأديب تحت وطأته عندما وقفت به وبصحبه الرّكابُ في ساحة الأهرام، وهو شعورٌ بالإجلال والإعظام استبدّ بنفسه نتيجة للإحساس بالفارق المذهل؛ بين شخص الأديب وشخص الهرم الذي استعار الأديب للتعبير عنه لفظ «العَلم»، وهو الجبل الضخم. وقد أرجع شعور الإجلال والإعظام الذي عاشه إلى أمرين هما: علوُّ الهرم ومطاولُه، واستمرارُ بقائه على ما هو عليه على امتداد الأعصار. وههنا تصويرٌ لحَدْس النفس وشعورها وجيشانها وانفعالها بموضوعها، وهو غيرُ تصوير العالم الذي يصف محدّدات الموضوع بلغة الألوان والأحجام والنِّسب والعناصر المكوّنة والماهيات.

٢- مقدِّماً صورةَ الموضوع في مرآة النفس المنفعلة بهذا الموضوع بلغةٍ فيها قدرٌ كبير من التعميم والتجريد والمبالغة. وههنا حالُ النفس الجائشة المثارة المهتزّة، لا حالُ الهرَمِ الذي قدّم المهندسون تحديداتٍ دقيقة لارتفاعه ومكوّناته والأحجارِ المستعملة في بنائه والعُمّال الذين اشتغلوا فيه. الهَرمُ الموصوفُ هنا شعورٌ خالصٌ قُذف به على عذَبَة اللّسان، على طريقة صُحار بن عيّاش البعبديّ الذي يروي الحافظُ أنّه سُئِل عن كُنه البلاغة والفصاحة المتمكّنة في قومه، بني عبد القيْس، فقال: «هي شيءٌ تجيش به صدورُنا فتقذفه على ألسنتنا».

٣- مُظهراً فكرةً عامّة عن الموضوع، لكنّها ضاربة الجذور في أعماق النفس. وتتمثل في الإحساس بالصِّغر والدّقة أمام الضخامة والعظمة، وبالزّوال السّريع أمام الدّيمومة والاستمرار. وهو ضربٌ

من الحَدْس الشّعْريّ شبيه بالحدس الذي عبّر عنه الشّاعرُ خفاجة في خاتمة قصيدته التي موضوعها «الجبل»، وذلك إذ يقول:

فقلتُ وقد نكّبتُ عنه لِطيّةٍ   سلامٌ فإنّا من مقيمٍ ذاهب

وأسلوبُ التعبير هنا هو مظهرٌ لفظيّ محمَّلٌ بالحَدْس، وفقَ مقولة الفيلسوف الإيطاليّ كروتشه.

٤- متّصفاً بما أستطيع تسميتَه «التلبُّس الأسلوبيّ»، الذي أعني به هنا استعمالَ لغةٍ، مستمدة من المعجم اللغويّ الشعريّ والنثريّ القديم المحفوظ. والأديبُ هنا يصوّر انفعاله بعظمة الهرم ودوامه، ليس بلغة عصره وألفاظ مواطنيه، بل بلغة أدباء عصرٍ سابق تتمتع بقدرٍ من التبجيل. ويلتقي هنا جلالُ الموضوع وجلالُ أداة التعبير أو فخامتُها. ويبدو أنّ انفعالَ الجلال أو الإحساس بالعظمة استدعى التعبير بلغة التصوير والتمثيل والتماثل الكميّ والنّوعي لأجزاء العبارة وللفواصل والخواتيم. فالهرَمُ يطاول الرّوابي والأعلام، وهضبة تعلو الهضابَ والآكام، وبنية تشرف على رضوى وشمام..

٥- عارضاً المضمونَ الانفعاليّ في صورة الهزّة النفسيّة المنبعثة من مِشَعٍّ واحدٍ فينا، شبه الموجات المتتالية المتدفقة من مركز واحد. ومبعثُ ذلك في علم نفس الإبداع الفنيّ في الشّعر أنّ انشداد وَتَر النفس تعجزُ العبارةُ الواحدة عن تظهير شدّته، ومن هنا تتعاقب التعبيراتُ المصوِّرة له، ونظفر بما يسمّى «تكرار الفكرة وترديدها».

٦- قاصداً إلى التعبير والتنفيس catharsis على النفس، وإلى إحداث انفعالٍ عند المتلقي، وليس صدٌّ إلى التعليم هنا.

الخلاصة:

نخلص من جملة ما تقدّم إلى القول:

إنّ «الذات» في الكتابة العلميّة مُخلِصة لموضوعها منهمكة في إبانة مشخّصاته ومحدّداته وكلّ ما من شأنه أن يصوِّر للآخرين على ما هو عليه؛ وينشأ عن ذلك أن تكون المعارفُ العقليّة المحصّلة من دَرْس الموضوع وفحصه وتحليله؛ الأساس الأوّل للأسلوب العلميّ، وأن تتسم لغتُه بالدقة والوضوح والمباشرة والقدرة على الكشف والإبانة.

أما في الكتابة الأدبيّة فتكون «الذّات» منفعلة بموضوعها شديدة الحساسيّة إزاءه والتأثر به، حريصة على تصوير استجابتها له؛ وينشأ عن ذلك أن تكون الحدوس والانفعالاتُ والتأثرات الأساسّ الأوّل للأسلوب الأدبيّ، وأن تتسم لغتُه بالتعميم والتجريد والرّمزيّة والتكرار وامتطاء جياد المجازات والتمثيلات والعناصر الإيقاعيّة والموسيقيّة؛ ذلك لأن الإشارة لغة القلب، والعبارةَ لغة العقل.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغيّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة، ط٥، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

٣- الرّاغب الأصفهاني، مفرداتُ ألفاظ القرآن، تحقيق عدنان داوودي، ط ٣، دار القلم، دمشق، **١٤٢٣** هـ/ **٢٠٠٢** م.

٤- شوقي ضيف، في النقد الأدبيّ، دار المعارف بمصر، **١٩٦٢** م.

٥- عيسى علي العاكوب، المفصّل في علوم البلاغة العربيّة، دار القلم، دبي، ١٤١٦ هـ.

دار الفكر
(في سطور)

- شركة توصية بسيطة أسست عام ١٩٥٧م. وتفرعت عنها عدة شركات شقيقة.
- تعتني بثقافة الكبار وبثقافة أطفالهم.
- تختار منشوراتها بمعايير الإبداع والعلم والحاجة والمستقبل.
- تحترم حقوق الملكية الفكرية وتدعو لاحترامها.
- تعتز بالجذور الثقافية العربية الإسلامية وتسعى لتنميتها وتحديثها.
- تؤمن بحرية الإنسان في التفكير والتعبير والاطلاع، وتدافع عنها.
- تحترم الرأي الآخر وتبحث عنه، وترى في الحوار وسيلة لاستيلاد الأفكار وتنميتها.
- تعد خططها وبرامجها للنشر وتعلن عنها شهرياً وسنوياً ولآماد أطول.
- تمد جسورها إلى القارئ وتتواصل معه عبر برامجها (بنك القارئ النهم) و (مكتبة الاستبدال) و (الإعارة المجانية) و (هدية الأفكار).
- تصنع المعرفة وتعتني بجودة إنتاجها؛بدءاً من الفكرة والمضمون، وانتهاء بالشكل والإخراج.
- تمنح جائزتها السنوية للقصة والرواية، وتكرمٍّ سنوياً كلاً من المؤلف والمبدع والقارئ.

- تيسر الحصول على الكتاب من خلال خدمات التوصيل السريع، وموقع فرات لبيع الكتاب بواسطة الإنترنت.
- تواكب العصر في مواقعها المتعددة على الإنترنت: فكر www.fikr.com، فرات www.furat.com، زمزم www.zamzamworld.com
- تواصل نشاطاتها الثقافية والإعلامية عبر مهرجانها الثقافي السنوي المواكب لليوم العالمي للكتاب، وعبر ندواتها وحفلاتها للتوقيع.
- حصدت جائزة أفضل ناشر عربي من الهيئة العامة المصرية للكتاب **٢٠٠٣**.
- حصدت إصداراتها أربع جوائز من مؤسسة التقدم العلمي في الكويت عن كتابيها: الجراحة التنظيرية **٢٠٠٠** وآفاق القرن الحادي والعشرين، وهروبي إلى الحرية (في مجال الترجمة)، وعن كتابيها: موجز تاريخ الكون، والجينوم البشري وأخلاقياته (في مجال التأليف في العلوم).
- يقوم بأعمالها موظفون وفق هيكل تنظيمي دقيق وبرامج تدريب.
- تجاوزت إصداراتها **٢٢٠٠** عنواناً تغطي سائر فروع المعرفة.
- وتجاوز عدد مؤلفيها **٥٠٠** مؤلفاً للكبار و **١٠٠** مؤلف للأطفال من أشهر الكتّاب في الوطن العربي والعالم.
- سلاسلها (حوارات لقرن جديد) (حوار مع الغرب) (اقرأ كتابك)، ما تزال مشاريع ثقافية فريدة يتلقفها سائر المثقفين في الوطن العربي.
- أنتجت للأطفال أكثر من ألف عنوان، في سلاسل تعليمية وتربوية مميزة.

- أصدرت عدداً من كتبها بلغات أجنبية، وباعت حقوق ترجمة عدد من كتبها من العربية إلى لغات أخرى، وابتاعت حقوق ترجمة عدد من الكتب إليها.
- أصدرت في النشر الإلكتروني عدداً من الكتب والبرمجيات والألعاب ثلاثية الأبعاد.
- لإصداراتها برنامج سنوي تعلنه في قائمتها السنوية وتلتزم به.
- يتقلب كتابها في ٦٠ مرحلة منذ تخطيطه مع المؤلف وحتى وصوله إلى يد القارئ.
- لديها جهاز مدرب وكفي للتدقيق اللغوي يعمل وفق دليل خاص بها.
- تهتم بالتسويق المباشر للكتاب، عبر أقنية وبرامج مدروسة مميزة.
- حققت بعض كتبها أرقاماً غير مسبوقة لتكون الأكثر مبيعاً في الوطن العربي.
- كان لها قصب السبق، حين أطلقت أول موقع عربي لناشر عربي على الإنترنت www.fikr.com، وأول متجر عربي إلكتروني للكتاب www.furat.com وحازت شرف التميز في برامجها وجوائزها لتكريم المؤلف والمبدع والقارئ، وفي شعارها السنوي، وخططها المسبقة.
- دار الفكر: تعرف ماذا تنشر، ولمن تنشر، وكيف تنشر...

سيرة ذاتية

- **الاسم الكامل:** محمد عدنان سالم
- **الولادة:** دمشق ١٩٣٢م
- **التحصيل العلمي:** إجازة الحقوق من الجامعة السورية ١٩٥٤
- **الوظائف التي شغلها:**
  - المدير العام لدار الفكر منذ تأسيسها عام ١٩٥٧
  - رئيس اتحاد الناشرين السوريين ١٩٩١-٢٠١١
  - نائب رئيس اتحاد الناشرين العرب ١٩٩٥-٢٠٠٦
  - رئيس اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية ١٩٩٥-٢٠٠٦
  - رئيس الجمعية السورية للملكية الفكرية ٢٠٠٨ - ٢٠١٠
  - رئيس الملتقى العربي لناشري كتب الأطفال ٢٠٠٨ - ٢٠١١
  - عضو مراسل مجمع اللغة العربية ٢٠١٦.
- **الحياة العملية:**
  - ممارسة المحاماة ما بين ١٩٥٦و١٩٥٧.
  - تدريس مادة علم الاجتماع بالمدارس الثانوية.
  - المشاركة في تأسيس دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر وإدارتها منذ عام ١٩٥٧م.

- **المؤلفات:**

١- القراءة أولاً/ عام **١٩٩٣**

٢- هموم ناشر عربي/ عام **١٩٩٤**

٣- الكتاب العربي وتحديات الثقافة / عام **١٩٩٦**

٤- تسريع القراءة وتنمية الاستيعاب (بالاشتراك) / **١٩٩٦**

٥- الكتاب في الألفية الثالثة لا ورق!! ولا حدود!!/ عام **٢٠٠٠**

٦- أمريكا والإرهاب / عام **٢٠٠٢** (ترجم للإنجليزية)

٧- على خط التماس مع الغرب /عام **٢٠٠٥**

٨- القرصنة في عصر اقتصاد المعرفة / عام **٢٠٠٦**

٩- وللحج مقاصد.. لو نجتهد لتلبيتها/ عام **٢٠٠٧**

١٠- القدس ملامح جيل يتشكل / عام **٢٠٠٩**

١١- حرية النشر وإشكالية الرقابة على الفكر / عام **٢٠١١**

١٢- القدس **٢٠٤٨** (رواية مفتوحة) / عام **٢٠١١**

١٣- آفاق التغيير والعصر الرقمي / عام **٢٠١١**

١٤- فن النشر وصناعة الكتاب (مرجع أساسي للكتّاب والمحررين والمحققين والناشرين) / عام **٢٠١٥**

مستخلص

كتاب تقدم به محبو الأستاذ محمد عدنان سالم وأصدقاؤه؛ بعد اعتذاره عن تجديد انتخابه رئيساً لاتحاد الناشرين السوريين، واختياره رئيساً فخرياً.. ليكون عربوناً لمحبتهم له، واعترافاً بجهوده البارة في خدمة الثقافة والمعرفة والكتاب؛ من خلال دار الفكر على مدى ستين عاماً.

الكتاب قسمان؛ الأول تضمن كلمات مهداة إليه؛ من عارفي فضله، أو من زملائه في صناعة النشر، أو من كبار المؤلفين الذين تعاملوا معه، وهي لخمسة عشر كاتباً، تحدثوا بما يعرفون عنه، وما وجدوه فيه من صفات ليس يعرفها كل أحد، وهي تتعلق بفكره وشخصيته وتوجهاته..

أما القسم الثاني من الكتاب؛ فقد تناوله ثمانية مؤلفين من الكبار الجادّين؛ أهدوا إليه بحوثهم القيمة؛ بعضها يتصل بحوارات دار الفكر، وأخرى تقف عند حقوق الملكية الفكرية وأثرها في تطوير الإنتاج الفكري، وثالثة تهتم بالتراث، ورابعة تتعلق بالموضوعية في الكتابة والبحث العلمي، وخامسة في نقد الشعر.. وهكذا.

الكتاب على تشكيلته هذه يمثل فرادة؛ لأنه يضم عدداً من الكتّاب المشاهير الذين التفوا حول الدار، ويظهر من هم مؤلفوها، وما جهودها في النشر.

Abstract

A book presented by those who have loved Mr. Muhammad Adnan Salem as well as his friends after he had apologized for not re-election as President of the Syrian Publishers Association and when he was chosen as an emeritus president thereof so as to be an evidence to their love of him and recognition of his dutiful efforts in serving culture, knowledge and the book through Dar al-Fikr over sixty years.

The book is divided into two sections: the first involves articles dedicated to him by those who are aware of his favor, his colleagues in the publishing industry and the senior authors who have dealt with him, written by fifteen authors. They discuss what they have known about him and the qualities related to his thought, character and orientations that are not known to everybody having acquaintance with him.

Eight adult serious authors handle the second section of the book, dedicating their valuable researches to him. The first category is related to the Dialogues of Dar al-Fikr. The second tackles the rights of intellectual property and their impact on the development of the intellectual production. The third is concerned with the heritage, the fourth is related to the objectivity in writing and scientific research, the fifth is on the criticism of poetry, and so on.

Through such a variety, the book assimilates uniqueness because it includes a number of highly famous writers who have embraced the publishing house and acquaints with its authors and efforts in publishing.